مكونات العقل المسلم ودرجات المعرفة

الأستاذ الدكتور / علي جمعة

7 شارع الجمهورية ـ عابدين ـ القاهرة
جمهورية مصر العربية

ت: 01004093521 (202+)
01147208173 (202+)

الطبعة الأولى
1438هـ - 2017م

رقم الإيداع: 2017/ 25395
الترقيم الدولي I.S.B.N.
978-977-6214-66-8

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

سلسلة البيان (15)
محمد، علي جمعة
مكونات العقل المسلم ودرجات المعرفة/ علي جمعة محمد
ط1-القاهرة: الوابل الصيب للنشر والتوزيع، 2017.
تدمك : 8-66-6214-977-978
1- المناهج الفكرية.
2- العقل.
3- الفكر الإسلامي.

الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر
تراثنا .... أمانة في أعناقنا

مكونات العقل المسلم
ودرجات المعرفة

تأليف

أ.د علي جمعة

عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة السلسلة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، آمين.

إن الفكر المتطرف يدفع إلى السلوك المتطرف، وحينما تأتلف فئة في المجتمع على هذا النهج تغدو كتوحش الخلايا السرطانية التي تفسد أعضاء الجسم وترديه، وقد كان التطرف سببا رئيسا في سقوط دول وتراجع حضارات في عالمنا المعاصر، ولذلك أخذت على عاتقها جماعة من العلماء المخلصين الغيورين على دينهم ووطنهم، وتحملت مسئولية الرد على الفكر المتطرف في الدين ، معذرة إلى ربهم ولعلهم يهتدون، فإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا .

وهذه سلسلة البيان تتوالى فكان أولها موسوعة الرد على خوارج العصر في خمس مجلدات، شملت الرد على الشبهات في محاور متعددة وجهات محيطة في الفقه والعقيدة والمناهج والأصول والحضارة . وتلاها منظومة القيم الأخلاقية ثم الصفات الإلهية بين الرازي وابن تيمية ثم فقه حب الحياة والسلف والسلفية بين التنزيه والتشبيه ثم حكاية الإرهاب ... إلخ.

والسلسلة مقسمة إلى حلقات ، حلقات عملت على الهدم، هدم الفكر المتطرف في الدين من جهة العقيدة والشريعة والأخلاق والمعاملات، وحلقات للبناء ، تبنى العقلية العلمية حسب النموذج الإسلامي، باعتماد التفكير المنهجي، وتقدير التراث وعلماء الدين.

ولن نكون من الخالفين أو القاعدين عن مواجهة هؤلاء النابتة، فنسأل الله أن ينفع بهذه السلسلة ويرد عن أمتنا هذه الفتنة التي تهدد أمنها واستقرارها.

أ.د علي جمعة

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

وبعد،،

إن العقل هو أسلوب في التفكير، وأداة للفهم، ومنهج في إدراك الأشياء من حولنا، وعقلنا يتشكل عبر سلسلة من التجارب والخبرات والمعارف التي يمر بها الإنسان في بيئته ومحيطه.

وإن الإنسان المسلم الذي نشأ في حضارة الإسلام وفي بيئته، وشَكَّلَ عقله ووجدانه نصوص الشرع الشريف، فوضع به عددا من المحددات والمكونات، التي ميزته على غيره من العقول؛ فاستطاع المسلم بذلك أن يميز أمورا وأن يجيب على أسئلة ضل في إجابتها آخرون: من أين أتي الإنسان؟وما دوره في هذا الكون؟ إلى أي مصير ينتهي؟

والكتاب الذي بين أيدينا مجموعة من المقالات فيها شرح يسير لمفردات العقل المسلم التي تؤسس للعقلية العلمية التي حض الإسلام على بنائها، وتميزا وبعدا عن العقلية الخرافية التي رسخت لها جماعات الانحراف والضلال والفتنة .

إن النابتة نَشَّأَتْ أتباعَها على العقلية المختلطة الهشة ذات التفكير السطحي

والربط الساذج بين الأمور، ونحن في سلسلة البيان نسعى جاهدين مستعينين بالله تعالى إلى بناءٍ بَعْدَ هدمٍ، بناء لطريقة علمية منهجية شرعية في تناول الواقع والتعامل معه، والفوز فيه، والسيطرة عليه، والنجاح في الاندماج مع الآخر، والتأثير فيه بالإيجاب.

وإن فاعلية المسلم في مجتمعه وفي عالمه تتوقف على أسلوب سليم في التفكير وفي التعقل والرشد في إدارة حياته والدعوة إلى دينه وعقيدته.

نسأل الله أن ينفع بهذا العمل.

وأن يرد كيد الخائنين عن بلدنا الأمين مصر.

وعن بلاد أمتنا الإسلامية أجمعين.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

أ.د علي جمعة

تعريف العقل

قال الزركشي : الْعَقْلُ لُغَةً الْمَنْعُ، وَلِهَذَا يَمْنَعُ النَّفْسَ من فِعْلِ ما تَهْوَاهُ ، مَأْخُوذٌ من عِقَالِ النَّاقَةِ الْمَانِعِ لها من السَّيْرِ حَيْثُ شَاءَتْ ، وهو أَصْلٌ لِكُلِّ عِلْمٍ .

قال ابن السَّمْعَانِيِّ : وكان بَعْضُ الْأَئِمَّةِ يُسَمِّيهِ أُمَّ الْعِلْمِ. وَكَثُرَ الِاخْتِلَافُ فيه حتى قِيلَ: إنَّ فيه أَلْفَ قَوْلٍ. وقال بَعْضُهُمْ : سَلْ الناس إنْ كَانُوا لَدَيْك أَفَاضِلًا عن الْعَقْلِ وَانْظُرْ هل جَوَابٌ يُحَصَّلُ.

وقد تَكَلَّمَ فيه أَصْنَافُ الْخَلْقِ من الْفَلَاسِفَةِ وَالْأَطِبَّاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ وَالْفُقَهَاءِ ، كُلُّ وَاحِدٍ ما يَلِيقُ بِصِنَاعَتِهِ ، فَأَمَّا الْفَلَاسِفَةُ فَشَأْنُهُمْ الْكَلَامُ في الْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا وَمَعْرِفَةُ حَقِيقَتِهَا وَالْعَقْلُ مَوْجُودٌ ، وَالْأَطِبَّاءُ شَأْنُهُمْ الْخَوْضُ فِيمَا يُصْلِحُ الْأَبْدَانَ وَالْعَقْلُ سُلْطَانُ الْبَدَنِ ، وَالْمُتَكَلِّمُونَ هُمْ أَهْلُ النَّظَرِ وَالنَّظَرُ أَبَدًا يَتَقَدَّمُ الْعَقْلَ ، وَالْفُقَهَاءُ تَكَلَّمُوا فيه من حَيْثُ إنَّهُ مَنَاطُ التَّكْلِيفِ.

فقال الشَّافِعِيُّ رضي اللَّهُ عنه : آلَةٌ خَلَقَهَا اللَّهُ لِعِبَادِهِ يُمَيِّزُ بها بين الْأَشْيَاءِ وَأَضْدَادِهَا. وقال في مَوْضِعٍ آخَرَ : وَالْعُقُولُ التي رَكَّبَهَا اللَّهُ فِيهِمْ لِيَسْتَدِلُّوا بها على الْعَلَامَاتِ التي نَصَبَهَا لهم على الْقِبْلَةِ وَغَيْرِهَا مَنًّا منه وَنِعْمَةً . قَالَهُ ابن سُرَاقَةَ ، وَهَذَا النَّصُّ مَوْجُودٌ في الرِّسَالَةِ قال الصَّيْرَفِيُّ في شَرْحِهَا : بَيَّنَ الشَّافِعِيُّ أَنَّ الْعَقْلَ مَعْنًى رَكَّبَهُ اللَّهُ في الْإِنْسَانِ أَيْ خَلَقَهُ فيه لَا أَنَّهُ فِعْلُ الْإِنْسَانِ كما زَعَمَ بَعْضُ الناس.

وقال: دَلَّهُمْ على جَوَازِ الِاجْتِهَادِ بِالْعُقُولِ التي رُكِّبَتْ فِيهِمْ الْمُمَيِّزَةِ بين الْأَشْيَاءِ وَأَضْدَادِهَا.

وَقِيلَ : قُوَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ يُفْصَلُ بها بين حَقَائِقِ الْمَعْلُومَاتِ. وَقِيلَ: جَوْهَرٌ لَطِيفٌ يُفْصَلُ بِهِ بين حَقَائِقِ الْمَعْلُومَاتِ .

وقال الإمام أبو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ: الْعَقْلُ هو الْعِلْمُ . وَكَذَا قال ابن سُرَاقَةَ : هو في الْحَقِيقَةِ ليس بِشَيْءٍ غير الْعِلْمِ لَكِنَّهُ عِلْمٌ على صِفَةٍ ، فَجَمِيعُ الْمَعْلُومَاتِ بِحِسٍّ وَغَيْرِهِ إلَيْهِ مَرْجِعُهَا وهو

يُمَيِّزُهَا وَيَقْضِي عليها وَحُجَّتُهُ مَأْخُوذَةٌ من قِبَلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِخَلْقِهِ ذلك في الْإِنْسَانِ.اهـ[1]

ومعنى هذا أن عملية التعقل أو التفكير لا يمكن أن تتم إلا إذا توافرت أركان أربعة، اثنان منها داخل الإنسان وهما الدماغ والحواس، واثنان خارجه: الواقع المعيش، والمعلومات السابقة، وتحصل للإنسان شيئًا فشيئًا، وتُختَزن في ذهنه، بينما يظل الواقع محيط به خارج عنه.

وعلى ذلك لو تصورنا إنسانًا عنده الدماغ والحواس ولكنه طفل صغير ليس عنده أي معلومات سابقة فإنه لا يمكن أن يُفكِّر، ولا أن يستعمل عقله، وكذلك لو تخيلنا إنسانًا في فضاء ليس حوله أي نوع من أنواع الواقع - لا شجر ولا حجر ولا أي شيء- وهو في عدم مطلق فإنه لا يمكن له أن يُفَكِّرَ؛ لأنه وإن كان عنده الدماغ والحواس إلا أنه ليس عنده أي شيء من الواقع الذي يتفاعل معه ويُفَكِّرَ فيه .

واختلاف الفلاسفة والأصوليين وأهل الكلام علي تحديد العقل وماهيته نتج عنه أكثر من ألف تعريف للعقل، كان منها أنه لا تعريف له، وأن كل أحد منا يعرف العاقل والمجنون.

وبعضهم يقول: إن العقل هو الإدراك ، ومن ثم فإنه إذا حدث خلل في هذا الإدراك سواء في إدراك الزمان، أو المكان، أو الأشخاص، أو الأحوال كان الإنسان مجنونا، فالذي لا يعرف الليل من النهار، ولا الصيف من الشتاء، ولا القيام من الجلوس، ولا من الشخص الذي يكلمه وقد كان من المعتاد أن يعرفه ؛ لأنه أبوه، أو أخوه، أو ابنه، أو جاره، وهكذا... فإنه عندما يفقد هذا الإدراك يصير مجنونا.

وهناك عدم إدراك جزئي قد يصيب العقل فيغيب الإنسان بغيابه ؛ كما في حالة الإغماء، أو

(1) البحر المحيط في أصول الفقه : 1 / 65، ط دار الكتب العلمية.

النوم، أو الغفلة، أو السهو، أو ما يسمي بالجنون المتقطع، وعندئذ يخرج الإنسان من دائرة التكليف، فليس هناك تكليف علي الصبي، ولا تكليف علي المجنون، ولا علي المعتوه، ولا علي النائم، ولا علي الغافل، ولا علي الساهي وهكذا.

وبضم هذه الأمثلة تتبين لنا ماهية العقل على أنه: الإدراك للزمان، والمكان، والأشخاص، والأحوال، وما دام الإنسان عنده هذا الإدراك فإنه يكون عاقلاً.

ويمكننا أن نعرفه، بأنه ذلك المكون من الدماغ أي المخ، والحواس، وإدراك الواقع المحسوس، والمعلومات السابقة، وأن العملية الفكرية لا تتم فى ذهن الإنسان إلا بهذه العناصر الأربعة، وأى اختلال فى واحدة منها لا يكون معه عقل، فمن أصيب فى الدماغ (المخ) فليس معه عقل كشأن المجنون، ومن فقد حواسه من سمع وبصر وكلام فهو غير مكلف، والطفل حيث لا معلومات سابقة فى ذهنه فليس بمكلف.

وكأن الشرع قد ناط التكليف بالبلوغ؛ لأن البلوغ المدلول عليه بالاحتلام عند الذكر، والحيض عند الأنثى، يُعلِم صاحبه بمعنى جديد، هو الشهوة الجنسية .

ومعرفة تلك الشهوة لا تتأتى بوصف الواصفين لها، ولكن لا بد لإدراكها من التلبس بها، وهذا فيما أرى سر من فصَّل ومن أجمل في التعاريف السابقة ، والمعنى واحد باعتبار أن من أجمل فى كلمة العقل قصد عناصره تلك والتى لا يتم التفكير إلا بها ويقع الخلل عند عدم إدراك أحدها، ومن فصل فكأنه أشار إلى عنصر الدماغ (المخ) بكلمة العقل، حيث يطلق العقل ويراد منه الدماغ.

إن هذا التعريف للعقل والمستنبط من كلام علماء المسلمين فيه قطع الطريق على ملاحدة الماديين الذى يعرفون العقل بأنه انعكاس للواقع على الدماغ ويبنون على ذلك إنكار ما وراء المنظور وعالم الغيب، وبالتالى الوحى والخالق.

ماهية العقل

العقل: سُمِّيَ بذلك في لغة العرب؛ لأنَّه يمنع الإنسان من فعل المُهلِكات، وما يؤدي به إلى الهلاك والضياع والضرر والخسران؛ ولذلك قالوا: «العاقل خصيم نفسه»؛ أي إنَّه: يحاسب نفسه أَوَّلًا بأول، وعقله وحكمته تمنعه من فعل الخطأ، ولكن كيف وصل الإنسان إلى هذا العقل؟

وصل إليه بعدة أمور منها :

- أولاً: بالحواس.
- ثانيًا: بالدماغ
- ثالثًا: بالواقع الذي نعيشه، ففيه يعيش الإنسان تجارب يتقلب فيها سواءٌ أكان بنفسه، أو عن طريق آبائه، أو المجتمع، فيكتسب بذلك معلومات عن مورثات ثقافية وتاريخية وبعض الأعراف والعادات .
- رابعا: بالمعلومات السابقة.

إذن، يمكن أن نتخيل العقل المُفكر بطريقةٍ محددة، وهو أنَّه مكون من أربعة عناصر: «الدماغ، الحواس السليمة، المعلومات السابقة التي يمكن للإنسان بواسطتها أن يفكر، وأن يتدبر، الكون المحيط(الواقع) (البيئة)».

وتفصيله كالتالي :

بالنسبة للواقع: فلو فرضنا أنَّ إنسانا قد خُلِق في الفراغ، أي: في "اللا شيء" ليس هناك شيءٌ حوله، ويَصعُب تصور هذه الحالة، ولكن تخيل نفسك في فراغ فسيح، وليس هناك شمس، وليس هناك قمر، ليس هناك أرض، ليس هناك نجوم، ليس هناك أي شيء حولك؛ فإنك سوف تدرك ذاتك، ولكن لا تدرك غير ذلك. فلن يكون هناك أيُّ آلية للتفكير

والتعقل، بل سيكون الفراغ في العقل كما الفراغ المحيط بك.

وأما بالنسبة للحواس: فالإنسان في طفولته يتعرف على الأمور من حوله من خلال الحواس، سواء أكان عن طريق حاسة الذوق أو اللمس أو الشم أو السمع أو البصر ، ويدرك أن لهذا الصنف من الطعام ـ مثلا ـ خاصة في مذاقه وفي لونه وكذا رائحته، بيد أنه يحتاج في ذلك إلى من يحدد له المسميات، وهنا تعمل حاسة السمع، فتسجل هذا المعنى، ووتتكون لديه حصيلة من المفردات .

ولفهم سلامة الحواس: فلو تخيلنا إنسانًا قد خُلِق أعمى وأصم وأبكم، فقد حرم من السمع والبصر والكلام؛ فإنه يكون قد أُصِيب في وسائل إدراكِه لكل ما حوله، وبذلك فَقَدْ فَقَدَ معرفة الواقع المعاش حوله، مما يستوجب رفع التكليف عنه؛ ولذلك قال العلماء: «العقلُ مَناطُ التكليف». فالعقل هنا هو سلامة هذه الحواس؛ ولذلك اشترطوه في المُساءلة، فمن لم تبلغه الرسالة، فهو غير مسئولٍ عنها.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾[الإسراء: 15].

وحتى تتم المعرفة والإدرك بالرسالة والرسول ومعجزة الإسلام لا بد من سلامة الحواس، فاشترط العلماء لذلك: «أن يصله الإسلام وهو سليم الحواس بصورةٍ لافتةٍ للنظر؛ حتى يكونَ مُكَلَّفًا، فإن لم يكن كذلك فهو ليس بمكلف».

ونضرب هنا مثالا بالشهيرة هيلين كيلر الأمريكية التي كانت تعيش في الخمسينيات[1]، والتي أصيبت بفقد السمع والبصر ، ثم استطاعت معلمتها عن طريق خرير ماء الصنبور في حديقة المنزل أن تعلمها بعض المعلومات، واستمرت على هذا حتى تراكمت هذه المعلومات فقامت بتأليف رواية، واستطاعت تحصيل بعض المعلومات، إلا أنه بالرغم من ذلك فهي غير مكلَّفة.

ولم تتمكن من معرفة حقائق كحقيقة الألوان، فهي تعلم أن هناك ألوانا، ولكنها لا تعرف ما الأخضر، وهكذا. فبالتالي هي غير مكلفة عندنا حتى ولو وصلت إلى العالمية، وحتى لو استطاعت أن تقدم مثل هذه الرواية، علينا تشجيعها وكذا من يماثلها، وما أصاب حواسها من خلل يرفع عنها التكليف.

وأما الدماغ : فقد زعم الحكماء قديمًا أن في الرأس ثلاث تجاويف تجويف في مقدمه: وفيه قوتان: إحداهما: (الحس) المشترك وهو: قوة تدرك المحسوسات بواسطة الحواس الخمس، فهو كحوض تصب فيه خمسة أنابيب. والأخرى: الخيال وهي: خزانة للحس المشترك.

وتجويف في مؤخره وفيه قوتان: إحداهما: الوهم. وهو: قوة تدرك المعاني الجزئية، كعداوة زيد . والأخرى: الحافظة. وهي: خزانة للوهم.

---

(1) هيلين كيلر: من مواليد 1880. أديبة ومحاضرة وناشطة أمريكية، وقد عانت هيلين كيلر من المرض في سن اثني عشر شهرًا، وافترض أطباء الأطفال أنها مصابة بالحمى القرمزية والتي تعرف بمرض التهاب الرأس، مما أدى إلى فقدانها السمع والبصر تماماً. ومن اليوم الأول مع معلمتها بدأت هيلين في إقامة علاقة بين الإشارة واستلام الموضوعات وكانت لديها القدرة على إعادة إنتاج هذه الإشارة، ولكي تتعرف على الأشياء كانت هيلين تنتقل بفكرها وتستخدم الحركة الاحتكاكية للأشياء من أجل معرفتها.

وتجويف في وسطه لكنه مستطيل كثقب الدودة، وفيه قوة واحدة تسمى المتصرفة شأنها التركيب، والتحليل بين الصور، والمعاني لا تَسْكُنُ نومًا ولا يقظة؛ فإن استعملها العقل في مدركاته سميت مفكرة، وإن استعملها الخيال في الصور المحسوسة سميت متخيلة، وهذه إحدى الطريقتين في النقل عنهم.[1]

ولا بد من سلامة الدماغ لسلامة الإدراك والتعقل، وبناء عليه: فنقول إنه إذا أصاب الإنسان خللًا في دماغه؛ وأثر هذا الخلل على إدراكه للزمان أو المكان أو الأشخاص والأحوال؛ فإنه بالتالي لن يستطيع أن يُفكر تفكيرًا عقليًا منضبطًا.

وفقد الإنسان لإدراكه للأحوال المختلفة التي حوله يدل على بداية فقده لعقله، فمن يظن الصيفَ الشتاءَ؛ فيرتدي الملابس الثقيلة. وكذا العكس فيظن الشتاء صيفا، فيتعرق ويخفف من ملابسه حتى يصاب بالبرد.

ومن يلتقي بأستاذه في الجامعة؛ فيتكلم معه كما لو كان بائع سلعةٍ مُتجَوِّلًا، وإذا قابل البائع في الصباح ؛ فيكلمه في المسائل الفلسفية المُعقدة كما لو كان أستاذًا في الجامعة.

كذلك من يضحك في المَيْتَم ويبكي في الفرح، فهذه كلها دلالات على خلل في الدماغ ، والإدراك يلزم عنها أن الإنسان في هذه الحالة ليس ذا عقل، ولا يمكن الاعتماد على نظرته، أو حكمه على الأمور؛ لأن إدراكه لما حوله يعد إدراكًا مختلا وغير صحيح.

وأمَّا عن المعلومات السابقة: تخيل أنَّ طفلًا دماغه سليمة، وحواسه سليمة، والواقع المحيط به موجود؛ ولكن ليس لديه معلومات سابقة مكتسبة، فإنه لن يستطيع التفكير في

(1) – حاشية الشيخ الباجوري على شرح المحلي (مخطوط) لوحة 70.

شيء، حتى يتم له ذلك بالتلقي والاكتساب من أمه وأبيه أولًا، ثم من العالم الخارجي، فتتكون لديه حصيلة من المعلومات تمكنه من التفكير في كل شيء، في الحب والكراهية في الفرح والحزن في الضحك والبكاء، ويظل في استقبال المعلومات بلا تكليف إلى أن يأتي وقت البلوغ فيصير مكلفًا؛ لأن وقت البلوغ يبدأ بشعور الإنسان بالجوانب الجنسية التي لا بد فيها من التمييز بين الحلال والحرام، فينبهه الشرع وقتها أنَّه مكلفٌ، ويأمره بالعفة، وينهاه عن الوقوع في الزنا، ويرشده إلى الزواج؛ وهنا يصير الإنسان مكلفا بـ "افعل ولا تفعل".

فالعقل إذن هو ذلك المكون من تلك الأربعة: واقع معاش، دماغ سليم، حواس سليمة، ومعلوماتٍ سابقة = يستطيع الإنسان أن يخزنها في ذاكرته، وأن يسترجعها عندما يريد، وأن يربط بينها وبين المعلومات الجديدة، فيتولد منهم فكرٌ جديد.

وبذلك يقوم العقل بدوره وتبدو آثاره ومنافعه، فيرتب المعلومات ويقدم المقدمات ويستعرض العواقب، فيقدم على الفعل أو يحجم عنه، ولذا سمي عقلا؛ لأنه يعقل الإنسان عن أسباب الهلاك الحسي أو المعنوي، ويدفع الإنسان إلى أسباب الخير، و يمنعه عن أسباب الشر.

هذا هو العقل في عمومه؛ إذن فلا بد أن نبحث عن المعلومات السابقة التي خزنت في ثقافة المسلم ومعارفه؛ لأنَّ المسلم شأنه شأن غير المسلم في تكوين مخه، وفي بنائه، وفي تكوين حواسه، وفي تكوين الواقع المحيط به.

فما الفارق الذي يميز المسلم عن غيره؟

الفارق هو المعلومات السابقة؛ ولذلك سنحاول أن نرحل رحلةً في عقل المسلم، في معلوماته السابقة؛ حتى نتبين منها ما الذي ميزه، وما الذي جعلنا نقول: «إنَّ هذه هي العقلية الإسلامية».

العقل نورٌ من الله سبحانه وتعالى، ونعمةٌ من الله يؤتيها عباده، وقد وضع له الفلاسفة أكثر من ألف تعريف، حتى إنَّ بعضهم قال: إنَّه لا تعريف له؛ لأنَّها مسألة واضحة جدًا، وكلما ازداد الأمر وضوحًا فإنَّه لا يحتاج إلى تعريف، ويكون من المُسَلَّمات والبدهيات التي لا يختلف فيها اثنان.

وغيرهم عرفوه بآثاره، وبعضهم عرفه بأحكامه وأقسامها:

يقول الشيخ الدردير في خريدته:

أَقْسَامُ حُكْمِ العَقْلِ لاَ مَحَالَه * هِيَ الوُجُوبُ ثُمَّ الاسْتِحَالَه

ثُمَّ الجَوَازُ ثَالِثُ الأَقْسَامْ * فَافْهَمْ مُنِحْتَ لَذَّةَ الأَفْهَامْ [1]

وبعضهم يقول: «إنَّ العقل علوم ضرورية، وشرط ابتداء النظر تقدم العقل؛ وليس العقل جملة العلوم الضرورية، بل هو بعض العلوم الضرورية، وليس كلها". [2]

ونقل الحارث المحاسبي رضي الله عنه تعريفات عديدة للعقل، فقال: قَالَ قوم: هُوَ نور وَضعه الله طبعًا وغريزة يبصر بِهِ ، ويعبر بِهِ. نور فِي الْقلب كالنور فِي الْعين، وَهُوَ الْبَصَر، فالعقل نور فِي الْقلب وَالْبَصَر نور فِي الْعين، والعقل غريزة يُولد العَبْد بهَا ثمَّ يزِيد فِيهِ معنى بعد معنى بالمعرفة بالأسباب الدَّالَّة على المعْقُول[3].

---

(1) شرح الخريدة البهية في علم التوحيد ، للشيخ أحمد العدوي الشهير بالدردير، ص: 11.

(2) الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد ص15، حققه محمد يوسف موسى وعلي عبد المنعم ، مكتبة الخانجي مصر، 1329هـ/ 1950م.

(3) ماهية العقل ، ومعناه للحارث المحاسبي ص 204.

وممن حاول تعريف العقل فأخطأه الفكر الشيوعي الذي يقول به ماركس وأتباعه؛ حيث يرى أن العقل هو انعكاس الواقع على الدماغ ، الأمر الذي يؤول إلى إنكار مسألة الألوهية؛ لأن الله عز وجل ليس تحت الإدراك الحسي، قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾[1]

ونردُ على ذلك القول بأن الواقع لا ينعكس، إنما الذي ينعكس هو الضوء، لكنَّ الواقع ليس له ضوء ينعكس به، فالذي ينعكس هو صورة الواقع وليس الواقع نفسه؛ إذ لا أشعة له، وبهذا الإيضاح البسيط ينتهي أصل هذه الفكرة العجيبة التي ليس لها مقصودٌ إلا إنكار الألوهية التي هي أظهر من الظهور، وأبين من البينات، وأوضح من الواضحات.

وبعد ما عرفنا العقل ننتقل إلى بيان وظيفته.

وتنحصر وظيفة العقل في:

1. التلقي من الحواس السليمة.
2. الفهم لما تلقاه.وهذا الفهم يستلزم فهم اللغة، وفهم الرموز، وفهم عالم الأشياء.
3. الحفظ لما فُهم، وقد جعل الله تعالى في العقل البشري قدرة عالية جدا على تخزين المعلومات وحفظها.
4. الاسترجاع، أي: القدرة على استرجاع المعلومات التي تم حفظها.
5. ربط المعلومات بعضها ببعض.

(1) سورة الأنعام، الآية: (103)

6. الاستنتاج.
7. الأداء.

وكل واحدة من هذه العمليات السبعة لها علم قائم بذاته، لكي يبين لنا طريق المعرفة وقواعد الفكر المستقيم، وقد يحدث خلل في إحدى هذه العمليات في الفهم أو التلقي أو الحفظ أو الاسترجاع...إلخ، فيترتب علي ذلك نتائج خاطئة؛ لذا فلا بد من دراسة كل منهم على حدة، ومعرفة كيف تتم، وكيف يتجنب وقوع الخلل فيها.

والخلاصة أنَّ مكونات العقل أربعة أشياء: سلامة الحواس، وسلامة الدماغ، والمعلومات السابقة، والواقع المحيط، وكل منها له تفصيله كما سبق.

والعقل وظيفته الفكر ، والفكر مجاله الواقع بعوالمه المختلفة: عالم الأشياء، وعالم الأشخاص، وعالم الأحداث، وعالم الأفكار، وعالم النظم، وعالم الرموز، وعالم العلاقات ؛ وكل هذه العوالم وغيرها تمثل الواقع المعيشي من حولنا، ولكل عالم من هذه العوالم مكوناته، ولكل منها أسلوب أمثل للتعامل، ومنهج مختلف للفهم.

العقل أول النعم والنظر أول الواجبات

العقل والفهم نعمة ربانية وهبها الله للإنسان، ومن شكر النعمة أن نُعْمِلَها ونتحدث بها؛ لنكون قدوة لغيرنا ، قال تعالى : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾[الضحى : 11]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ»[1].

وقال صلى الله عليه وسلم في شأن قَصْر الصلاة – حتى صارت مقولته قاعدة مستمرة-: "صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ". [2]

واستخدام العقل في التفكر والتدبر في آيات الله وأحكامه فرض واجب على الإنسان شكرا منه لله على هذه النعمة .

قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل : 44]

فقد ربط سبحانه بين الالتزام بالأوامر والنواهي في العقيدة والشريعة والأخلاق وبين التَّفَكُّر الذي هو الأساس في الفهم .

والفِكْرُ: هو "ترتيب أمور معلومة، يتوصل الإنسان بها إلى مجهول"[3].

والأمور المعلومة؛ تكون في صورة جملة مفيدة، يضم المفكر جملة مع جملة، ويربط بينهما،

---

(1) رواه الترمذي(123/5) ط (دار إحياء التراث العربي – بيروت) وأحمد(311/2) ط (مؤسسة قرطبة – القاهرة) والبيهقي (271/3) ط (مكتبة دار الباز – مكة المكرمة).

(2) رواه مسلم.(478/1) ط (دار إحياء التراث العربي – بيروت).

(3) انظر شرح المقاصد في علم الكلام للتفتازاني (31/1)، والكليات للكفوي (904/1) مؤسسة الرسالة.

ويخرج بنتيجة ، وكل جملة مفيدة قد تُخبر عن واقع، وقد تُعبر عن طلب .

ويحفظ الطلاب في الأزهر الشريف نظْما لطيفا يمثل حوارا بين العلم والعقل، كنت أظن أن هذا النظم من الطرائف واللطائف كالمحاورة التي جرت بين الأبيض والأسود ، أو بين الليل والنهار ، أو بين الصيف والشتاء ، حتى أُلِّفَت فيها الكتب . وهذه الأبيات تقول :

عِلْمُ الْعَلِيمِ وَعَقْلُ الْعَاقِلِ اخْتَلَفَا ... مَنْ ذَا الَّذِي مِنْهُمَا قَدْ أَحْرَزَ الشَّرَفَا

فَالْعِلْمُ قَالَ أَنَا قَدْ حُزْتُ غَايَتَهُ ... وَالْعَقْلُ قَالَ أَنَا الرَّحْمَنُ بِي عُرِفَا

فَأَفْصَحَ الْعِلْمُ إِفْصَاحًا وَقَالَ لَهُ ... بِأَيِّنَا اللَّهُ فِي تَنْزِيلِهِ اتَّصَفَا

فَأَيْقَنَ الْعَقْلُ أَنَّ الْعِلْمَ سَيِّدُهُ ... وَقَبَّلَ الْعَقْلُ رَأْسَ الْعِلْمِ وَانْصَرَفَا

إذن فعقل العاقل إن لم يعمله في خدمة العلم وتحصيله واستفادة المنهج والسير على هداه فليس فيه خير وشرف، وهو طريق سهل يمكن لأي شخص أن يسلكه، ولكن ظهرت في مجتمعاتنا الإسلامية في هذا العصر الذي تدهورت فيه العقلية العلمية عقول استعصى عليها العلم وتحصيله فاتبعت المتاهة وحصل لها من الخلط ما جعلها تحكم الهواة، وهم فئة غير مؤهلين ولا متخصصين في أمور العلم الديني .

وهؤلاء الهواة أفسدوا العلم وأضروه من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون ، لأنهم تلقوا المعلومات من الكتب فقط وأهملوا بقية الأركان الخمسة في العملية التعليمية ، وهي :

(1) الطالب.

(2) الأستاذ.

(3) المنهج.

(4) الكتاب.

(5) الجو العلمي.

وبدون استيفاء هذه الأركان الخمسة مع بعض العلوم المساعدة التي يحتاج إليها مع قدرة عقلية على الترتيب المنهجي تصبح المعلومات جزرا منعزلة في ذهن من عجز عن الجمع بين هذه العناصر ولا يمكنه الوصل بينها ومعرفة الكامن وراءها أو إسقاطها على الواقع المعيش والاستفادة منها بتجديد الاجتهاد العلمي، ومن ثم يدور عقله في مجال التوهيمات .

فالعلم في حاجة شديدة إلى جريان الفكر حتى يمده دائما بكل جديد وإذا انقطع عنه ذلك المورد جَمُد العلم وحدثت له المشكلات .

ولقد نشأت الجامعات الأكاديمية في الأساس من أجل أن تمدَّ العلم بتيار الفكر ، ولكن وعلى غير المقصود وقعت الجامعات في القرن الأخير وفي أغلب دول العالم في أزمة فكرية ؛ وتحولت إلى محاضن للعلم دون مدِّه بالأفكار الإبداعية المبتكرة ، واعتبرت ذلك محافظة على التراث العلمي القديم أو الالتزام بالمنهج الموروث الذي صح عند السابقين .

واستنهض بعض الباحثين من خارج المجال الأكاديمي محاولا الخروج من دائرة التوهيمات والعودة إلى الاجتهاد العلمي الإبداعي ولكنهم لم يلتزموا بالمنهج فخرجت محاولاتهم في صورة لم تستقم بعد وليست قادرة على التجديد العلمي وإعادة العقل الإسلامي إلى وضعه الصحيح المنتظر منه .

وتحت دعوى تقديم العقل على العلم ضلَّ كثير من البشر ، فقد أتاني يوما أحد أصحاب هذه الدعوى وقال : "إنني أستعمل عقلي ولا حاجة لي بالعلوم التي تدرسونها ، فمن المعلوم لكل أحد أن الله قد حرم الزنا والفاحشة ، وحرم الخمر والخنزير ، وأمرنا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن نبيع دنيانا إذا خالفت آخرتنا ، ولا بد علينا أن نجاهد في سبيله، وألا

نخاف في الله لومة لائم ؛ ولذلك فسوف آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، وأتسلط على الناس في انحرافهم بالقوة ، فالمؤمن القوى خير وأحب عند الله من المؤمن الضعيف[1].

وذهب هذا المنحرف فكوَّن عصابة ممن ناصره فقدم القوة على العلم وادعى أنه يعقل، وهو لا يعقل بل اتبع هواه وأولويات رغباته ونوازعه ، فأشاعوا الفساد في الأرض وخربوا ولم يعمروا، يتوهمون أن ذلك جهاد في سبيل الله وتحقيق لمراده ورضاه .

وضلال هؤلاء إنما هو باستعمال ما أسموه عقلا وليس بعقل بل هو جنون ، وتركهم للعلم والمنهج، واتباعهم لتلك التوهيمات، ومكمن الخطورة أنهم أعملوا ذلك في مجال الشرع الشريف والنصوص الربانية .

وخرج علينا منحرف آخر يمثل الوجه الآخر لتطرف العقل الإنساني يدعو بصريح العبارة إلى نبذ التراث وهجر الفكر الفقهي وأهله ، ويدعو إلى إعمال العقل بعيدا عن هدي الشرع والنصوص ، وهذا المنحرف يخرج علينا كل يوم برأي جديد متضارب ومشتت للناس يدل على أنه مصاب بمرض "الزهايمر" . الذي كان يسميه العرب قديما (الخَرَف) . بسبب شيخوخته أو مصاب بمرض عضوي كتصلب الشرايين جعله عاجزا عن الفهم لنفسه وممارسة الحياة الطبيعية فضلا عن التفكير لغيره .

وهذا المنحرف يدعو إلى اتباع الشهوات وإشاعتها بين الناس ويدعو إلى طرح التكاليف

---

(1) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز". أخرجه مسلم (ج4/2052رقم2664) ط إحياء التراث العربي، و أخرجه أحمد (ج2/366رقم8777) ط مؤسسة قرطبة، كلاهما عن أبي هريرة.

الشرعية التي تلزم الإنسان بالأخلاق الفاضلة .

وبعض الناس ينبهر ويعجب بهذا (الخرَف) لأول وهلة ، ولكنه ما يلبث أن ينفض عنه ويتبين أنه غثاء وهدم للمجتمعات والأديان .

قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[الرعد : 17].

فالزبد هي التوهيمات أو الفقاقيع الفكرية التي لم تؤسس على منهج علمي ولم تنبع من عقلية سوية فضلا عن أن تكون علمية ، وأما ما ينفع الناس فهو الخير الذي تنتجه العقلية الإسلامية السوية التي تدعو إلى الأخلاق وعبادة الخالق مع عمارة الكون واحترام سننه .

ونحن ندعو الشباب إلى التحلي بالعقلية العلمية وبنائها في ذواتهم وعقولهم ونُحَذِّرُهم من العقلية الخرافية وتداعياتها وأن تسيطر عليهم وعلى حياتهم فتهدمها، ونُنَبِّهُهم إلى أخذ الحيطة والحذر من اتباع مثل هؤلاء المنحرفين سواء من آثر القوة على العقل أو من آثر العقل على العلم والدين .

وتكشف هذه التوهيمات والتخبطات الفكرية العشوائية عن نفسها إذ إنها لا تثبت على حال ولا تعرف المنطقية في آرائها ، وأصحابها ودعاتها ينبتون من جذورهم يوما بعد يوم وينحرفون انحرافات شديدة في مسارهم إلى أن يُلاقوا الله رب العالمين في عداد المغضوب عليهم أو الضالين.

قال تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[الأنعام : 153]

إنه تصوير دقيق للبلاء الذي حلَّ بنا، فاللهم أنزل على قلوبنا الصبر بعدما أنزلت هذا

البلاء .

فلا بد للمسلم من إدراك واقعه وأن يعيش مدركا لزمانه عالما بشأنه كما وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه ابن حبان وغيره حيث وصف المؤمن بأنه مدرك لشانه عالم بزمانه .

وعن أبي ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث طويل أجاب فيه على أسئلة أبي ذر: "وَعَلَى العَاقِلِ أَنْ يَكُونَ بَصِيرًا بِزَمَانِهِ مُقْبِلًا عَلَى شَأْنِهِ حَافِظًا لِلِسَانِهِ" .[1]

والله عز وجل جعل أمة الإسلام أمة دعوة حيث قال : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : 110] ، فلا بد علينا أن نرجع إلى منهج النبي صلى الله عليه وسلم .

ويجب أن نهتدي إلى المنهج العلمي ونحتكم إليه خاصة في فهم النص الإلهي في القرآن والسنة ، ونضع لذلك الضوابط والمعايير الثابتة، وإلا فإن عقولنا ستحبو في حالة من العرج أو الكساح أو الموت .

والتفكير المستقيم يبدأ من البحث في الجملة التي تُخْبِر عن واقع، والأخذ في التأكد من صحتها، و إلا اتجه الفكر إلى الخرافة فلا يكون مستقيما، وكل جملة مفيدة لها مجال، وكل مجال له طريقة في إثباته، ودليل يبرهن على صحته، ومعيار للقبول والرد بشأنه.

فهناك أمور تعود إلى الحسِّ والتجريب ، مثل جملة "النار محرقة"، و"الشمس مشرقة"،

---

(1) أخرجه ابن حبان (ج2/82رقم361) عن أبي ذر، ط مؤسسة الرسالة.

ودليل هذه الأمور يكون بإدراك الحس أو بالخبر المتواتر الموثوق به .

وهناك أمور أخرى تعود إلى العقل؛ مثل: حقائق الرياضيات، وهناك أمور تعود إلى النقل، مثل: أحكام اللغة وأحكام الشريعة .

وللتجربة في كل ذلك دور مهم سواء النظري أو العلمي ؛ لأن التجربة تشمل مراحل هي تتبع الظواهر الإنسانية أو الكونية، وتسجيل الملاحظات عليها وما يطرأ عليها من تغيرات، ثم وضع الفروض واستخلاص النتائج والحلول ، وليست الشريعة بمنأ عن هذا المنهج بل هي في حاجة إليه في شقها المتعلق بحياة الإنسان، ولا يخفى على كل فقيه أو أصولي أن دراسة الواقع وتحقيقه والإحاطة بتفاصيله الدقيقة يعد جزءا مهما في عملية توقيع الشريعة وإعمالها في تسير حياة الناس والمجتمعات نحو الصلاح والخير وتحقيق الإعمار في الكون والحياة وهي الأمور التي تعد المقصد الأول للشريعة وحيثما وجد هذا المقصد فثمت الشريعة .

والجملة المفيدة عند علماء المنطِق بـ (النسبة التامة) وتُعرَّف بأنها "إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه"، فإذا كانت الجملة عادية حسِّيَّة أضافوا عبارة (بناءً على التكرار)، وإذا كانت نقلية قالوا: (بناءًا على وضع الواضع)، وإذا كانت عقلية قالوا:(غير معتمدة على تكرار ولا وضع واضع).

ومن صور الانحراف عن التفكير المستقيم أن نبحث عن دليل لمسألة عقلية في النقل، أو عن مسألة حسية في العقل، أو عن مسألة نقلية في الحسِّ، والذي يضْبِط كل ذلك هو العلم.

والعلم في التعريف العربي لا يقتصر على المعنى المترجم لكلمة (**Science**) الذي قصر العلم على التجريب فقط ، وإنَّما يشمل القدر التعييني من المعرفة ، وبذلك فإن تعريف العلم في العربية يفرق بين القطعي والظني ويعلم حدود كل واحد منهما.

والخلط بين القطعي والظني من مظاهر التفكير المعوج، والخلط بين مجال الحس والعقل

والنقل كذلك من مظاهر التفكير المعوج يؤديان إلى السير بعشوائية من غير اتضاح لكيفية تفعيل الفكر في الواقع المعيش والاستفادة منه في تحقيق المصالح ودفع المضار .

والتفكير المعوج يُودِى بنا إلى عقلية الخرافة وإلى منهج الكذب باعتباره مخالفة للواقع أو مخالفة للواقع والاعتقاد ، والكذب في لغة قريش يطلق على الخطأ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في يوم فتح مكة : "كذب سعد" . عندما قال سعد بن عباده : اليوم يوم الملحمة فقال صلى الله عليه وسلم :" بل اليوم يوم المرحمة"[1] و(كذب) هنا بمعنى أخطأ فيما قال، فعزله النبي صلى الله عليه وسلم من القيادة وعيَّن ابنه قيسا مكانه .

وكان الكذب عند السلف قيمة سلبية ، يُحاسب عليها من يرتكبها على جميع المستويات، ويعد الكذب جريمة إذا ما صدر من مسئول أو متصدر لخدمة الناس .

والتفكير المعوج يجعل الناس تعيش في أوهام، وإذا شاع هذا التفكير اختلت الأمور، وكان ذلك أكبر عائق أمام التنمية البشرية، وأمام الإبداع الإنساني، وأمام التقدم والأخذ بزمام الأمور، وأمام العلم، وأمام تحصيل القوة، وإذا كان ذلك فشلت كل محاولات الإصلاح وشاعت الغوغائية والعشوائية .

وشتان بين حال العقول في أمتنا الإسلامية بين حاضرنا وماضينا ، فحال أسلافنا كان أكثر قربا من العقلية الإسلامية والعقلية العلمية، فاستطعوا بفكرهم المستقيم أن يبنوا حضارة مزدهرة ويحققوا النفع لأنفسهم ولعموم الإنسانية قرونا عديدة وعلى مستوى المكان، أما في الحاضر فقد حدث اعوجاج وتشتيت للعقلية عطلت مسيرة البناء بل أعملت

(1) أخرجه ابن عساكر (450/23).

يد الهدم والعبث بالتراث الحضاري الموروث .

ويظهر الاعوجاج الفكري في حاضرنا في عدم احترام التخصصات العلمية وقول من شاء ما شاء دون قيد ، بينا احترم أجدادنا التخصص وألفت في عصور متقدمة في تاريخ المسلمين مؤلفات ترصد أصناف العلوم ومجالاته وتعرف بموضوعات كل علم مثل كتاب "إحصاء العلوم" للفيلسوف الإسلامي الفارابي 339هـ والذي أشبه الموسوعة في تصنيف العلوم ، وكتاب "الفهرست" للنديم 380هـ والذي قسم صاحبه الكتب فيه على العلوم والفنون ، وعرف بكل علم ونشأته وموضوعاته ومن ألف فيه قبل أن يسرد أسماء المؤلفات ، ومثل كتاب "مفاتيح العلوم" للخوارزمي 387هـ ، ثم الأبيوردي 507هـ في "طبقات العلم في كل فن" ، والزمخشري 538هـ في "الأمالي" ، والآملي 750هـ في كتاب "نفائس الفنون في عرائس العيون" . وهكذا نرى العلماء المسلمين في كل عصر كانوا يحرصون على حماية قضايا التخصص العلمي حتى لا يختلط على الناس أمرهم .

وكان علماء المسلمين قديما يدركون الفرق بين الحقائق والآراء ، وليس لوجهات النظر عندهم اعتبار في أمور قيامها على التجربة والمشاهدة والحس أو في أمور عقائدية غيبية مدارها على الخبر والنقل ، وإنما للاختلاف والنظر مجاله يلتزم بذلك المتخصصون والعامة ، وغاية كل فكر أو تجديد تقاس بما يمكنها أن تحققه من مصالح أو ترده من مفاسد ومضار .

وعلى هذا فإن إصرارنا الآن على اتباع التفكير المعوج الغثائي ليس له أي مبرر أو سند في تراثنا ، والتعالى والتكبر على احترام تخصصات بعضنا بعضا هو موقع بنا في الجهل والتخلف عن ركب الحضارة الحديثة، ولذلك وجب علينا مواجهته بصورة منتظمة علمية في كل روافد الفكر والثقافة العامة ابتداء من مناهج التعليم وانتهاء بالإعلام حتى يعود لنا الأمل في تغيير عقليتنا التي أوردتنا المهالك .

قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد : 11].

ويجب أن نعلم جميعا أن الفقه الإسلامي هو علم من العلوم المستقلة منذ قرابة ألف وأربعمائة عام ، عرَّفه العلماء بأنه :"العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلَّتها التفصيلية" ، وهو علم له مسائله المستقلة وله مناهجه وأدواته ومَسَاقاته الدراسية ، وله مدارسه الفكرية ، وله علومه المساعدة ، وله فوائده ونتائجه ، وأنه لا سبيل يَرِدُه كل من أراد التخصص فيه أو التصدر إليه إلا بتحصيل هذا العلم ومعاناته .

وهذا العلم متاح ومتيسر الوصول إليه لكل من أراد ذكرا أو أنثى عربيا أو عجميا ، وليس حكرا على قوم بعينهم أو فئة دون غيرهم ، ولكن المحذور هو أن يخوض فيه من لم يستجمع أدواته ويحصل علومه ثم يتصدر له ويقول فيه بما يجهل عقباه .

وقد يفعل بعضهم ذلك بدعوة الليبرالية أو الحرية الفكرية ، وليس من الحرية عدم احترام التخصص العلمي وانتهاك حرمة العلوم ، فأي هرج وأي فساد يقع في حياتنا إن سمح بذلك في مجال الكيمياء مثلا أو الطب أو الهندسة ، فلِمَ يسمح بذلك في مجال الفقه الشرعي والعقيدة الدينية؟

إن حدوث مثل ذلك في مجال النظر كالعقائد والشرائع مؤذن بترسيخ العقلية الخرافية التي تَجُرُّ العلم إلى الانطباعات والرغبات والشهوات ووجهات النظر.

والفقه علم من العلوم من تَعَامل معه بهذه الطريقة استجلب للعارف بالحقيقة الضحك الممتزج بالبكاء ، فإن شرَّ البلية ما يُضْحك . قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف : 33] .

وهذه الأخيرة تعد من الكبائر ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : 169] ، واشتد تحذير الله لنا من هذا الطريق المهلك حيث قال : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ۝١٧﴾ [يونس : 17] .

***

حدود العقل في التفكير

قد يرد تساؤل هل هناك حدود للعقل في التفكير؟ وهل هناك إطار لا يجب أن يخرج عنه؟

بدايةً لا يوجد أي عائق يمنع العقل من التفكير أو أي إطار يحده، لا في كتاب الله المسطور، ولا في كتاب الله المنظور، ولا في الجمع بينهما، ولكن ثمة خُطوات منطقية يأخذ بعضها إلى بعض، ويكمل بعضها بعضًا، وهذا الذي نسميه درجات المعرفة، فكل درجة تسلم للدرجة التي بعدها وفوقها في نفس الوقت، فلن نستطيع أن نصل إلى قمة الهرم فجأة، ولن نستطيع أن نقف عند درجة معينة وندعي الكمال أو تمام المعرفة؛ لأن ترقي العقل في المعارف والعلوم لا حدود ولا نهاية له.." فكما أن الصبح لا يزال يتزايد بسبب تزايد قرب الشمس من سمت الرأس، فإذا وصلت إلى سمت الرأس حصل النور التام، فكذلك العبد كلما كان تدبره في مراتب مخلوقات الله تعالى أكثر كان شروق نور المعرفة والتوحيد أجلى.. إلا أنَّ الفرق بين شمس العلم وبين شمس العالم؛ أن شمس العالم الجسماني لها في الارتقاء والتصاعد حد معين لا يمكن أن يزاد عليه في الصعود، وأما شمس المعرفة والعقل والتوحيد، فلا نهاية لتصاعدها، ولا غاية لازديادها)[1] اهـ

ومما يدل دلالة واضحة على أن ترقي العقل في المعارف والعلوم لا حدود ولا نهاية له أن الله عزوجل قد أمرنا في محكم التنزيل بتدبر القرآن الكريم والتفكر فيه، بل التفكر في كل آية منه وصِلَتِها بغيرها من الآيات قال تعالى﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ

1 - تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (13/ 38).

ﵟٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗاﵞ (1)، فالأمر بتدبر القرآن في هذه الآية يفهم منه تدبر آياته ومقارنتها بعضها ببعض؛ للتعرف على حكمتها وتوافقها وتأييد بعضها بعضا؛ لأنَّ تدبر الأمر تأمله والنظر في أدباره وما يؤول إليه في عاقبته ومنتهاه.

يقول الإمام الطبري في "تفسيره": أفلا يتدبر المبيتون غير الذي تقول لهم يا محمد كتاب الله، فيعلموا حجة الله عليهم في طاعتك واتباع أمرك، وأن الذي أتيتهم به من التنزيل من عند ربهم، لاتساق معانيه وائتلاف أحكامه وتأييد بعضه بعضا بالتصديق، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق؛ فإن ذلك لو كان من عند غير الله لاختلفت أحكامه وتناقضت معانيه وأبان بعضه عن فساد بعض)(2) اهـ.

وبتأمل هذا المعنى نقول:

أولا: عدد آيات القرآن الكريم هو 6236 آية.

ثانيًا: أننا لكي نتأكد من عدم تناقضه أو اختلاف بعضه مع بعض، فعلينا أن نتدبر كل آية منه مع جميع ما تبقى من الآيات، وذلك يعني أننا سنصل إلى رقم ضخم جدًا لا حصر له.

فلو افترضنا أن إنسانًا بلغ به العمر مائة سنة، فحاصل ضرب 100 سنة في 365 يوم ينتج 36 ألف يوم، واليوم به 24 ساعة، نفترض أنه ينام منهم 4 ساعات ويتفكر 20 ساعة، وحاصل ضربهم في 36 ألف يساوي 720 ألف ساعة! هذا إذا كان سيتفكر 20 ساعة في يومه. فمن أين يأتي بوقت للتفكر في كل آية مع مقارنتها بجميع الآيات الأخرى؟

---

(1) سورة النساء، الآية: (82).

2 - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (7/ 251)

إذن التفكر لا حدود له ولا انتهاء؛ لأن الإنسان عاجز، وزمنه قليل، ومما يدل أيضا أن العقل لا نهاية لتفكره ولا لاطلاعه، أننا نجد في واقعنا المعاصر وكالات الأنباء الستة الشهيرة تذيع يوميًا مائة وعشرين مليون معلومة، ولكي يستطيع شخص ما قراءة ما كُتب في يوم واحد فقط، فهو في حاجة إلى مائتي عام؛ لكي يقرأه.

وبعدما ثبت أنَّ العقل والتفكر لا حدود له، ننظر في أي شيء يجب أن يتفكر هذا العقل، وإلى أي شيء ينبغي أن يكون سعيه وجهده؟

لم يترك الله عز وجل عباده دون أن يبين لهم ما الذي يعمل فيه العقل، وما الذي لا دخل له فيه ، حتى يصلوا بتلكم العقول إلى ما فيه سعادة الدنيا والآخرة ومن ذلك:

أمر الله عز وجل بإعمال العقل في تدبر القرآن الكريم وآياته، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[1].

وحث ورغب على إعمال العقل في التفكر في الكون وما به من مخلوقات: قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[2].

كما حث على إعمال العقل في تعلم العلوم النافعة فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾[3]

(1) سورة ص: 29.

(2) سورة آل عمران: 191.

(3) سورة فاطر: 28.

وأمر أن يكون سعي الناس في الدنيا لما فيه الصلاح والخير قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(1) .

ومن ذلك نعلم أن المسلم عليه توجيه عقله لإدراك الحقائق الدينية والدنيوية، وأن يكون سعيه للإصلاح والخير، وليس إلى الفساد والإفساد، ولا إلى الضرر والإضرار، فنعم الله تعالى ينبغي ألا تستغل إلا فيما يريده الله تعالى، وقد علِمنا أنَّ المقصد من خلق الإنسان هو العبادة والعمارة والتزكية.

وقد اتضحت آثار هذه الأوامر والإرشادات الإلهية على عقول المسلمين، فعلى سبيل المثال:

وجد المسلمون القرآن الكريم يسوق لنا الدلائل العقلية على وحدانية الله تعالى بموضوعية يندحر بجانبها أدنى شك أو ريب كقوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢)﴾(2)

فتفكر علماء المسلمين في هذه الآية، فاستخرجوا منها دليلًا عقليًا أثبتوا به وحدانية الخالق جل وعلا، فالعامي يفهم أنه يستحيل أن يوجد إلهان؛ لأن الإله لا بد أن يكون ذا قدرة مطلقة ، وأنه لو وجد إلهان فنحن أمام عدة احتمالات عقلية:

1- إما أن يتفقا.

---

(1) سورة آل عمران: 104.

(2) سورة الأنبياء:22.

2- وإما أن يختلفا.

فإن اتفقا مثلًا على إيجاد الكون معًا = لزم اجتماع مؤثرين على أثر واحد وهذا باطل؛ فإن قلنا: إن أحدهما أوجده أولاً، ثم أوجده الآخر بعد ذلك؛ لزم منه تحصيل الحاصل، وهو : غير جائز .

وإن قلنا : إن أحدهما أوجد البعض والثاني أوجد البعض الآخر؛ لزم عجزهما معا وذلك لقصور تعلق قدرة كل واحد منهما عما تعلقت به قدرة الآخر، هذا من ناحية اتفاقهما.

أمَّا إن اختلفا بأن أراد أحدهما إيجاد العالم وأراد الثاني نقيضه، فإن نَفُذ مرادهما معا لزم اجتماع الضدين وهو محال ؛ لأنه يلزم منه أن يكون العالم موجودا ومعدوما في آن واحد ، وإن نفذ مراد أحدهما دون الآخر لزم عجز من لم ينفذ مراده. وقد سمى علماء الكلام هذا الدليل ببرهان التمانع والتوارد.

واستخرجوا من الآية السابقة قواعد عقلية في غاية الأهمية منها :

1- أن الضدان لا يجتمعان.

2 - استحالة اجتماع مؤثرين على آثر واحد .

ونخلص من ذلك إلى أن القرآن ليس فقط أَمَرَ الإنسان بإعمال عقله والتفكر في كون الله وخلقه، ولكنه جعل من ذلك النظر والتفكر في هذا الكون فريضة دينية يؤجر صاحبها عليها، إضافة إلى ذلك فإنه لم يضع أية قيود على فكر الإنسان، بيد أنه يجب أن يكون فكر المسلم موجهًا نحو تحقيق الخير والنفع، وعمارة الأرض، دون الفساد فيها.

وهذا القيد في الجهة لا يعني أن نحد من تفكير العقل ونقيده، بل يبين لنا في أي اتجاه يجب أن نفسح لهذا العقل المجال حتى ينطلق إلى ما شاء ويكون فعله ممدوحًا.

ومثال ذلك: إن من شروط صحة الصلاة التوجه إلى القبلة – الكعبة المشرفة-، قال

تعالي: ﴿وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾(1)

فإذا صلى الإنسان وفعل جميع أركان الصلاة ولم يتوجه إلى القبلة، فصلاته غير صحيحة رغم قيامه بها، فكذلك العقل رغم قدرته على التفكر في كل شيء إلا أن فكره هذا يكون مردودًا وغير مقبول إذا لم يوجهه للخير وللحق، بل ويأثم به ويلام عليه أيضا.

وعلى هذا فإذا خرج علينا شخص، وقال : سأخترع شيئًا ما . وعلم أهل التخصص أن هذا الاختراع سيهلك ملايين الناس . يقول: أنا حر فيما أفعل، أجبناه: إذا أدت حريتك في التفكير إلى إهلاك غيرك، صارت جريمة .

ويرد سؤال آخر هل يمكن لنا عرض كل شيء على العقل حتى ما يتعلق بالسنن الإلهية والأوامر الشرعية؟

وللإجابة على هذا السؤال علينا أن نعلم أن هناك فارقًا بين الشك والتشكيك.

فالشك: منهج معتبر مسموح به، هدفه الوصول لليقين.

يبيح للإنسان التساؤل حول كل شيء ليصل من خلال النظر والاستدلال إلى الطمأنينة .

وقد ذكر في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام قال تعالى ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾(2) " فإنّ إبراهيم لفرط محبته للوصول إلى مرتبة المعاينة في دليل البعث رام الانتقال من العلم النظري البرهاني، إلى العلم الضروري ، فسأل الله أن يريه إحياء الموتى بالمحسوس ... ليثبت ويتحقّق علمه وينتقل من معالجة الفكر

(1) سورة البقرة، الآية : (144)

(2) سورة البقرة، الآية: (260)

والنظر إلى بساطة الضرورة بيقين المشاهدة وانكشاف المعلوم انكشافًا لا يحتاج إلى معاودة الاستدلال ودفع الشُبه عن العقل .

وفي قصة سيدنا موسي قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ (1) إذن فالشك لا علاقة له بالإيمان، فقد أكون مؤمنًا، لكنني أردت أن يزداد إيماني ويستقر، فأخذت في السؤال؛ لكي أتعلم، فيزداد إيماني، بل هناك ما يسمى بالأسئلة التحضيرية: وهي افتراض أسئلة والبحث عن إجاباتها؛ لدفع شبه الملحدين، وهذا مما يؤدي إلى استقرار الحق وزيادة الإيمان؛ فلا مانع منه.

أما التشكيك: فهو قصد الإيقاع في التردد والشك والإيهام، وهو غير مقبولا. وهدفه هدم الحقائق وزعزعتها لا التأكد منها واستقرارها.

ومنهج التشكيك نراه عند أصحاب الفكر المنحرف اللذين يريدون تشكيك العوام في معارفهم المستقرة، لكي يحملوهم حملا على أرائهم المنحرفة واعتقاداتهم الضالة، مما يعد إرهابًا فكريًا لا يمكن أن يصل به إلى معرفة أو علم ولا إلى تفكير مستقيم.

يقول برتراند راسل الفيلسوف وعالم الرياضيات الإنجليزي: "إن عقلًا متشككًا على الدوام هو عقل فارغ على الدوام"

وأيضًا لا بد أن نعرف أن العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة، ولا يصل إنسان لنهايته قال تعالى: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾(2) ومسموح لكل من أراد أن يتعلم أن يسأل في كل

(1) سورة الأعراف، الآية: (143)

(2) سورة يوسف، الآية: (76)

شيء، فالسؤال مفتاح العلم.

وقد علمنا الله عز وجل أن ندعوه بزيادة العلم، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1] وهذا على وجه الاستمرار، بمعنى المداومة في طلب زيادة العلم مع التواضع، وأيضًا أن أكون على يقين أنني مهما حصلت من علم فهناك من هو أعلم مني؛ وهذا يوصل النفس إلى قمة الرقي والأدب ، والازدياد في حب المعرفة وحب صناعتها، ولذلك كانت قصة سيدنا الخضر مع سيدنا موسى عليهما السلام، فكان سيدنا موسى –عليه السلام- كليم الله يوحى إليه، وبالرغم من هذه الدرجة العالية الرفيعة من العلم والمعرفة إلا أن الله سبحانه وتعالى أرسله إلى عبد من عباده؛ ليبين له أن هناك الكثير من العلوم ما زالت تخفى عليه.قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[2]

---

(1) سورة طه، الآية: (114)

(2) سورة الكهف الآية :66، 67.

أنماط التفكير

هناك عمليات عقلية يقوم بها الإنسان ليدرك الأهداف التي يسعى إليها، فتتحقق رغباته، وتختلف تلك العمليات من شخص لآخر حسب نمط التفكير الذي يتميز به، فما هي تلك الأنماط؟

تكلم العلماء المسلمون حول درجات العمق في التفكير، فتكلموا أن هناك ثلاثة مستويات:

1- مستوى الفكرة.

2- مستوى المفاهيم.

3- مستوى شعور الأعماق.

والفكرة اسم مصدر، فهي أثر المصدر الذي هو التفكير، و لما عرف التفكير بأنه (إعمال الإنسان لإمكاناته العقلية في المحصول الثقافي المتوفر لديه بغية إيجاد بدائل أو حل مشكلات أو كشف العلاقات والنسب بين الأشياء) فعلى هذا فالفكرة نتيجة إعمال العقل بطريقة ما، فإذا كانت في بدايتها، فيمكن المناقشة فيها بسهولة، وذلك مثل ما يحدث في برامج الحوار المفتوح بالتلفاز وما يماثلها، فقد يؤدي النقاش إلى تغيير الفكرة؛ لأنها ما زالت فكرة قابلة للتغيير، فإن كان لديك قناعات معينة بمعلومات معينة، وعلمت أن هذه المعلومات غير سليمة، فقناعاتك تتغير بتغير تلك المعلومات إلى الأخرى السليمة التي تلقيتها سواء من الدراسة أو من المناقشة.

أما إذا استمرت الفكرة زمنا طويلا، واتصلت بمجموعة من التصرفات الحياتية فإنها تصير مفهومًا راسخًا في النفس، والمناقشات السطحية لا تجدي في تغييرها، بل تحتاج إلى مناقشات عميقة تستلزم عرضًا للأدلة والبراهين الداحضة حتى يمكن خلخلة هذا المفهوم

من رأس صاحبه وهذا هو مستوى المفاهيم.

وها هنا أمر ينبغي التنبيه إليه : أن الفكرة إذا كانت مبنية على إعمال العقل وفق منهجية منضبطة ، وتجرد الإنسان فيها من الهوى، فإنها تثري المجتمع من حوله، ويمكن مناقشة صاحبها فيها ، فتتلاقح الأفكار ، فيؤخذ الجيد ويطرح الغث ، ويصدق عليها اسم فكرة بناءة مستقيمة .

أما إذا كانت مبنية على التلقين وصَاحَبَهَا هوى وانعدام في المنهج العلمي، وحب ظهور فهي تهلك صاحبها ومن حوله، ويصدق عليها اسم فكرة هدامة منحرفة، ولا يتصور صاحبها أية حوار في أفكاره، بل كل ما لقنه مسلمات وأمور لا تقبل النقاش بوجه من الوجوه.

ومثاله ما نراه في واقعنا المعاصر من أفكار الجماعات الإرهابية، التي كفرت المسلمين وخربت في ديارهم تحت مسمى الدين، والدين منهم براء.

وأما شعور الأعماق، فلا يقدر الإنسان على تغييره حتى وإن اقتنع بعكسه؛ لأنه متغلغل في تكوينه لا يفارقه.

ومن الأمثلة على ذلك: ارتفاع سعر الدولار؛ يتساءل الناس فيما بينهم عن أسباب ارتفاع سعر الدولار، فيتناولون عدة أفكار منها: أنه ارتفع لزيادة الطلب عليه، أو لسياسات الدولة، أو لأنه ارتفع في العالم كله... إلخ.

فطرح هذه الأفكار بهذه الصورة هو المستوى الأول: مستوى الفكرة، أما إذا كان شخص لديه معلومات سابقة، فيترجح لديه أحد هذه الأفكار عن غيرها، فيكون بذلك لديه مفهوم، وليس فكرة، فإذا ما ثبت رحجان هذا المفهوم لديه بالأدلة واستقر على ذلك فترة من الزمن تحول إلى مفهوم راسخ.

ومن أعمق أنواع المفاهيم "الدين" فلا يمكن لشخص إزاحته من عقل الإنسان؛ لأنه راسخ لديه. فلو جاء شخص وأنكر وجود الإسلام ، أو أنكر أن هناك نبيًا اسمه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فلن يستطيع المسلم أن يطاوعه؛ لأنه أمر تواتر وشهد العقل بصحته فلا يحتاج إلى أدلة عليه.

إذن فالمفهوم أرسخ من الفكرة إلا أنه قد يتغير، لكن بصعوبة جدا، والمفاهيم في حياة الناس متفاوتة من حيث الرسوخ وعدمه.

أما شعور الأعماق فهو أشد ثباتا وعمقًا، وأكثر استقرارا من المفاهيم، فهو يشبه شخصًا يرتدي ملابسه كل يوم، فجاء إليه آخر وحاول بكل الطرق ووسائل التدليس إقناعه أن يخرج عاريًا فلم يقبل، ولن يطاوعه في ذلك أبدا؛ لأن ذلك شيء مستقر في أعماقه.

ومن المؤسف أنه هناك دعوات تحاول أن تمس ما هو مستقر في أعماق كل منا، مثل الدعوة إلى أسقاط عمود النسب؛ أي: فقدان الروابط النسبية بين الإنسان وأهله، ويستتبع ذلك إباحة أن يتزوج الإنسان عمته أو أمه أو ابنته؛ لأنهم لا يعترفون بعمود النسب لديهم، فإذا ما سمعنا هذا الكلام أصابنا استياء بالغ مع سخرية من هذه العقول؛ لأنه يمس شعور الأعماق لدينا فلا يمكن لنا قبوله.

ومن هنا ننتقل إلى مستويات التفكير الثلاث وهم: التفكير السطحي، والتفكير العميق، ثم التفكير المستنير.

التفكير السطحي

التفكير السطحي هو: فهم الظواهر فهمًا شكليًا متعجلًا ، والوقوف عند هذه الظواهر، والمرور عليها مرورا عابرًا دون بذل أي جهد في تأملها أو النظر فيها، كمن يرى ورقة الشجر في الصباح عليها الندى، أو كمن يسمع ضجيجًا = فيعلم أن هناك أشخاصا بالخارج، ويتوقف إدراكه عند هذا الحد دون أن يتساءل عن أسباب وجود ذاك الندى، أو ينظر في أسباب هذا الضجيج، أي أنه يتوقف عند القشر دون اللباب، وعند ظاهر الأمر دون حقيقته وباطنه، بل ويتساوى في ذهنه الأمران الظاهر والحقيقة، وتخفى حقائق الأمور عليه، فلا يسعى للوصول إليها، ويظل مكتفيا بالإدراك السطحي فقط.

وقد أشار القرآن الكريم إلى أصحاب هذا النوع من التفكير في معرض الذم قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾(1)

"فعِلْمُهُمْ مُنْحَصِرٌ فِي الدُّنْيَا وَأَيْضًا لَا يَعْلَمُونَ الدُّنْيَا كَمَا هِيَ، وَإِنَّمَا يَعْلَمُونَ ظَاهِرَهَا وَهِيَ مَلَاذُهَا وَمَلَاعِبُهَا، وَلَا يَعْلَمُونَ بَاطِنَهَا وَهِيَ مَضَارُّهَا وَمَتَاعِبُهَا وَيَعْلَمُونَ وُجُودَهَا الظَّاهِرَ، وَلَا يَعْلَمُونَ فَنَاءَهَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ، وَالْمَعْنَى هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ غَافِلُونَ، وَذُكِرَتْ هُمُ الثَّانِيَةُ؛ لِتُفِيدَ أَنَّ الْغَفْلَةَ مِنْهُمْ، وَإِلَّا فَأَسْبَابُ التَّذَكُّرِ حَاصِلَةٌ، وَهَذَا كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ لِغَيْرِهِ

(1) سورة الكهف الآية :66، 67.

غَفَلْتُ عَنْ أَمْرِي، فَإِذَا قَالَ هُوَ شَغَلَنِي فُلَانٌ فَيَقُولُ مَا شَغَلَكَ وَلَكِنْ أنت اشتغلت.[1] اه.

فهذا النوع من التفكير لا يعد تفكيرًا أصلا؛ لأنه لا نتاج له، ولا فائدة منه، فهو لا يزيد عن معرفة الأحداث والظواهر دون التأثر بها أو التأثير فيها بشيء.

1 - مفاتيح الغيب للإمام الرازي 25/81، و قارن بتفسير الزمخشري (3/ 468).

التفكير العميق

أما التفكير العميق فهو: رؤية ظواهر الأمور دون الوقوف عندها، بل تأمُّل ما ورائها من أسباب وعلل، وما يلحقها من نتائج، فهو يبحث الأمر من بدايته إلى نهايته، ومعرفة كيف حدث وكيف يمكن أن يستفاد منه، كمن يرى قطرة الندى على ورقة الشجر فلا يكتفي بذلك فيخضعها للبحث والتأمل فيعلم أن هذه النباتات تتغذي من خلال عملية البناء الضوئي، وبواسطة أشعة الشمس، وأنها في هذه العملية تأخذ ثاني أكسيد الكربون نهارًا وتأخذ الأكسجين ليلا، مما يساعد على تنقية الهواء من التلوث، ثم يدرس الخلية والسيليلوز والنواة...إلخ، فيتحول إدراكه السطحي بها إلى إدراك عميق ؛ لأنه لم يقف عند ظاهر الفكرة فقط بل تأملها وتعمق فيها.

وقد أشار مجموعة من الباحثين الأمريكين إلى أهمية التفكير العميق في استقرار الحقائق في كتاب لهم بعنوان" الله يتجلى في عصر العلم" في حديثهم عن تطور العلم وكيف يمكن أن يتأثر الإنسان إذا ما وصل العلم إلى خلق الحياة فيقولون: (بعض العلماء يتشككون في إمكان الوصول إلى خلق الحياة، والبعض الآخر يعدونه من الأمور المستحيلة، ولكن حتى اذا نجحت هذه الجهود، فهل يزعزع ذلك من إيماننا بالله؟ إنه لا يزعزع إلا إيمان أولئك الذين لديهم إيمان سطحي. أمَّا من يقوم إيمانهم على أساس التفكير العميق، فإن ذلك لا يعد أكثر من خطوة جديدة في إدراك ما أبدعه الخالق الأعظم الذي خلق وحده تلك الروائع التي يعمل الناس جاهدين متكاتفين في الكشف عنها.

فإذا كنَّا نريد أن ندعم إيماننا بالله، فعلينا بمزيد من التعمق في كشف الحقيقة.[1] اهـ.

فبالتفكير العميق يتميز الإنسان عن سائر المخلوقات؛ لأنه يبحث ويتأمل، فيبدع ويكتشف ويخترع فيصنع نهضة وعمرانًا فتبني الأمم وتزدهر الحضارات.

1 - الله يتجلى في عصر العلم (ص: 113)/ ترجمة: د. محمد جمال الفندي.

التفكير المستنير

أما التفكير المستنير وهو الذي يأتي بعد هذه المرحلة، أي بعد التفكير العميق، فيربط ما وصل إليه العقل من عمق بالله تعالى فينطق قلبه وعقله معًا بـ "سبحان الله".

أي أنه التفكير الذي يبصر فيه العقل والقلب معًا، فيتضح لهما ما وراء الوراء، وما بعد العمق والأعماق؛ فتتجلي الحقائق وتستنير المعارف بنور الله تعالى، فيرى الله في كل شيء حوله، فهو ينظر ويتأمل ويحلل ويجرد ويفكر، فيصل إلى الله تعالى، فيصبح عقله مستنيرًا.

وكأن التفكير السطحي هو رؤية الواقع المعيشي الذي يشترك في إدراكه الإنسان المعاصر والإنسان منذ بدء الخليقة، فقد تساوى إدراكهم في معرفة أنَّ الماء ماء مثلًا، أو أنَّ النبات نبات وهكذا. وهذا ما يسمونه بالواقع؛ أي: الواقع في نفس ذات الحياة، وهو ما يطلق عليه "اسم الظاهر".

ولهذا الواقع ما يسمى بـ"نفس الأمر" كما أن للظاهر "حقيقة"، كما مثلنا له آنفًا بالخلية، وتكوين الماء والتمثيل الضوئي، فكل هذه الأمثلة لها ظاهر ، ولها حقيقة تحتاج إلى بحث وتأمل وهي ما يسمى بنفس الأمر ، فمن الظاهر أنَّ الشمس تجري من الشرق إلى الغرب، ونفس الأمر أن الأرض هي التي تدور، الظاهر أنَّ المياه سائل لطيف، لا لون له ولا جرم، ونفس الأمر أنها تتكون من أكسجين وهيدروجين أي أنها نار الله الموقدة.

ومن الجدير بالذكر أن الشريعة الإسلامية علّقت حاجاتها بالواقع لا بنفس الأمر؛ لأن الواقع هو الذي يشترك فيه البشر جميعًا دون واسطة جهاز أو تسليح، فعندما علق الشرع الصوم برؤية هلال رمضان، أراد بذلك رؤيته بالعين المجردة لا بالعين المسلحة، فإذا ما رأيناه بأعيننا؛ لزمنا الصوم، وإذا لم نره بأعيينا نكمل شعبان ثلاثين يومًا، دون الحاجة إلى استخدام المجهر وما أشبه، مما يجعلنا نرى ما في نفس الأمر الذي لم نره بالعين المجردة.

والشريعة لا تنكر نفس الأمر بل تقره؛ لأن الله هو الذي خلقه على هذه الكيفية، فهو الذي خلق الماء على هذه الصفة وكذلك الشمس والنبات، ولكنها جعلت التكليف مبني على ظاهر الأمر، ومن ذلك أيضًا مواقيت الصلاة، فهي مرتبطة بحركة الشمس في السماء وفقا لرؤية العين المجردة.

فنفس الأمر وحقيقته أمر أقرته الشريعة ، لكنها لم تعلق عليه الأحكام؛ لأن تعليق الأحكام بنفس الأمر يكلف الإنسان ما لا يطيق.

فلا بد إذن أن نفرق بين الواقع ونفس الأمر؛ لأن بهما نفرق التفكير السطحي والتفكير العميق، ولأن إدراك الظاهر يختلف عن إدراك الواقع، فمثلا رؤية قبة جامعة القاهرة من مسافة قريبة لا يختلف تماما عن واقعها، بينما كلما بعدت المسافة اختلفت الرؤية عن واقعها حتى أني قد أرى كل هذه القبة الضخمة بين أصبعين، ويصعب وقتها معرفة ماهية مكوناتها؟ لكن عندما أقترب منها أكثر يبدو لي حجمها الحقيقي وتتضح لي ماهية مكوناتها.

وأمَّا الظاهر = فله تجليات مختلفة عن الواقع، ومن أجل هذه التجليات أقيمت دراسات عن نفسيات الشعوب، فمثلا: بلاد جنوب شرق آسيا، لأنها بلاد خضراء ومغلقة، فنفسية شعوبها تقبل التغير، وبلاد الإنجليز المحصورة بين البحار تكون لدى شعوبها نفسية الصياد، وبلاد اليونان ضيقة فيلاحظ على شعوبها البخل...إلخ، إذن فلظاهر تجليات تؤثر في من يراه.

ومن هنا نعود لما بدأنا فنجد أنَّ التفكير السطحي هو: المتعلق بظاهر الأمر، وأنَّ التفكير العميق هو المتعلق بنفس الأمر، وأمَّا التفكير المستنير = فهو الذي يتعلق بالعقل والقلب معا.

فنعلم أن العقل حدوده تقف عند التفكير السطحي والتفكير العميق، وأن القلب متعلق بالتفكير المستنير.

ولذلك نقول: إنَّ هناك درجة ثالثة يجب ألا نهملها من أجل سعادة الدارين، وهي التي بها

يطلب النور والهداية، ولا تكون إلا من عند الله سبحانه وتعالى، وهي التفكير المستنير الذي غُبِّش على البعض فأهملوه.

ولكن كيف نصل إلى التفكير المستنير؟ وكيف يساند القلب العقل في ذلك؟

عندما يتحير العقل ويعجز عن تفسير ظاهرة ما، ينقل للقلب كافة المعلومات، فيربط القلب بين تلك المعلومات ببصيرته، ويتدبر ويتأمل، فيجيب العقل ويسكن من حيرته وينير له الطريق بإرجاع الأمر كله إلى الله.

ومن الأمثله التي توضح ذلك: استطاع العالم الكبير "الحسن بن الهيثم" أن يكتشف الكاميرا، عن طريق التفكير العميق في دراسة العين البشرية ودراسة الضوء، ومن خلاله توصل إلى أن الصورة تصل إلى القرنية مقلوبة، وأن العقل هو الذي يتولى مهمة تعديلها إلى وضعها الطبيعي.

وهنا تساءل العقل: لماذا لا يوجد مرض أو خلل ما يمنع العقل من تصحيح وضع الصورة؟ ويظل الإنسان يراها كما نقلت له في القرنية مقلوبة! فعلى الرغم من كثرة الأمراض التي تصاب بها العين حتى أنها قد تفقد الرؤية مطلقا، أو تصاب بمرض عمى الألوان، لكن لا يمكن أن تصاب بمرض قلب الصورة وتظل به رؤية الأشياء مقلوبة وتنقطع الصلة بين تعديل العقل لها والواقع؟

فوقف العقل حائرا، ولم يصل إلى جواب لتساؤله، وهذا الذي يسمى حائط القدر، فعندما يصطدم العقل بحائط القدر لا يستطيع أن يجيب؛ لأنه لا دور للعقل هنا، ومثل ذلك آلاف الأسئلة التي عندما يتعمق الإنسان في العلم تبدو له، بينما يجد أنها لم تحل بعد ولا إجابة لها، وهنا يدخل القلب؛ ليسد الفجوة ويبني الجسر ويطمئن العقل، فيردد مستشعرًا عظمة خالقه وقدرته "سبحان الله". فتسكن التساؤلات ويطمئن الإنسان بالإيمان.

أما إذا خدع الإنسان نفسه وقال لعل الإجابة تأتي يومًا من الأيام = فهو حينئذ لم يجب، وهذا مسلك غير علمي؛ لأن به يظل العقل حائرًا. أمَّا قوله سبحان الله فهي الإقرار بالحقيقة العليا.

وبالنظر إلى ما في الكون من ترتيب وإبداع نجد كثيرا من التساؤلات التي تخطر في عقلنا ولا نجد لها جوابًا مثل: من الذي جعل القمر في هذا المكان، ولو ابتعد يكون المد والجذر ولو اقترب تغرق الدنيا، وكذلك الشمس ودقة المسافة بيننا وبينها وكيف لو اقتربت قليلا احترقنا، ولو ابتعدت تجمدنا وهكذا، فجاء أحد المفكرين الفرنسين وألف كتابا اسمه (العلم يدعو إلى الإيمان)[1]، قال فيه: إن قسمة رقم واحد على ما لا نهاية التي يقول عنها الرياضيون إنها تساوي صفر، يؤدي بنا إلى احتمال أن هذا الكون لا إله له هو "صفر"، إذن وقف العقل بعد النظر والتأمل حائرا فتحرك القلب وكان التفكير المستنير.

وإذا ربط العقل ما وصل إليه من تفكير وتأمل بالله تعالى كان التفكير المستنير.

وهو الذي نراه في قوله تعالى: {وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران: 191].

فبالتفكير المستنير يزداد الإيمان، كما أن بالتفكير العميق يزداد العمران.

---

(1) كتاب (العلم يدعو إلى الإيمان): كتاب للمؤلف الفرنسي كريسى موريسون، ترجمه محمود صالح الفلكي، ويهدف الكتاب إلى الرد على أحد الملاحدة حين ألف كتاب بعنوان (الإنسان يقوم وحده)، وقام المؤلف بتأليف كتابه (الإنسان لا يقوم وحده) الذي ترجم إلى العربية بعنوان (العلم يدعو للإيمان)، وقد استعان المؤلف بأمثلة من علم الفلك والجيولوجيا وعلم الحشرات وعلم الأحياء وعلم النبات وغيرها ليستدل بها على وجود الله.

التفكير البديهي

وبعد أن تكلمنا عن قضية الفكرة، فالمفهوم، فشعور الأعماق، وتكلمنا عن التفكير السطحي، والتفكير العميق، والتفكير المستنير، وكيف أن القلب يعلو العقل، والعقل يعلو السلوك، وكل ذلك من أجل أن نتكلم عن كيفية تغيير السلوك؟

فعلمنا أنه لكي نغير السلوك لا بد أن نعلم أولاً، على أي شيء بني هذا السلوك، أهو مبني على فكرة، أم على مفهوم، أم على شعور أعماق؟ والتعامل مع هذه المراحل إما أن يكون بالتفكير السطحي الذي يعرف الظاهر دون البحث عن نفس الأمر، وإمَّا أن يتم عن طريق التفكير العميق، وإمَّا أن يتم عن طريق التفكير المستنير، وكلٌّ له درجاته وأوضاعه التي تؤدي في النهاية إلى تصحيح الفكرة، أو المفهوم، أو تصحيح شعور الأعماق الذي سيؤدي إلى تصحيح السلوك.

إذن فنحن نتعامل مع شبكة متكاملة: من القلب والعقل والسلوك من جهة، والتفكير السطحي والعميق والمستنير من جهة، والفكرة والمفهوم وشعور الأعماق من جهة ثالثة، وجميعهم من أجل العمل والسلوك الذي يتجلى أثره في نهاية الأمر في عبادة الله تعالى، وعمارة الأرض، وتزكية النفس.

السلوك هو: فعل البشر، وقد يكون هذا الفعل بالأبدان، أو بالجنان، أو بالأذهان.

فأما الذي بالأذهان فهو: مجموعة من الأفكار والعقائد، وأما الذي بالجنان فهو: مجموعة من العلوم المستقرة، وأما الذي بالأبدان فهو: العمل بالأركان، مثل: الصلاة والحج...إلخ، وفي النهاية سوف نرى أنفسنا أمام قضية التكليف، حيث كلفنا الله تعالى بـ"افعل ولا تفعل"، فمثل هذه الخريطة كان لا بد من رسمها أَوَّلًا، حتى إذا جاءت أنواع ودرجات التفكير الأخرى، استطعنا أن نسكِنها في هذه الخريطة ونعرف مبتغاها.

وهناك أنواع أخرى من التفكير. من جهات مختلفة. كالتفكير البدهي والتفكير العلمي، وهي سارية في أنواع التفكير الأساسية السابق بيانها (وهي التفكير السطحي والعميق والمستنير).

التفكير البديهي هو: التفكير الذي يرجع بنا إلى البديهيات، فما هي تلك البديهيات؟

هي المعلومات الأولية التي لا يختلف عليها اثنان، ولا يتناطح فيها ، فلا تحتاج في إثباتها إلى نقاش أو أدلة.

ومن أمثلة البديهيات: القول بأن (1+1=2)، و(السماء فوقنا والأرض تحتنا)، و(الكل أكبر من الجزء)، فلا يمكن لأحد أن يناقش في هذه الأمور أو يعترض عليها؛ لأن هذا بديهي.

ومن هذه البديهيات أن مجموع زوايا المثلث 180درجة، ويقولون أحيانا إنها تساوي قائمتين، لكن هذا بشرط أن تكون على مستقيمات وليس منحنيات، أي أن كل مثلث مجموع زواياه 180 درجة بشرط أن يكون على سطح مستقيم، فإن كانت على سطح كري لن تساوي180 درجة بل 270 وهذا أيضا من البديهيات.

وقد حرص الفقهاء المسلمون دائما أن يصلوا بالدليل والبرهان إلى البديهيات؛ لكي يقتنع الخصم من غير نزاع، وليس للانتصار عليه، فقد كان همهم هداية الآخرين والإخلاص في التبليغ تصديقًا لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1]

ولكن هل يعد التفكير البديهي تفكيرًا سطحيًا أم عميقًا؟

التفكير البديهي يسري في جميع أنواع التفكير سريان الماء في الورد، فيعد تفكيرا مستنيرا

(1) من الآية 64 من سورة النمل.

إذا كان متعلقا بأمور الشريعة، وبتوحيد الله ومعرفته، أما إذا كان بسيطا يفهمه أطفال المرحلة الابتدائية فهو تفكير سطحي. فإذن التفكير البديهي هو: الذي يصل بنا إلى البديهيات سواء كان سطحيا أم عميقا أم مستنيرا؛ فهو ليس نوعا رابعا بل يسري فيهم جميعا.

التفكير العلمي

ورد إلينا تعبير "التفكير العلمي" من الإنجليز، وأصلها بالإنجليزية: كلمة "science" وقد أطلقت على كل ما خضع للتجربة، وعرفه روجر بيكون [1]: التجربة والملاحظة والاستنتاج، فما خرج عن نطاق التجربة لا يعد تفكيرًا علميا.

فمنذ بدأت حركة ترجمة العلوم في القرن التاسع عشر، وعودة البعثات العلمية، نشأ ما يسمى بالجسر بين الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية، وحدث ما يسمى بالاختلال والاحتلال للمفاهيم، ومن هذه المفاهيم التي تأثرت مفهوم "العلم" فقد كان العلم يعرف بأنه الإدراك الجازم المطابق للواقع الناشئ عن دليل، إلى أن ترجم العرب كلمة "science" بالعلم فاقتصرت على ما يختص بالجانب التجريبي فقط، وبهذا المفهوم خرج الكثير من علوم الدين والطبيعة والفلسفة التي تخرج عن نطاق التجربة، وبالطبع هذا مما يجعل مسألة الألوهية غير علمية؛ لأن الله عز وجل ليس تحت التجريب.

لكننا تعلمنا في الأزهر الشريف أنَّ تعريف العلم هو: القدر اليقيني من المعرفة المطابق للواقع، الناشيء عن دليل، ولا يختص بالجانب التجريبي فقط؛ وأنَّ لكل مجال من العلوم

(1) روجر بيكون Roger Bacon فيلسوف إنكليزي، من أبرز مفكري العصور الوسطى، ورائد العلم التجريبي الحديث (1220 - 1292) عُرف باسم "المدرس العجيب Doctor Mirabilis"، شغف بالعلوم الطبيعية وكان يقوم بإجراء تجارب ومشاهدات للظواهر الطبيعية، مع أنه عاش فى فتره قاحلة حضاريًا كان سائدًا فيها الفكر الدينى المسيحى والتفسيرات الخرافية، لكنه اهتم بالرياضيات واعتبر أنَّ التجربة وحدها هى الوسيلة لليقين فى العلم وتسبب اهتمامه الكبير بالكيمياء في اتهام القساوسة المسيحيين وغيرهم له بأنه سحار. من أفكاره الفلسفيه أن الحكمة والإيمان لا ينفصلان.

قواعده ومناهجه الخاصة به، وقد لا يكون الجانب التجريبي جزءا منها، ومعرفة القدر اليقيني بكل مجال يعد علمًا به، لكن هذا كان محل اعتراض من البعض، ولذلك أثيرت قضية هل الدين علم أم لا؟

ومن هنا كان لابد من التفرقة بين كلمة "science" بما يقصده الغربيون، وهو كل ما يخضع للمنهج التجريبي، وبين العلم بما يقصده المسلمون في حضارتهم.

وعند تطبيق مستويات التفكير الثلاثة على العلوم، فيمثل التكفير السطحي علم كعلم الفيزياء، ويمثل التفكير العميق علم الكيمياء؛ لضرورة تدخل الأجهزة فيه كالمجهر وغيره، أما التفكير المستنير ونصل إليه بارتبط القلب وشهوده، ويبدو ذلك جليًا في علم الطب، فهو من الأدلة الدامغة على وجود الله تعالى، وقد ألف أحد الأطباء كتابا باسم "الطب محراب الإيمان"[1] لتوصله عن طريق الطب إلى الإيمان بالله تعالى.

فالعلم "science" بمعناه الغربي أيضًا يدعو إلى الإيمان، إذا ما تدخل القلب فيه، كعلم الرياضيات ونظرية الاحتمالات، والكثير من القضايا العلمية تؤكد أنه لا بد لهذا الكون من إله متصف بالكمال والأسماء الحسنى والصفات العلى، سبحانه تعالى عن كل نقص، فإذا وصل الباحث إلى هذا بعلمه وشهده قلبه فقد وصل إلى التفكير المستنير.

لكن لا يعني ذلك أن التفكير العلمي "science" يؤدي بالضرورة إلى التفكير المستنير، ولكنه حتما يهيئ له، ولا يلزم عنه، ولذلك هناك كثير من العلماء حجة في الطب أو في الكيمياء أو في الميكانيكا، وليس لديهم تفكير مستنير؛ لأنهم لم يحسنوا الرابطة التي بين القلب

(1) تأليف الطبيب خالص جلبي كنجو، وهو رسالة أعدت لنيل الدكتوراة.

والعقل، فتوقفت معلوماتهم عند حدود العقل، وتوقف تفكيرهم إما في حدود التفكير السطحي أو التفكير العميق.

التفكير العاطفي

التفكير العاطفي تعبير حادث، وجاء ابتداءً مما يسمى بقياس الشخصية، فالشخصية: هي مُكوَّن مِنَ العقلية والنفسية.

أما العقلية فهي القدرة على الإدراك والتفكير، والربط والتوليد؛ أي: المراحل السبعة التي يقوم بها العقل، وهي: التلقي، والتصور، والفهم، والحفظ، والاسترجاع، والربط، والأداء. والعقلية كذلك مبنية على قوة ربط المعلومات مما يسمى بالذكاء. وللذهن قضيتان: الفهم، والحفظ، مما عرف في القديم بمصطلحي الرطوبة واليبوسة، فأرادوا باليبوسة: قوة الحفظ، وبالرطوبة: قوة الفهم، وهذان لا يجتمعان بكمالهما في شخص، فإما أن يكون شديد الفهم أو شديد الحفظ، فمن كانت نسبة الحفظ عنده70٪ كان الفهم لديه 30٪ وهكذا.

أما النفسية فتعود سلامتها إلى التربية الصحيحة منذ الصغر مع تحقق الإشباع العاطفي بما يعرف بـ"الحنان". وقد يتميز الإنسان في جانب من هذه الجوانب ولا يتميز في آخر.

والسؤال الآن: كيف ينتقل التفكير العاطفي للإنسان تجاه أمر ما من السطحية إلى العمق وكيف يصبح مستنيرا؟

الضابط في هذا قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (1) والحكمةُ تقتضي وضع الشيء المناسب في المكان المناسب، فالحكمة هنا هي التوازن الذي يحتاجه التفكير العاطفي حتى يتحول إلى تفكير مستنير، بحيث يكون لدى الإنسان ضابط في عواطفه فلا توجد عنده دوافع للانتقام، أو الغيرة، أو الهروب والانزواء،

(1) سورة البقرة، الآية: (269).

ولا يكون لديه دافع للإفساد بأي صورة كانت.

فالتفكير العاطفي دائما ما يحتاج إلى الحكمة، فإذا كانت عاطفة الأم تجاه ابنها ستؤول إلى فساده أو رسوبه أو مرضه، فهذه عاطفة ورحمة كاذبة تتعلق بالظاهر فقط كقوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ (1)

والتفكير العميق هو الذي يجعل هذه العاطفة مراعية للمآلات، فرحمة الأم شيء مطلوب وضروري كي تُشْعِرَ ابنها بالأمان والحنان، ولكن مع مراعاة أن تستقيم الأمور، حتى يكون عطفها عليه لنفعه وليس ضره.

أما إذا وصلنا بالتفكير بعد ذلك إلى تسليم الأمر لصاحبه والتفويض إليه أصبح وقتها تفكيرا مستنيرا، وصاحب الأمر كله هو الله سبحانه وتعالى.

جاء في أحد روايات الكاتب المسرحي شكسبير أن أُمًّا أتت تشكو لحكيم من ابنها؛ فنصحها الحكيم أن تسلمه لصاحبه، فلما سألته من صاحبه!!؟ قال: الإله المعبود، وهذا المعنى هو الذي نريد أن يتحقق به الجميع وهو "اترك الأمر لصاحب الأمر".

إذن العاطفة إذا دفعت بالإنسان إلى ربه يكون حينها عبدًا ربانيًا، ويصبح التفكير العاطفي تفكيرًا مستنيرًا.

---

(1) سورة الروم، الآية: (7).

التفكير الإبداعي

يرى البعض أن الإبداع لا بد أن يكون حرًا منطلقًا، لا يحكمه أي إطار ديني أو غير ذلك، فصاحب التفكير الإبداعي له أن يحلق في أي السموات شاء، ويخوض في أي الموضوعات أراد، وبأي طريقة يراها، والواقع أنه ليست هذه حقيقة الإبداع.

لقد تحدث الإمام الغزالي عن الإبداع في كتاب له اسمه "حقيقة القولين" قال فيه: "وضع الصور للمسائل ليس بأمر هين في نفسه، بل الذكي ربما يقدر على الفتوى في كل مسألة إذا ذكرت صورتها، ولو كلف وضع الصور وتصوير كل ما يمكن من التفريعات والحوادث في كل واقعة عجز عنه، ولم تخطر بقلبه تلك الصور أصلا وإنما ذلك شأن المجتهدين"

وهذا يعني أنه على قدر التصور المبدع تكون درجة المجتهد، فالاجتهاد لدينا شيء عظيم، وقد كان الأئمة الكبار مجتهدين مبدعين، لا يكتفون في فتواهم بذكر الأحكام على عمومها، بل يبحثون في مآلاتها، وما يترتب عليها، وهذا ما يشبه التفكير العميق، أما أخذ الشيء من ظاهره فليس إبداعا.

ويعرف الإبداع بأنه: الإتيان بشيء لا على مثال سابق، فالمبدع من يأتي بشيء لم يستطع غيره أن يأتي به. ومن أمثلة هؤلاء: "ابن مُقْلَة" فقد أبدع في شيء لم يسبقه إليه أحد، وهو الخط العربي، وكان إبداعه ليس فقط على مستوى التفكير العميق، بل على مستوى التفكير المستنير أيضا، فقد كان وزيرًا، أقبل على قراءة الكتاب الحكيم وانفعل به وتفاعل معه، إلا أنه كان أيضا فنانًا واسع الخيال وعالما بالرياضيات، توصل إلى استعمال رائع لما اصطلح عليه في العقل الغربي بـ"النسبة الطبيعية" وهي (7/22) بينما سماها هو" النسبة الإلهية".

رأى ابن مقلة أن القرآن نزل على نسبة إلهية فاضلة في نظمه وقراءته ومعانيه، فأحس أنه لا بد أن يكتب أيضا بخط يعود إلى نسبة إلهية فاضلة حتى يوافق الشكل فيه المضمون،

فابتكر أسلوبا للكتابة من خلال استثمار هذه النسبة الإلهية، ومنها ابتكر قواعد رياضية دقيقة لكتابة الخط القرآني.

ما فعله ابن مقلة هو حقا إبداعٌ مستنيرٌ ؛ لأنه إنما فعله خدمة للحضارة الإنسانية، أما من يتشدقون بإهانة المقدسات، ويسمون هذا إبداعا؛ فذلك ليس إلا إهانة للعقل البشري وللبشرية ولا صلة له بالإبداع أبدا.

وقد ألفت الدكتورة زينب عبد العزيز أستاذ الحضارة والتاريخ بجامعة الأزهر الشريف كتابا اسمه "لعبة الفن الحديث"(1) تحدثت فيه عمن يأتون بمستوى جديد من الإسفاف، ويسمونه إبداعًا، وبينت أنَّ السر في ذلك هو اللعبة الاقتصادية.

(1) الدكتورة زينب عبد العزيز: أ.د. زينب عبد العزيز أستاذ الحضارة وتاريخ الفن بكلية الدراسات الإسلامية جامعة الازهر ، بينت في كتابها : أن هدفها الحفاظ على الهوية القومية، في مجال الفنون والآداب، ضد محاولات طمسها وتزييفها وخلخلتها، لحساب قيم فنية غربية، مخالفة ومغايرة للقيم العربية، ولا يدعو الكتاب الى الانغلاق على الذات والانعزال عن العالم، ولكنه يرفض آليات ودعاوى الانبهار بالآخر، وإحلاله في مقابل احتقار الذات وتجبيرها. فالتبادل الحضاري لا يعني بحال من الأحوال نفي الاستقلال الفكري، وإذا كان من الحكمة فتح النوافذ، فمن الغفلة تركها للرياح التي تقتلع البيت من جذوره، وفي زمن العولمة لا بد من «التحرز» فالفنون والآداب التي يبثها الغرب ويوطد أقدام مروجيها في العالم الثالث ليست محايدة في معظمها، وإنما هادفة بشكل من الأشكال إلى استكمال حلقات التبعية بعد خلخلة التراث الروحي وإحلال ثقافات بديلة، تخدم مصالح الغرب، وخصوصا المصالح الصهيونية الأميركية.

فعندما نجد شخصا مثل " فان جوخ[1] " مات جوعا؛ لكن لوحته زهرة الخشخاش تباع بالملايين، والشخص الذي صنع لوحة عبارة عن تلاصق بين مجموعة من المسامير وبرادة من الحديد فسمي ذلك إبداعًا، وبيعت لوحته بملايين كذلك، نفهم من ذلك أنها لعبة اقتصادية أخرى تختلف عن التعامل بالأوراق النقدية حيث أصبحت تلك الأوراق، بسبب ما يسمى بالتضخم النقدي تقل قيمتها النقدية بمرور السنوات، فالمليون اليوم سيساوي في قوته المائة ألف بعد عشر سنين، وسيساوي قوة عشرة آلاف بعد عشرين سنة، ولذلك أبدعوا قصة حفظ الأموال في صورة تحف ولوحات ونجف وسجاجيد؛ لكي يحافظوا علي الثروة، لكنه في حقيقته ليس إبداعا، بل رغبة اقتصادية عارمة لدى البعض لحفظ الأموال، فهم يؤيدون هذا التوجه لكي يكون لهذه اللوحة - المكونة من برادة الحديد والمسامير- قيمة تجعلها تباع في مزادات لندن بعشرة آلاف إسترليني، ثم تزداد وتتضاعف، فأين هذا الذي يسمونه إبداعا من ابن مُقلة؟! وأين هذا من الفنان الذي أبدع التشعيبات النباتية ولا نعرف من هو؟! ولا بمن أبدع الرسوم الهندسية المسدسة؟! أين هذا ممن بنى المحاريب؟! أين هذا من التفكير الإبداعي الذي جعل المسلم يصنع الكليم والسجاد والمنبر والمحراب، ويبدع في العمارة الإسلامية...إلخ.

---

(1) فان جوخ: (1853-1890م): كان رسامًا هولنديًا ، مصنف كأحد فناني الانطباعية. تتضمن رسومه بعضًا من أكثر القطع شهرة وشعبية وأغلاها سعرًا في العالم. عانى من نوبات متكررة من المرض العقلي — توجد حولها العديد من النظريات المختلفة — وأثناء إحدى هذه الحوادث الشهيرة، قطع جزءًا من أذنه اليمنى. في آخر خمس سنوات من عمره رسم ما يفوق 8000 لوحة زيتية.

فهذا هو الإبداع الحقيقي، وليس السفه الذي نراه اليوم الذي هو في حقيقته نتاج عقلية هشة.

والعقلية الهشة: عقلية خرافية، وهي: التي لا تعتمد على الحقائق بقدر ما تعتمد على السمع، ولخصوا وصفها فقالوا: يصدق ما يسمع، ويكذب ما يرى.

ومن الأمثلة العملية المعاصرة أنَّ بعض أصحاب هذه العقلية يدعي أن ليس هناك قناة السويس الجديدة، فنقول لهم: ولكنَّها أمامكم قد تم حفرها بالفعل، فيجيبونك: ولكننا سمعنا كلاما غير هذا.

لم يكن أئمتنا هكذا، لا الإمام الشافعي، ولا الإمام النووي ، ولم يكن الصحابة الكرام هكذا، بل كان لديهم نظام التوثيق والتثبت حتى إن الله قد ألهم هذه الأمة إحدى وعشرين علمًا حتى تقوم بالتوثيق والتثبت والرواية في نقل القرآن والسنة والدفاتر وكتب الأئمة، وكل ذلك بالأسانيد المتصلة المقروءة المعتبرة التي بنت عقل المسلم، فلم يكن عقلًا خرافيا ولا هشا، بل عقلًا علميًا متثبتا يعرف مواضع أقدامه.

فالعقلية الهشة لا يصح أن يطلق عليها عقلية؛ لأنها لم تمتلك مقوماتها، ويطلق عليها هذا تجوزًا كما يطلق على الحديث الموضوع حديثًا وهو ليس بحديثٍ أصلا ، ولكن أطلق عليه هذا باعتبار أن من أَلَّفه وضعه على سيدنا رسول الله كحديث؛ فسميناه حديثا موضوعا.

أما من حيث انتمائها لأنماط التفكير المختلفة فهي لا تنتمي لأي نمط منها، فلا تنتمي للتفكير السطحي ولا للتفكير العميق ولا للمستنير؛ لأنها شيء هش من قبيل الخرافة ، ولا تعد عقلية كما بينا.

وضررها لا يكاد ينحصر في أصحابها، بل لا شك يصيب الآخرين، وخاصة من يسيرون في ركابها وتحت قيادها، فيتأثرون بتلك العقلية الخرافية التي تصر على مجموعة من الخيالات،

والرغبات، والشهوات، ولا تحسن التفكر ولا التدبر في الأمور، فهولاء سوف يفوت عليهم الأمر، ولن يفيقوا إلا بعد فوات الأوان، ولن يصلوا إلا بعد رحيل القطار، ورحيل السكان من هذه الديار، ولن يستطيعوا اللحاق بالآخرين.

أمَّا عن كيفية الخروج من عباءة هذه العقلية الهشة، فلن يكون ذلك إلا بذكر الله قال تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[1] فالذكر هو طريقه عز وجل قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[2]، ﴿وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ﴾[3]، فسبب الفلاح هو الذكر، أما من يرون أن المداومة على الذكر والأوراد بدعة، فهم أبعد الناس عن الهداية[4].

(1) سورة البقرة، الآية: (152).

(2) سورة آل عمران، الآية: (199).

(3) سورة الأنفال، الآية: (45).

(4) صنف العلامة أبو الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي الهندي كتابًا سماه : " إقامة الحجة على أن كثرة التعبد ليست ببدعة " .

العقلية الفارقة

من صفات المسلم الرباني، أنه صاحب عقلية فارقة لا خرافية ولا هشة.

والعقلية الفارقة وهي: حالة منهجية تميز وتفرق بين الأمور المتشابهة، وتبحث في عمق الأشياء وليس ظاهرها، فهي على العكس تماما من العقلية الهشة.

وقد حرص مشايخنا الذين تربينا على أيديهم في الأروقة الأزهرية على تكوين العقلية الفارقة لدينا، وذلك بتربيتنا على النظر في العلوم بعمق وعلى مستوى الحرف وليس على مستوى الكلمة، حيث حرصوا على أن يفرقوا لنا بين العلم بعمقه والمعرفة بسطحيتها، فالعلم منهج وقواعد وكتب صحاح، والمعرفة أو الثقافة لا تتعدى المستوى السطحي للأمور وإن كانت شيئا حسنا لا بد منه ، إلا أنها لا تصل للمستوى العميق أو المستنير.

فكنا مع مشايخنا في مجالس العلم نقف عند كل حرف ونبحث علاقته بما بعده وعلاقته بما قبله، وهل نشأت تلك العلاقة لاتصاله بالفعل أم لاتصاله بالاسم... إلخ.

فيتبين لنا الفرق بين: ضرب ويضرب وضربًا وأن كلمة "ضرب" فعل، وأنها من الفعل الماضي، ومن ذلك نعلم أن الماضي هو الحدث في زمن سابق، ثم ننتقل إلى الحدث فنسأل عن ماهيته، فإن كان الحدث هو "ضرب" فنتسائل ما علاقته بالضرب؟ ويتضح لنا أن كلمة "ضرب" وحدها تحتاج إلى "ضارب"؛ أي: فاعل، و"مضروب"؛ أي: مفعول به، وحدث: وهو "الضرب"، وأن يكون كل ذلك في زمان الماضي؛ أي أن هناك أربعة عناصر تستخرج من كلمة واحدة، فبمجرد قراءة كلمة "ضرب" ينطبع في ذهن صاحب العقلية الفارقة أربعة عناصر.

ثم نبحث في الحدث فنسأل: هل الحدث يوجد في الذهن أم خارجه؟ أم أن الذي في الذهن صورته وليس هو؟ فنعرف من ذلك أن هناك حدثين؛ أحدهما: في الخارج، وهو

حقيقة الضرب، والآخر: في الذهن، وهو صورة ذلك الضرب، فينشأ من ذلك تساؤل آخر وهو: هل الأساس في الحدث صورته المنطبعة في الذهن أم حقيقته الواقعة في الخارج وكل ذلك في اشتقاق كلمة "ضرب"؟ فنعلم أن هناك خلافا بين أهل اللغة؛ فالكوفيون يقولون: إن أصل الاشتقاق الفعل، والبصريون يقولون: إن أصل الاشتقاق الحدث ويسمونه مصدرا.

وكل هذه المراحل تكون لدينا "العقلية الفارقة"، وتبنى فهمًا عميقًا ننطلق منه لاستنباط الأحكام، واستنباط نظام التوفيق، وننطلق منه كذلك لتقسيم النصوص الشرعية إلى ظني وقطعي.

ويظهر لنا من ذلك كيف أنَّ هناك فارقا كبيرًا بين الظن والقطع، والدين والتدين، والعلم والمعلومات... إلخ.

فصاحب المعلومات قد يكون قرأ مائة كتاب لكنه لم يتعلم؛ لأنه لم يمر بكل تلك المراحل لاستخراج المعلومة والوصول لها؛ ولذلك فتحصيل المعلومات ليس هو العلم إطلاقا، فمثلا في مجال الطب كان يصدُر في مصر منذ عدة سنوات مجلة اسمها "الدكتور"، ثم لحقها عدة مؤلفات طبية كمجلة "طبيبك الخاص"، و"الكتاب الطبي" وهكذا، وكل هذه المجلات كان يتابعها عموم الناس من غير المتخصصين في الطب، فهل إذا جاء شخص وحفظ كل ما كتب في هذه الكتب والمجلات من معلومات طبية، فهل يصير بذلك طبيبا!؟ بالطبع لا، فلا يمكن له أن يكون طبيبًا حتى ولو حفظ كل المعلومات الطبية، لأن الطبيب هو من درس الطب من كتبه المعتمدة، ثم يذهب ليتعلمه على يد الأطباء المعتبرين، فيرى كيف يشخصون الحالات، وكيف يصفون العلاج، وكيف يفرقون بين حالة وأخرى...إلخ، ويخوض في ذلك وقتًا حتى يكون طبيبا.

أي أنه لا بد أن يلتزم طريق العلم من منهج، وقواعد، وتدريب، وتربية.

فالمنظومة التعليمية التي تنتج العقلية الفارقة لها أركان ولها درجات، فأركانها:

1. الطالب.
2. الأستاذ.
3. المنهج.
4. الكتاب.
5. الجو العلمي.

ودرجاتها:

(1) التربية.

(2) التعليم.

(3) التدريب.

وبدون استيفاء هذه الأركان والدرجات مع بعض العلوم المساعدة التي يحتاج إليها مع قدرة عقلية على الترتيب المنهجي تصبح المعلومات جزرًا منعزلة في ذهن من عجز عن الجمع بين هذه العناصر، ولا يمكنه الوصل بينها ومعرفة الكامن وراءها أو إسقاطها على الواقع المعيش والاستفادة منها بتجديد الاجتهاد العلمي، ويدور عقله في مجال التوهمات .

فالعلم في حاجة شديدة إلى جريان الفكر حتى يمده دائما بكل جديد وإذا انقطع عنه ذلك المورد جَمُد العلم وحدثت له المشكلات .

ولقد نشأت الجامعات الأكاديمية في الأساس من أجل أن تُمَدَّ العلم بتيار الفكر ، ولكن وعلى غير المقصود وقعت الجامعات في القرن الأخير، وفي أغلب دول العالم في أزمة فكرية؛ وتحولت إلى محاضن للعلم دون مدِّه بالأفكار الإبداعية المبتكرة ، واعتبرت ذلك محافظة على

التراث العلمي القديم أو الالتزام بالمنهج الموروث الذي صح عند السابقين .

واستنهض بعض الباحثين من خارج المجال الأكاديمي محاولا الخروج من دائرة التوهيمات والعودة إلى الاجتهاد العلمي الإبداعي، ولكنهم لم يلتزموا بالمنهج فخرجت محاولاتهم في صورة لم تستقم بعد، وليست قادرة على التجديد العلمي وإعادة العقل الإسلامي إلى وضعه الصحيح المنتظر منه .

والمشكلة التي نعاني منها في التعليم، سواء كانت في الأزهر الشريف، أو في التعليم العام، هي خلل في أركان المنظومة التعليمية، تغافل عن إصلاحه المسؤلون أزمنة عديدة؛ فلذلك دائما ما نقول: لا نهضة لنا ولا قوة ولا حراك إلا بالتعليم، وهناك نماذج عديدة في دول مجاورة لنا ممن استطاعوا إصلاح المنظومة التعليمية لديهم فكانت بذلك نهضتهم وتقدمهم.

ونحن ندعو الشباب إلى التحلي بالعقلية الفارقة وبنائها في ذواتهم وعقولهم ونُحَذِّرُهم من العقلية الخرافية وتداعياتها وأن تسيطر عليهم وعلى حياتهم فتهدمها ، ونُنَبِّهُهم إلى أخذ الحيطة والحذر من اتباع المناهج المتطرفة فكريًا سواء من آثر القوة على العقل، أو من آثر العقل على العلم والدين .

وقد يبدو من هذا الكلام تساؤل، وهو هل العقلية الفارقة حكر على أهل العلم والاختصاص، أم إنه يمكن أن يتميز بها أي شخص على اختلاف المستوى التعليمي والثقافي؟

والجواب أنه يمكن لأي إنسان تلقَّى العلم أن يتحلى بالعقلية الفارقة لكن بدرجات

مختلفة، قال تعالى: ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ (1) فالمعرفة درجات، ومن أول هذه الدرجات :

1- إدراك الواقع ، فلا بد للمسلم من إدراك واقعه، وأن يعيش مدركا لزمانه عالمًا بشأنه كما وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه ابن حبان وغيره حيث وصف المؤمن بأنه "مدرك لشانه عالم بزمانه" .

فعن أبي ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث طويل أجاب فيه على أسئلة أبي ذر : "وَعَلَى العَاقِلِ أَنْ يَكُونَ بَصِيرًا بِزَمَانِهِ مُقْبِلًا عَلَى شَأْنِهِ حَافِظًا لِلِسَانِهِ" . (2)

والله جعل أمة الإسلام أمة دعوة ومن ثم تحصل لها الخيرية والأفضلية حيث قال : ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ (3)، فلا بد علينا أن نرجع إلى منهج النبي صلى الله عليه وسلم .

2- الاهتداء إلى المنهج العلمي ، فالاحتكام إليه خاصة في فهم النص الإلهي في القرآن والسنة يضع أيدينا على الضوابط والمعايير الثابتة، وإلا فإن عقولنا ستحبو في حالة من العرج أو الكساح أو الموت .

وذلك هو طريق تكوين التفكير المستقيم الذي يبدأ من البحث في الجملة التي تُخْبِر عن واقع ، والأخذ في التأكد من صحتها، و إلا اتجه الفكر إلى الخرافة فلا يكون مستقيما، وكل جملة مفيدة لها مجال، وكل مجال له طريقة في إثباته، ودليل يبرهن على صحته، ومعيار للقبول

---

(1) سورة آل عمران، الآية: (193).

(2) أخرجه ابن حبان (ج2/82رقم361) عن أبي ذر، ط مؤسسة الرسالة.

(3) سورة آل عمران، الآية: 110.

والرد بشأنه.

فهناك أمور تعود إلى الحسِّ والتجريب ، مثل جملة "النار محرقة"، و"الشمس مشرقة"، ودليل هذه الأمور يكون بإدراك الحس أو بالخبر المتواتر الموثوق به .

وهناك أمور أخرى تعود إلى العقل؛ مثل: حقائق الرياضيات، وهناك أمور تعود إلى النقل، مثل: أحكام اللغة وأحكام الشريعة .

وللتجربة في كل ذلك دور مهم سواء النظري أو العلمي؛ لأن التجربة تشمل مراحل هي تتبع الظواهر الإنسانية أو الكونية، وتسجيل الملاحظات عليها وما يطرأ عليها من تغيرات ، ثم وضع الفروض واستخلاص النتائج والحلول ، وليست الشريعة بمنأى عن هذا المنهج بل هي في حاجة إليه في شقها المتعلق بحياة الإنسان ، ولا يخفى على كل فقيه أو أصولي أن دراسة الواقع وتحقيقه والإحاطة بتفاصيله الدقيقة يعد جزءا مهما في عملية توقيع الشريعة وإعمالها في تسير حياة الناس والمجتمعات نحو الصلاح والخير وتحقيق الإعمار في الكون والحياة وهي الأمور التي تعد المقصد الأول للشريعة وحيثما وجد هذا المقصد فثمت الشريعة .

3- أن يعلم وجوب سؤال أهل الذكر إذا كان لا يعلم، وأهل التخصص أولى بالسؤال، فمن كان في حاجة إلى العلاج يذهب إلى الطبيب، ومن كان في حاجة إلى البناء يذهب إلى المهندس وهكذا.

نعم قد يعرف الإنسان كيف يتعامل مع جسمه وكيف يستخدم أسس الوقاية من الجراثيم، لكن قضية التطبيب مثلا شيء آخر، فالعقلية الفارقة تجعل الإنسان لا يعترض على

ما لا يعلم، بل يسأل ليعلم ويتعلم، قال تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1] فإذن العقلية الفارقة قد يتحلى بها أي إنسان، لكن بدرجات مختلفة.

كيف يكون الإنسان صاحب عقلية فارقة؟

ونزيد الأمر وضوحًا بالتكرار والإعادة على النقاط المهمة في تشكيل العقلية الفارقة :

أولا: أن يكون للمتعلم شيخ، وهو ما نسميه الأستاذ أو المربى، فيكون وسيلة لانتقال المعارف والخبرات المتراكمة إليه ، وأن هذا المربي هو إنسان أكملته التربية يحاول أن ينقل صورته ونظام أحواله إلى غيره ، فإرشاد الأستاذ ركن من أركان بناء العقلية.

فلن يكون الطبيب طبيبًا حتى لو تعلم الطب إلا إذا أجازه بذلك الأطباء، وبدون إجازة الأطباء له سيتعرض للمسائلة القانونية بموجب القانون المعتبر في العالم كله، حتى لو نجح في ممارسته للطب إلا أنه يستحق العقوبة وليس المدح.

ثانيا: لا بد أن يعرف ما وصل إليه العلماء من قبله، حتى يبدأ مما انتهى إليه الآخرون، فيوفر على نفسه وقتا وجهدًا في بحث ما تم بحثه بالفعل ولم تعد هناك فائدة منه، وإلا لو بدأ الإنسان من أول العلم سيكون كمن أراد أن يبدأ بما بدأ به إديسون من اكتشاف البخار لتسير القطارات بالبخار بعد ما أصبحت تسير بالطاقة الشمسية.

ثالثا: الحرص على إتمام أركان العلم حتى لا يقع في الخلل، فلتحصيل العلم أركان وقد ذكرها الإمام الشافعي رضي الله عنه في قوله:

أَخِي لَنْ تَنَالَ العِلْمَ إِلَّا بِسِتَّةٍ ... سَأُنْبِيكَ عَنْ تَفْصِيلِهَا بِبَيَانِ

(1) سورة النحل، الآية: (43).

ذَكَاءٌ وَحِرْصٌ وَاجْتِهَادٌ وَبُلْغَةٌ ... وَصُحْبَةُ أُسْتَاذٍ وَطُولُ زَمَانِ

وهنا نعود لنستكمل الحديث عن المكونات التي شكلت عقل المسلم، والتي يعتمد عليها في مجابهة مشكلات العصر الحديث، والتفاعل مع أبناء عالمه والتعامل معهم دون انعزالية أو صدام، بل بوعي فصيح وعقل رجيح، يحاورهم ويجادلهم بالتي هي أحسن، فيجيب على أسئلتهم عن الغيب والشهادة، ويرد على شبهاتهم وطعونهم في دينه ومقدساته.

ولو حصلنا هذه المكونات وأدركنا كيف تتشكل العقلية المسلمة لأمكننا أن نربي أبناءنا وأجيالنا عليها، فيكونوا نباتًا حسنا وذرية صالحة تسعى في الأرض بوعي وتسير بين الناس بهدي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، خير هدي، فتخدم أوطانها وتحقق أهداف أمتها، وتنفع الإنسانية بعلومها وأخلاقها، فتهنأ عيشتها وتسعد في دنياها وأخراها.

والحقيقة أنَّ مكونات العقل المسلم كثيرة وهي درجات يشد بعضها بعضا، وبها يتميز المسلم عن باقي الخلق، وتُمكنه من عبادة الله وعمارة الأرض وتزكية النفس. فمن هذه المكونات اهتمام المسلمين بالعلم

مهمة الإنسان في الأكوان

يسأل كثيرٌ من الناس عن مكونات العقل المسلم: مِمَّ يتكون هذا العقل؟ وما هو؟

والحقيقة أنَّ مكونات العقل المسلم كثيرة، وهي التي تُميز المسلم عن باقي الخلق، وهي التي تُمكِّن المسلم من عبادة الله وعمارة الأرض وتزكية النفس، وهي التي يمكن أن يُجيب بها المسلم عندما يُسأل: من أنت؟ وما الفرق بينك وبين الآخرين؟ أو عندما يُسأل: لماذا أنت مسلم؟ أو بماذا أنت مسلم؟

وحتى نجيب بعمق على هذا السؤال: ما مكونات العقل المسلم؟ وما هي درجات المعرفة لديه؟ ينبغي علينا أولًا أن نتأمل عدة أمور، وهي التي تُعد فارقًا جوهريا بين المسلم وغيره.

ومن هذه الأمور أنه يجب على كل مسلم أن يعلم أن مهمته التي خلقه الله سبحانه وتعالي في هذا الكون لأجلها هي عبادته، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (1) فقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُون﴾ أسلوب يسمى في اللغة العربية بأسلوب القصر، أي: أن المقصود الذي خُلقنا من أجله هو: عبادته.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قَالَ: لَيُقِرُّوا بِالْعُبُودِيَّةِ طَوَعًا أَوْ كَرَهًا".(2)

ويقول الإمام الرازي في "تفسيره": (وهو أنَّ الخلق ليس إلا للعبادة، فالمقصود من إيجاد

---

1 - سورة الذاريات، الآية: (56).

2 - تفسير ابن أبي حاتم (10/ 3313).

الإنسان: العبادة. [1]

و أيضًا ينبغي أنْ يُعلم أنَّ العبادة في الإسلام لا تقتصر على الصلاة والصيام والزكاة والحج فقط؛ بل تتسع لما هو أعم من ذلك؛ تتسع لتشتمل على التالي :

1- تنظيم العلاقة بين الإنسان والكون المحيط به، وبين الإنسان وغيره.

2- تنظيم العلاقة بين الإنسان ونفسه.

فتكون ثمرة ذلك الفلاح له والإصلاح للكون كله.

فقصر العبادة على العبادات البدنية فقط صورة من صور تضيق مفهوم النص، وعدم الفهم الصحيح له؛ لأن "معنى العبادة: أن تكون قولًا أو فعلًا يشتمل على معنى يكسب النفس تزكية، ويبلغ بها إلى غاية محمودة ... فيحتمل ما فيها من المشقة لأجل الغاية السامية". [2]

وقد فصل الشرع الشريف مفهوم العبادة على أحسن ما يكون، من خلال الوحي الذي أنزله الله تعالى على أنبيائه عبر الدهور وكر العصور.

فعلمنا من خلاله كيف نصلي، وكيف نصوم ونحج، وكيف ننفع الناس بالزكاة، وكيف نشهد شهادة الحق التي قام على دعائمها هذا الكون، وهي أنَّه لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف نذكر الله تعالى، وكيف نحسِّن خُلقنا،

---

1 - تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (28/ 192)

2 - التحرير والتنوير (16/ 91)

ونعيش حياتنا، ونسعى لتحصيل سعادة الدارين الدنيا والآخرة.

ونخلص من ذلك أن للعبادة مفهوم واسع، لا بد من تصحيحه في أذهان الناس حتى لا ينحصر في ظاهر عبادة الجوارح دون باطنها وغايتها، وليس في هذا تقليلٌ من فرضية القيام بالعبادات الخمس؛ بل هم بمثابة الزاد الذي يستعان به على تحقيق مراد الله تعالى من الإنسان، والذي ينبغي أن تكون العبادات الخمس طريقًا للوصول إليه، وهو الخلافة في الأرض، بل حسن الاستخلاف فيها، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1] فعبادة الله عز وجل تبدأ من أداء العبادات الخمس وتتسع لتشمل كل ما يضمن حياة مستقرة آمنة من حدود وتشريعات، وتزداد اتساعًا حتى تشمل مفهوم الإعمار والاصلاح والنهضة والرقي والتقدم؛ بل تتسع لتشمل معنى الإحياء بكل ما تشمله الكلمة من معاني.

ومنها: الإحياء للأنفس البشرية المكرمة بأن تحيا حياة كريمة طيبة غير مهانة ولا مستحقرة، والإحياء للكون بما فيه من نبات وحيوان وبحور وجبال، بحسن التعامل معهم، واحترامهم واستخدامهم فيما ينفع ولا يضر، والإحياء للأمم بالعلم والأخلاق الكريمة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[2].

(1) سورة البقرة، الآية: (30).

(2) سورة البقرة الآية: 164.

وقال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾(1).

والامتثال والمواظبة على العبادات البدنية والفروض اليومية يغرس في المسلم من طيب الآثر ما يرتقي به إلى المعنى الأعم للعبادة وهو الإعمار والإصلاح في الأرض، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾(2) .

قال الإمام الطبري [ت310] في "تفسيره": (فإن قال قائل: وكيف تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر إن لم يكن معنيا بها ما يتلى فيها؟ قيل: تنهى من كان فيها، فتحول بينه وبين إتيان الفواحش، لأن شغله بها يقطعه عن الشغل بالمنكر، ولذلك قال ابن مسعود: من لم يطع صلاته لم يزدد من الله إلا بعدا. وذلك أن طاعته لها إقامته إياها بحدودها، وفي طاعته لها مزدجر عن الفحشاء والمنكر)(3) اهـ.

وروى ابن أبي حاتم [ت327] في "تفسيره" عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ : (إن الصلاة فيها ثلاثُ خلال، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة؛ الإخلاص والخشية وذكر الله، فالإخلاص

(1) سورة المائدة الآية : 32.

2 - سورة العنكبوت الآية: 45.

3- تفسير الطبري = جامع البيان، ت شاكر (20/ 42).

يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله "القرآن" يأمره وينهاه)[1] اهـ.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنَّ فُلَانًا يُصَلِّي بِاللَّيْلِ، فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ قَالَ: «إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا تَقُولُ» [2]

أي: إنَّ الصلاة ستنهاه عما وقع فيه من معصية السرقة.

ويقول الإمام الماتريدي [ت333]: والأصل: أنَّ العبادات تُذكر أصحابها عظم أحوالهم في أوقات فيها من المقام بين يدي الجبار، وتطلعهم على الموعود لهم في الميعاد. وهما أمران عظيمان:

أحدهما: في الزجر بما يعلم من عظم المقام واطلاع الواحد القهار عليه.

والثاني: في الترغيب بما يشعر قلبه من لذيذ الموعد ما يضمحل لديه كل لذة دونه، وتنقطع شهواته التي بينه وبين ما وعد [3]اهـ.

وهكذا يظل المسلم يرتقي في مراتب العبادات إلى أن تصل به إلى تحقيق مراد الله تعالى منه، المتمثل في الخلافة في الأرض وإعمارها؛ قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[4] وقال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [5] أي: طلب منكم إعمارها، فالألف

---

1 - تفسير ابن أبي حاتم (9/ 3066).

2 - رواه الإمام أحمد في مسنده 21/61/ح 10030.

3- تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (2/ 33) .

4 - سورة البقرة، الآية: (30).

(5) سورة هود، الآية: (61).

والسين والتاء تدخل للطلب؛ أي: أنه سبحانه وتعالى يطلب منا أن نعمر الأرض ونصلح فيها.

ومن أجل تحقيق ذلك ميز الله سبحانه وتعالى الإنسان عن جميع المخلوقات بنعمة العقل الذي به يتمكن الإنسان من تحقيق مراد الله منه، فجعل العقل هو مناط التكليف، وأخرج من لا عقل له عن نطاق تحمل الأمانة فأسقط عنه التكليف، كالطفل، والمجنون، والنائم، وكل من به آفة تؤثر على عقله وإدراكه، وكذلك كل ما دون الإنسان من سائر المخلوقات سواء جماد أو حيوان.

غير أن رفع التكليف عنهم لم يخرجهم عن نطاق العبودية لله تعالى، فكل ما في الكون من مخلوقات عباد لله تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾[1]

ويؤكد هذا المعنى ويرشّحه ما رواه الإمام البخاري في "صحيحه": «وَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ»[2]

وما أخرجه الطبراني في الأوسط عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ قَالَ: «إِنِّي لَشَاهِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَلْقَةٍ، وَفِي يَدِهِ حَصًى، فَسَبَّحْنَ فِي يَدِهِ، وَفِينَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ، فَسَمِعَ تَسْبِيحَهُنَّ مَنْ فِي الْحَلْقَةِ، ثُمَّ دَفَعَهُنَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَسَبَّحْنَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ، سَمِعَ تَسَبِيحَهُنَّ مَنْ فِي الْحَلْقَةِ، ثُمَّ دَفَعَهُنَّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَبَّحْنَ فِي

(1) سورة الإسراء، الآية: (44).

(2) صحيح البخاري (4/ 194).

يَدِهِ، ثُمَّ دَفَعَهُنَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى عُمَرَ، فَسَبَّحْنَ فِي يَدِهِ، وَسَمِعَ تَسْبِيحَهُنَّ مَنْ فِي الْحَلْقَةِ، ثُمَّ دَفَعَهُنَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، فَسَبَّحْنَ فِي يَدِهِ، ثُمَّ دَفَعَهُنَّ إِلَيْنَا، فَلَمْ يُسَبِّحْنَ مَعَ أَحَدٍ مِنَّا»[1]

فكل ما في السماوات والأرض من كائنات تسبح لله تعالى؛ وتسجد له؛ قال تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦﴾[2]

قال تعالى: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾[3]

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾[4]

وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾[5]

فيتضح لنا جليًا من هذه الآيات كيف أن الشمس والقمر دائما السجود لله تعالى بدلالة التعبير بالفعل المضارع الدال على الاستمرارية والدوام، وكيف أن للسماء نوع بكاء يتناسب مع ما أودع الله فيها من خصائص، وكيف أنَّ لها وللأرض إدراكا خلقه الله بهما يعلمه وحده

---

(1) المعجم الأوسط للطبراني (2/ 59).

(2) سورة الرحمن، الآية: (5).

(3) سورة الدُخان، الآية: (29).

(4) سورة فصِّلت، الآية: (11).

(5) سورة الأحزاب، الآية: (72).

جل وعلا أذعنا به وامتثلا طائعين حينما أمرهما عز وجل أن يأتيا، وأعطاهم به حق الإشفاق والإباء من أمر الأمانة حينما عرضها عليهما مخيرا.

ولذا فقد كان أهل الله ممن سلكوا بنا الطريق يعلموننا أنه من الأدب ألا يغلق الباب بالقوة أثناء الخروج؛ بل يغلق برفق؛ لأنه خشب يسبح لله تعالى؛ فتعلمنا من هذا كيف نحترم في تعاملاتنا كلَّ ما في الكون من شجر أو حجر أو إنسان؛ لأننا نعلم أنهم جميعًا يعبدون الله.

وتعد هذه النظرة مدخلا أساسيًا في تعاملنا مع البيئة [1] توجب علينا المحافظة عليها وعدم الإفساد فيها والحرص في التعامل معها من غير سرف ولا عنف؛ بعد أن أدركنا أننا نتعامل مع كَونٍ حيٍّ يعبد الله، علينا أن نحترمه ونتفاعل معه .

وبعد ما يعلم المسلم أنه خُلق لأجل عبادة الله، وأنَّ كل ما في الكون من مخلوقات عباد لله مثله، إلا أن الله عزوجل وهبه عقلًا ميَّزه به عن جميع المخلوقات، وأوكل إليه أمر إعمار الأرض وسخر له جميع ما بها من أجل هذا، فينطبع بهذه المعاني في عقله مكونًا رئيسيًا من مكونات العقل المسلم، وهو: أنَّ الله سبحانه وتعالى قد جعل الإنسان سيدًا في هذا الكون مسئولا عن إعماره والمحافظة عليه، وأن تلك العمارة جزء من عبادته لله عزوجل، والتحقق بهذا المكون والقيام به على أفضل وجه يكمل إيمان المسلم.

(1) ولنا مؤلف عن البيئة بعنوان (البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي).

الإنسان سيدٌ في كون ربه

كرم الله الإنسان بأن سخر له كل ما في الكون من كائنات سماء وأرض وأنهار وبحار، وأسجد له ملائكته المكرمين، ووهبه من العقل والعلم ما أصبح به قابلًا وقادرًا على حمل الأمانة -أمانة التكليف-؛ فجعله بذلك سيدًا في الكون، وقد تمثلت هذه السيادة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1]، فبني آدم مُكرم، ومفضل في هذا الكون.

فالتكريم بــ: أن خلقهم في أحسن صورة، قال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[2]، وقومهم في أحسن تقويم؛ قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[3] و ركب فيهم العقول التي بها يفرقون بين الفضيلة والرذيلة الخير والشر الحكمة والسفه، ويتوصلون إلى درك الحكمة وجمعها.

قال تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[4]، سخر لكم ما في الكون.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[5]

وذلك التفضيل والسيادة للإنسان لا تعنى أنه سيدٌ للكون، بل سيدٌ فيه؛ يخضع هو وكل

---

(1) سورة الإسراء، الآية: (70).

(2) سورة غافر، الآية: (64).

(3) سورة التين، الآية: (4).

(4) سورة البقرة، الآية: (29).

(5) سورة الجاثية ، الآية: (13).

ما سُخر له في الكون إلى السيد الأعظم الأجل، وهو الله سبحانه وتعالى، الذي بيده الإحياء والإماتة الإنشاء والإفناء، الإيجاد والعدم، جل جلال الله وتبارك في علاه.

فالمسلم يرى أنَّ الإنسان مخلوق مكرم بما أودع الله فيه من روح هي نفخة من روح الله تعالى، يتمايز بها عن كل ما في الكون من مكونات ومخلوقات، حتى إذا فارقته هذه الروح بخروجها عن الجسد عاد إلى التراب الذي هو إحدى مكونات هذا الكون ولا يتمايز عنه في شيء. إلا أنه يظل مكرمًا بما كرمه الله تعالى به.

ويعد ذلك مكونًا من مكونات العقل المسلم التي تؤثر في اختياره للمنهج الذي يتعامل به في حياته، فلا يقبل تطبق عليه المناهج التطبيقية التي تهتم فقط بجانب من جوانبه وهو الجسد وتهمل ولا تلتفت للجانب الذي كرمه وميزه الله به وهو الروح قال تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [1]وقال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[2].

إذن فمن مكونات العقل المسلم أن الإنسان سيدٌ في هذا الكون، وأنه مغاير لكل ما في الكون من مكونات ولكلا هذين المكونين أثره في حياة الإنسان وفي تعامله.

(1) سورة الحجر: 29.

(2) سورة الإسراء، الآية:85.

الإيمان بالله سبحانه وتعالى

يعتقدُ المسلم اعتقادًا جازمًا بأنَّ لهذا الكون إلهًا متصفا بجميع الصفات العُليا، بالعلم والحكمة والقدرة والكمال والإرادة، ومنزه عن كل نقص وشين، يَعْلَمُ السرَّ وأخفى من السر، كما يعلم الجهر، ويعلم الظاهرَ والباطنَ، وأنَّه الأول فليس قبله شيء والآخر فليس بعده شيء، تسبح بحمده السماوات والأرض ومن فيهن، وتقر بعبوديته الجبال والبحار قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾[1].

ويقر المسلم بلسانه أنه "لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله" ويوقن أنه لا نجاة له ولا سعادة إلا إذا صدق هذا الاعتقاد بقلبه وجوارحه.

ويعتقد أنَّ أفضل الأعمال وأحبها إلى الله هو الإيمان به تعالى؛ لأنه إن صلح صلح ما تبعه من أعمال، وإلا حبطت جميع أعماله.

روى الإمام مسلم في "صحيحه" عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «إِيمَانٌ بِاللهِ»[2].

وعَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، قَالَ: قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: «يَا بُنَيَّ، الدُّنْيَا بَحْرٌ غَرِقَ فِيهِ أُنَاسٌ كَثِيرٌ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ سَفِينَتُكَ فِيهَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَحَشْوُهَا الْعَمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،

---

1 - سورة الحديد الآية: 1 – 3.

2 - صحيح مسلم 1/88/ح83.

وَشِرَاعُهَا التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ؛ لَعَلَّكَ تَنْجُو». [1]

فإذا وقر الايمان في القلب لزم عنه إثبات الألوهية والوحدانية، والبراءة من الشرك، وإثبات الكمال لله تعالى وتنزيهه عن كل نقص، وينير قلب المسلم ويعلم علم اليقين أنه يعبد إلها لا يَحُده مكان، ولا يحويه زمان، ليس كمثله شيء، منزه عن الحلول في المخلوقات أو الاتحاد بها.

الْعَمَلُ الصَّالِحُ بِالِاعْتِقَادِ، وَالْإِقْرَارِ مَجْمُوعُ عِدَّةِ أَشْيَاءَ: أَحَدُهَا إِثْبَاتُ الْبَارِئِ جَلَّ جَلَالُهُ لِيَقَعَ بِهِ مُفَارَقَةُ التَّعْطِيلِ.

وَالثَّانِي: إِثْبَاتُ وَحْدَانِيَّتِهِ لِتَقَعَ بِهِ الْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ.

وَالثَّالِثُ: إِثْبَاتُ أَنَّهُ لَيْسَ بِجَوْهَرٍ وَلَا عَرَضٍ لِيَقَعَ بِهِ الْبَرَاءَةُ مِنَ التَّشْبِيهِ.

وَالرَّابِعُ: إِثْبَاتُ أَنَّ وُجُودَ كُلِّ مَا سِوَاهُ كَانَ مَعْدُومًا مِنْ قَبْلِ إِبْدَاعِهِ لَهُ وَاخْتِرَاعِهِ إِيَّاهُ لِيَقَعَ بِهِ الْبَرَاءَةُ مِنْ قَوْلِ مَنْ يَقُولُ بِالْعِلَّةِ وَالْمَعْلُولِ.

وَالْخَامِسُ: إِثْبَاتُ أَنَّهُ مُدَبِّرُ مَا أَبْدَعَ، وَمُصَرِّفُهُ عَلَى مَا يَشَاءُ لِيَقَعَ بِهِ الْبَرَاءَةُ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِينَ بِالطَّبَائِعِ، أَوْ تَدْبِيرِ الْكَوَاكِبِ أَوْ تَدْبِيرِ الْمَلَائِكَةِ. [2]

وهذا الكلام يُنَشَّأُ عليه المسلم ويتعلمه حتى يصير بالنسبة إليه من المُسَلمات ومن البدهيات، فيؤثر في حياته وفي سلوكه وفي فعله وإقدامه، وفي تركه وإحجامه وفي كل حركاته وسكناته.

1 - التوكل على الله لابن أبي الدنيا (ص: 49).

2 - شعب الإيمان (1/ 183-184).

فالإيمان بالنسبة للمسلم دون غيره قضية كبرى تحركه في الحياة عابدًا معمرًا محسنًا، والإيمان بالنسبة لغير المسلم مسألة فكرية فلسفية منفصلة عن حياته وسلوكه.

فالمسلم يؤمن إيمانًا مطلقًا بالله سبحانه وتعالى، وأنَّه خالق الأكوان وأنه الرازق المحيي المميت الحي القيوم، فهو واحد لا شريك له. وهذا التوحيد هو جوهر الإيمان.

فالله سبحانه وتعالى في اعتقاد المسلم واحدٌ في ذاته، واحدٌ في أفعاله، واحدٌ في صفاته، لا شريك له، هو الذي خلق الدنيا وما فيها، خلقها في الماضي ولم يهملها أو ينقطع خلقه عنها، بل هي مستمرة وكائنة بدوام ملكه وسلطانه عليها وفعله فيها بالخلق والإرادة، وهذا أمر مستمر لا ينقطع إلى يوم الدين حينما يريد الله فناءها، وتبديلها بخلق جديد.

فالخلق مستمر في كل طرفة عين، بل أقل من ذلك، ولقد عرفنا الله سبحانه وتعالى الفمتو ثانية، فنحن في أقل من الفمتو ثانية يجدد فينا ويحصل من خلق الله ومراده ما هو به عليم، فكأنَّنا من إنشاء الله وخلقه أبدًا، فلو أنَّ الله قطع عن هذا العالم وعنا الإمداد؛ أي إمداد الخلق؛ لفنى العالم ولم نجده ولوجدناه عدمًا محضًا.

قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٥﴾[1].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾[2].

ويندرج تحت إيمان المسلم بالله تعالى إيمانه بالتكليف وأنَّ الله عز وجل لم يخلق الناس

1 - سورة ق، الآية: 15.

2 - سورة فاطر، الآية: 41.

عبثًا؛ ولم يتركهم في هذه الحياة دون هداية، ولذلك فقد أرسل الرسل و أنزل الكتب وأوحى بالشرائع، وهذا الوحي يشتمل على الحقائق الغيبية والحقائق الكونية، إضافة إلى ما به هداية الإنسان إلى حسن الأخلاق وفضائلها، ونهيه عن شرارها ورذائلها، فالمسلم يؤمن بتكليفات وأوامر ونواه للإله الذي خلقه وخلق العالم من حوله.

فإنْ صدق الإيمان بالله تبعه الإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزًا يومًا للناس، فأتاه جبريل، فقال: ما الإيمان؟ قال: ""الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ"[1].

كما يؤمن المسلم بأنَّ الأخلاق الفاضلة جزءٌ من الإيمان، وأنَّ الحياة إنما تستقيم وتصلح بالمطلق من القيم الأخلاقية.

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ – أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ – شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»[2].

كما يعتقد المسلم بالقداسة والبركة في أشياء مخلوقة أخبر الخالق أنه يجب لها على الإنسان الاحترام والتقدير والتعظيم، كالمصحف وسيدنا النبي صلى الله عليه وسلم والكعبة...

---

1 - صحيح مسلم 1/63/ح35.

2 - صحيح البخاري 4/1793/ح4499.

وهكذا.

والمسلم يؤمن بأنَّ شرائع الإله يتحصل للإنسان من ورائها مصالح ومقاصد في حياته، تحفظ على الإنسان نفسَه ودينَه وعقله وكرامته وملكه، مما يحقق له السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة.

فإيمان المسلم بالله تعالى يصل لحد أنَّ ذكر اسم «الله» يؤثر فيه تأثيرًا بالغًا؛ لأنه الاسم الدال على الذات العليا المقدسة، وهو علم على الإله مختص به لا يطلق على غيره فكل حرف منه يدل عليه، فمهما حذفت من حروفه لم تتغير دلالته على الذات العليا.

فلفظ الجلالة «الله» لو حذفنا الألف تكون (لله) فهو الله أيضا، ولو حذفنا اللام بعد الألف تكون (له) سبحانه وتعالى، فتكون دالة أيضا عليه سبحانه، ولو حذفنا اللام الثانية وأبقينا الهمزة لكان (إله)، ولو حذفنا الألف واللام واللام لبقيت (هو)، وهو ضميرٌ عند إطلاقه يدل على الله سبحانه وتعالى... وهكذا فإن اللفظ كله يدل على الله.

يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كلمة من تحت العرش من كنز الجنة تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله. فيقول الله عز وجل: أسلم عبدي واستسلم". [1]

ولو تتبعنا ما ورد في القرآن الكريم من أسماء الله الحسنى نجدها كثيرة جدا، ونتعجب لِمَ يُكثِر الله سبحانه وتعالى من أسمائه وصفاته، فيصف نفسه بكل هذه الأوصاف؟!

يفعل ذلك ليزيد البيان والكشف لعباده عن غيب عجزوا عن إدراكه، وهو: ذاته العليا، فيعرفهم أسمائه وصفاته؛ لتشرق معانيها في قلوبهم فيتعرفون عليه جل وعلا ؛ فهو: «الرحمن،

---

(1) المستدرك على الصحيحين:ج1/ص71 ح54.

الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهمين، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت... وهكذا» أسماء الله الحسنى كثيرة، أكثر من مئة وخمسين اسمًا في القرآن، وأكثر من مئة وستين اسمًا في السُّنَّة، وأكثر من مئتين وعشرين اسمًا في كل من القرآن والسنة بعد حذف المكرر.

وقد ذكر بعض العلماء توجيهًا آخر لكثرة أسماء الله، وهو : أنَّ العرب كانت إذا أحبت شيئًا أو خافته أكثرت من أسمائه، فتراهم أكثروا من أسماء الخمر لتعلقهم بها، وأكثروا من أسماء البحر؛ لأنهم كانوا يخافون ركوبه.

والله سبحانه وتعالى أكثر من أسمائه من أجل أن يصل هذا إلى قلوبهم، فيعظمونه سبحانه وتعالى ويستشعرون وجوده في حالتي الخوف والرجاء.

وقالوا: إنه أكثر من أسمائه؛ لبيان صفاته لخلقه؛ حتى يعرف الخلق تمامًا من الذي يعبدونه. كنا نقرأ هذا في الكتب حتى جئنا إلى العصر الحديث، وسمعنا شبهات المشككين الذين يقولون: «إن المسلمين يعبدون ربًّا لا يعرفونه» وهذا كلام من أبطل الباطل؛ فإنَّ الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم وصف نفسه وأبان وأوضح بما لا مزيد بعده، حتى صار تصور المسلم للإله هو قمة في الوضوح والجلاء، وإنما قصد المشككون أن المسلم لا يعبد إلها محسوسا مشاهدًا يمكن رؤيته والإحاطة به، كما يعبد غير المسلم أصناما، أو بشرًا أو مخلوقات صنع منها آلهة لنفسه، وما جعل الله عز وجل لها سلطانا على خلقه.

وقد وصف الله عز وجل نفسه بصفات الكمال، وبصفات الجلال، وبصفات الجمال، ولم يترك لنا شيئًا مما يزيل عنا هذه الشُّبهة إلا وقد جاءنا به، ولم يقل هذه الشبهة أحدٌ من

الأقدمين، لكن قالها من جهل الإسلام والمسلمين.

وهكذا نجد الإيمان بالله يُسيطر على عقل المسلم، ويُكَوِّن عقله ابتداءً؛ وكل ما سيأتي عرضه من مكونات العقل المسلم إنَّما أسه ومبناه التوحيد الخالص لرب العالمين الذي ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾.

الإيمـــان بالـــوحي

سبق أن ذكرنا أن أول المكونات للعقل المسلم هو الإيمان بالله جل جلاله،وأنَّ إيمان المسلم بالله إيمانٌ عميقٌ حتى أنه إذا ما ذكر اسم " الله"، تراه امتزج بوجدانه، وعرف أنه أمام خالق عظيم حكيم، متصف بالصفات العلى: بصفات الكمال والجلال والجمال، وأنه سبحانه وتعالى يحبنا، و يرزقنا ويمن علينا بالنعم، وأنه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، وأنه لا حول ولا قوة إلا به.

وهذا الإيمان بالحقيقة راسخ عند المسلم، يدرك الأشياء من خلاله، ويتعامل معها وفقًا لهذه الحقيقة، ويحكم على الأفعال بمعيار الإيمان وتقويمه، فيحدد أهدافه ويرتب أولوياته ويعقل سلوكه وأخلاقه.

وبهذا الإيمان يختلف المسلم عن غيره، حيث ينكر غيرَه التكليف ولا يحتكم لشريعة تأمره بفعل وتنهاه عن آخر، وهذا الإنكار للتكليف يأتي تبعًا للإيمان بالعبثية، وأنَّ الكون خُلِقَ صدفةً، وتسيره الطبيعة وقوانينها، يقولون: خلق الله الإنسان، ثم خلق العقل، ثم ترك الناس بعقولهم تعيش في هذه الحياة الدنيا.

المسلم من مكونات عقله أنه يؤمن بالتكليف، وأن الله سبحانه وتعالى قد أرسل الرسل، وأنزل الكتب والشرائع؛ ليقوم الناس بالقسط. قال تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ (1)

---

(1) سورة الحديد، الآية:25

وأمرهم بالعبادة والعمارة والتزكية، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]، ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[2]، ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[3]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾[4] ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾[5]

ومن مكونات العقل المسلم الإيمان بالحساب والثواب على الطاعة والعقاب على المعصية، والإيمان بأن الله عز وجل اصطفى الأنبياء والرسل؛ حتى يبلغوا وحيه ورسالته إلى سائر الناس.

واختلف العلماء في التفرقة بين النبي والرسول إلى آراء:

الرأي الأول: أنَّ الرسول والنَّبِي لفظان مترادفان.

فالرسول هو النبي والنبي هو الرسول، فإذا أرسل الله إنسانًا برسالة فهذا يعني أنَّه قد نبأه؛ فهو نبي.

وكان من العرب من يهمز كلمة نبي فيقول: نبيء، ومنهم من يقرأها من غير همز؛

---

(1) سورة الذاريات، الآية:56.

(2) سورة البقرة، الآية:30.

(3) سورة هود، الآية: 61.

(4) سورة الشمس، الآية: 9، 10.

(5) سورة البقرة، الآية:37، 38.

فبعضهم يقول نبي. وكلمة نبيء على وزن فعيل، وهذا الوزن في لغة العرب يدل على الفاعل والمفعول، فهو يدل على المنبئ أي المخبر ، أي الذي ينبئ قومه ويخبرهم بالوحي المنزل على قلبه من عند لدن رب العالمين، ويدل أيضًا على من وقع عليه الإخبار فهو مُنَبَّأ أي مُخْبَرٌ وموحى إليه؛ فالله سبحانه وتعالى يُخْبِرُه بأمور تتعلق بالغيب والوحي والتكليف والحقائق التاريخية التي تؤخذ منها السنن الإلهية في الكون.

فالنبي هو من قد نُبِّئَ من قِبَلِ الله سبحانه وتعالى، والتنبؤ يطلق على الإخبار قال تعالى: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1] أو التوقع بحدوث بعض الأمور من المغيبات، كمعجزات تدل على صدقهم وتَفرقهم عن الكاذبين أو الكهنة أو السحرة أو الدجالين.

وهناك نوعان من المعجزات التي أتى بها الأنبياء:

الأول: معجزة الرسالة.

والثاني: معجزة الرسول، وهناك فارق بينهما.

أمَّا معجزة الرسول: فهي إظهار الرسول شيئًا خارقًا للعادة يعجز عن إتيانه قومه، فيشاهده المعاصرون له فيبهرهم ويعجزهم به، ولكنها معجزة لا تتجاوز الزمان ولا المكان، موجهة أصالة للشاهدين عليها.

وقد أوتي النبي محمد صلى الله عليه وسلم كثيرًا من المعجزات الحسية الملموسة التي خاطبت معاصريه من المؤمنين والجاحدين، وهي معجزات رآها قومه وأصحابه، ولقد عدوا

1 - التحريم: آية 3.

له أكثر من ألف معجزة؛ منها: تسبيح الحصى في يده صلى الله عليه وسلم، ومنها حنين الجذع، ومنها فيضان الماء بين أصبعه الشريفة، ومنها سجود الحجر والشجر له، وتكليم الحيوان...إلخ .

فمعجزاته وخوارقه صلى الله عليه وسلم كثيرة، وقد أجرى الله على يد النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم من المعجزات مثلٌ أو شبيهٌ بكل ما وهبه لغيره من الأنبياء من المعجزات.

أما معجزة الرسالة: فتحدث من الرسول وتتجاوز الزمان والمكان، فالمقصود بها قومه وغيرهم من اللاحقين، فتبقى من بعده، وحيث كان محمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء والمرسلين، وقد أرسله ربه إلى الخلق أجمعين قومه ومن يأتي بعدهم من العرب والعجم، فإنه قد أوتي بالمعجزة الخالدة القرآن الكريم، وهو يقوم دائما بدور الإمام ودور النبي في هداية الخلق بما احتواه من معجزات وتنبؤات وسنن وأخبار.

فالقرآن معجز في ذاته، باقٍ عبر القرون، فهو كالنبي المقيم.

الرأي الثاني: أنَّ النَّبِيَّ أعمُّ من الرسول؛ فالأنبياء كُثر، ثم بعد ذلك يصطفي الله من الأنبياء الرسل؛ فالنبي من نُبِّئ لنفسه أو لغيره، ولكنَّ الرسول يكون صاحب رسالة للناس من عند الله. إذن فمن نبئ لنفسه ولم يؤمر بتبليغ ذلك = فهو نبي. أمَّا إذا أُمِرَ بالتبليغ: فهو رسول.

وهذا الرأي هو الذي يجمع عليه العلماء؛ وذلك لحديث أبي ذر أنه قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَمِ الأَنْبِيَاءُ؟ قَالَ: "مِائَةُ أَلْفٍ وَعِشْرُونَ أَلْفًا". قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله كم الرُّسُل من ذَلِك؟

قَالَ: "ثلاثمِائة وَثَلَاثَة عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا "[1]

فمن هذا المفهوم نعلم أنَّ الأنبياء أوسع من الرسل؛ لأنَّ الأنبياء يدخل فيهم من أُمِرَ بالتبليغ ومن لم يؤمر.

الرأي الثالث: هناك من يعكس فيقول: الرسول هو أوسع من النَّبِي؛ فالريح رسول، والإنسان رسول، وقد يكون الجن رسولًا.

فالرسول في اللُّغة يطلق حتى على غير من أوحى الله إليه، لكنَّ النبوة هي الأقل، فهذا عكس للرأي الثاني؛ فيكون كل رسول نبي، ولكن ليس كل نبي رسول.

الرأي الرابع: أن بين اللفظين عموم وخصوص.

وعلى كل حالٍ، لا نريد أن نستفيض في هذا المعنى؛ لكن هناك اعتقاد جازم في عقلية المسلم بالرسالة، وبالنبوة، وبالوحي، وبالتكليف، وبالكتب التي نزلت، أنها كتبٌ مقدسةٌ؛ لأنها تحكي عن الله سبحان وتعالى؛ فهي التي تبين لنا معنى الخير، ومعنى الشر، معنى الحق، ومعنى الباطل، معنى صراط الله المستقيم، وكيف نسير فيه.

1- أخرجه ابن حبان في "صحيحه" (2/ 77).

التـــكـليـــف

تكلمنا عن طبيعة العقل، وعن الإيمان بالله كمكون أول وأساس ورئيس للعقل المسلم، وتكلمنا عن الإيمان بالرسل والأنبياء والكتب والوحي، وأنَّ الله سبحانه وتعالى لم يترك الناس عبثًا؛ بل أرشدهم إلى طريق الحق وطريق الخير، وميز الباطل والشر حتى يجتنبه الناس.

والتكليف - كما هو في اللغة- معناه: طلب ما فيه مشقة [1] ، وطلب ما فيه مشقة إما أن يكون طلبًا للفعل، وإما أن يكون طلبًا للترك؛ ولذلك تكونت الأحكام الأربعة، وهناك حكم خامس وهو «الإباحة» ومقتضاه أنَّ الله سبحانه وتعالى لم يطلب منا الفعل، ولم يطلب منا الترك.

تفصيل ذلك: أنَّ الله سبحانه وتعالى أنزل الكتاب وأرسل رسوله بالهدى ودين الحق، وقال لنا: افعل ولا تفعل؛ كلمة افعل: طلب، وكلمة "لا تفعل" أيضًا طلب. الأولى طلب فعل والثانية طلب كف، فافعل: طلب فعل، ويسمى أمرًا، أما لا تفعل: فطلب ترك ويسمى نهيًا.

والأمر والنهي منه سبحانه قد يكون جازما لازما فيفيد الوجوب، وقد يكون غير جازم فيفيد الندب.

وأطلق الفقهاء على ما توجب فعله فرضًا أو واجبًا، وما توجب تركه حراما ، وقد يكون الأمر والنهي غير لازم بل هو أولى ، فأطلقوا على ما أمر به على هذه الهيئة مندوبًا أو مستحبًا وما نهي عنه مكروهًا، فمن فعل مندوبا أجر وأثيب عليه، ومن تركه لم يأثم وكان عن محبة الله

1- المصطلح الأصولي ومشكلة المفاهيم، أ.د علي جمعة (ص: 52).

أبعد، وكذا من ترك مكروها أثيب وأجر، ومن أتاه فقد ضيع الأجر وكان من محبة الله أبعد، والنية في هذا الباب هي الأصل .

فبهذا تتكون أربعة أحكام:

1- طلب الفعل ويكون لازمًا: يسمى «واجبًا»: أي أنَّه يجب عليَّ فعله، كالصلاة، والزكاة، والحج ولو مرة واحدة، والجهاد في سبيل الله عند حلول البلاء والعدوان وزيادة الطغيان. فمثل هذه الأشياء واجبة، ولكن هذا الواجب هو عبارة عن طلب رباني إلهي من الإنسان: افعل كذا. وإذا فعلته أثابك عليه، وإذا تركته يعاقبك عليه.

2- طلب غير لازم: ويسمى بالمندوب: كصلوات السنن، وصيام الاثنين والخميس، والعمرة بعد العمرة، والحج بعد الحج ، أي: حج النافلة الذي يأتي بعد حج الفريضة وهي مرة واحدة في حياة الإنسان، وهذه النوافل تسمى بالمندوبات؛ أمرنا الله سبحانه وتعالى بها على سبيل الاستحباب والندب.

3- طلب ترك ويكون لازمًا، وهو ما نهانا الله عنه من المحرمات، ويأتي على رأسها الكبائر التي يتحمل الإنسان من جراء فعلها إثما كبيرًا، وقد عددها رسول الله حيث قال صلى الله عليه وسلم: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ» (1)

والمحرمات فيها اللمم وهي الصغائر أيضًا، كالنظر والتطلع إلى العورات؛ فقد نهي

---

(1) أخرجه البخاري (4/ 10) ومسلم (1/ 92) في "صحيحهما" من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الرجل والمرأة من النظر إلى ما حرم من العورة، فإن فعل = فقد وقع في الخطيئة التي تستوجب التوبة والاستغفار.

4- طلب ترك ليس بلازم: لا يعاقب الله على فعله؛ لكنك لو تركته طاعة لله، فإنك تثاب وتؤجر، وإذا فعلته لا تؤاخذ، ولكنك حرمت نفسك من حسنات أنت أولى بها، وفي حاجة إليها .

5- وأما الحكم الخامس فهو المباح، وهو الأمر الذي لا طلب فيه لا تركا ولا فعلا.

إذن، فالتكليف معناه طلب شيء فيه مشقة، مشقة على الإنسان؛ فالوضوء فيه مشقة؛ ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ» (1)

فمثلًا : إذا كان البرد شديدا، وأتى وقت الصلاة فتوضأت ، حدث لي نوع أذى ؛ فهذا تكليف فيه مشقة، ولكن بالرغم من أن فيه مشقة، إلَّا أنَّك امتثلت لأمر الله، فنلت رضاه وتحصل لديك ثوابان : الأول: ثواب إتيان الفريضة، وثانيا : الوضوء على المكاره .

وعلى العكس إذا علم الإنسان أن الوضوء، أو الغسل في شدة البرد سيودي بحياته، فيجب عليه ألا يتوضأ، بل يفعل الرخصة التي رخصها الله له وهي التيمم، وإذا فعل خلاف ذلك وتوضأ ، فكادت نفسه أن تهلك، فقد وقع في المعصية؛ لأنه لم يمتثل أمر الله في حالته

(1) رواه مسلم في "صحيحه" (1/ 219).

تلك، وأن الله كما يحب أن تؤتى عزائمه فهو يحب أن تؤتى رخصه؛ لأنه يحب الإنسان فلا يرضى له بالهلاك .

وتحمل المشقة اليسيرة يظهر حبك لله وإيمانك به، مما يعود عليك بالنفع في الدنيا بزيادة البركة والراحة، وفي الآخرة بالعفو عن الذنوب وغفران الخطايا.

يقول القائل :

تَعْصِي الإِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّه ... هَذَا مُحَالٌ فِي القِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لأَطَعْتَهُ ... إِنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ [1]

أي : إنَّ علاقة التكليف، وإن كانت هي تَحَمُّل المشقة؛ إلا أنها علاقة الحب بين العبد وبين ربه.

فالتكليف من مكونات العقل المسلم؛ وتكمن فيه فلسفة المحبة، وقد يستغرب بعض من لا دين له كيف يستيقظ المسلم في البرد فيمس الماء ويتوضأ، ثم يسعى في ظلمات الليل حتى يؤدي الصلاة، فينكر عليه، من حيث لا يدري أنَّ المحبة والإيمان بالتكليف هو الدافع إلى هذا السلوك رجاء الثواب، والإيمان بالعقاب والثواب هو شق أو فرع للإيمان باليوم الآخر، والذي هو من مكونات العقل المسلم أيضا.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ». قَالَ: مَا الإِسْلاَمُ؟ قَالَ: " الإِسْلاَمُ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ

---

(1) قاله محمود الوراق وتنسب إلى الشافعي "بهجة المجالس وأنس المجالس"، ص: 86

الصَّلاَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ". قَالَ: مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، قَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: " مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ البُهْمُ فِي البُنْيَانِ، فِي خَمْسٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ " ثُمَّ تَلاَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ (1) الآيَةَ، ثُمَّ أَدْبَرَ فَقَالَ: «رُدُّوهُ» فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا، فَقَالَ: «هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ». (2)

وهذه الأقسام الثلاثة: الإيمان، والإسلام، والإحسان ؛ هي مراتب الدين، وهي حقائق إيمانية قد كونت وجدان المسلم، وكونت أيضًا عقل المسلم.

ودائرة المباح في الشريعة الإسلامية واسعة جدا، وإنما وقع النهي والتحريم على أفعال خاصة معينة، والمحرمات دائرة ضيقة جدا في سلوك الإنسان وأفعاله، وكذا المكروه، وكذلك التكليف بالفعل من أمر وندب.

وقد تكلم علماء الأصول باستفاضة كبيرة عن هذه الأحكام وأقسامها، ونظموها حتى يستطيع المسلم أن يتعامل مع القرآن السنة ومع الواقع المعيش بطريقة تكون أقرب ما تكون إلى رضا الله سبحانه وتعالى، ونتج عن هذا علم الفقه الإسلامي، وهو بثرائه الواسع يدور حول هذه الأحكام الخمسة، فيصف كل فعل وسلوك حسب رؤية الشريعة له، وحسب المنهج والقواعد فإن التكليف محصور، والإباحة هي الواسعة، و لا تكليف إلا بنص.

---

(1) سورة لقمان، الآية: 34.

(2) أخرجه البخاري (1/ 19) ومسلم (1/ 39) في صحيحهما عن أبي هريرة .

الإيمان باليوم الآخر (الحساب والعقاب)

إذا دخل الإيمان بالله في قلب المسلم، وصدَّق الوحي فيما أخبر به ، ولامس قلبه، واستشعر عظم قدرة الخالق جل وعلا حصل في قلبه يقين باليوم الآخر.

والإيمان باليوم الآخر من الأمور البديهية عند العقلاء ؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى ما دام قد كلفنا، أي: طلب منا أن نفعل شيئًا أو نترك شيئًا؛ والحياة فيها منغصات ومكدرات، وقد يكد الإنسان فيها ولا يحصل السعادة التي توقعها، وقد يظلمه إنسان ولا يقتص منه، والله سبحانه هو: العدل. فلا بد من يوم يقتص فيه للمظلوم، وتؤخذ فيه الحقوق، ويعطى فيه المؤمن المحروم، وهو : يوم الحساب .

وهناك وهم عند بعض البشر - دَهَمْ عليه إبليس- يقول لهم: إنَّ الأرواح «تتناسخ» فتخرج من جسد الإنسان، ثم تعود مرة أخرى في جسد إنسان آخر؛ من أجل نظرية الحساب هذه - أي الثواب والعقاب-؛ فإن كان قد فعل خيرًا فإنَّه يمتع في الدنيا، وإن كان قد فعل شرًّا فإنَّه يعاقب في الدنيا، وينزل في طبقة من المنبوذين من الناس الذين يعانون ويقاسون الجوع والعري والمرض والجهل والنبذ من المجتمع.

وقد تمادى بعضهم فقال بالتفاسخ وهو التناسخ بين الإنسان وبين الحيوان، وقال بالتراسخ وهو التناسخ بين الإنسان وبين النباتات. فالتفاسخ هو أن يحل روح الإنسان في حيوان؛ يحل في حمار أو في خنزير أو كلب حسب عمله . وأما «التراسخ» ففيه تحل الروح في نبات ما.

وفي هذا الهراء تناقض شديد؛ مؤداه أو مقصده أو السبب في القول به إنكار اليوم الآخر وإنكار الحساب الأخروي، لأنه إذا حدث التناسخ مرة بعد مرة فإن ذلك يعني أن الروح الشريرة تدخل في غيرها وتتداخل الأرواح، فمرة تفعل الخير ومرة تفعل الشر، فكيف

تحاسب، وقد اضطرت البهائية لإنكار يوم الحساب من هذا المنطلق؛ لأن الأرواح ستتداخل.

والتناسخ ضد عقيدة الإسلام، وقد اشترك بعض الناس في القول بالتناسخ، كالهندوكية، والبوذية، والشنتو... وغيرهم، ولكن أهل الكتاب أرباب الأديان السماوية من المسيحين واليهود والمسلمين يؤمنون باليوم الآخر، ويؤمنون بالوحي وبالرسل وبالكتب، ويؤمنون بالتكليف، وينكرون فكرة التناسخ.

ولكن العقل المسلم قد تَميز عن هذه الأفكار الواهية، فآمن باليوم الآخر الذي يحاسب الإنسان خالقه على ما فعله في الدنيا، فلقد خلق سبحانه الخلق ويحييهم كلهم في المحشر، ويوقفهم للحساب، فيضع الموازين القسط فتوزن أعمالهم بميزان لا يكذب، وبعد ذلك يخرج نتيجة الحساب: الخيرات والحسنات في جانب، والشرور والمعاصي والباطل في جانب آخر، وتتم عملية المقاصة بينهما، ثم بعد ذلك يخرج الإنسان إمَّا إلى الجنة وإما إلى النار، وفي النار أيضًا إمَّا أن يخرج منها إلى الجنة بعد ذلك إن كان موحدًا، وإما أن يبقى فيها خالدًا أبدًا.

هذه الصورة من مشاهد اليوم الآخر: من وجود جنة، ومن وجود نار، ومن وجود حساب، ومن وجود ثواب، ومن وجود عقاب، ومن وجود ميزان، ومن وجود كتاب سجلت فيه الأعمال في الدنيا، ومن وجود صراط منصوب على ظهر النار يسير عليه الخلق فإن اجتازوه نجوا من النار وإلا سقطوا وهلكوا.

كل هذه التصورات عن اليوم الآخر تشكل مكون من مكونات العقل المسلم، والمسلم في سلوكه اليومي يرجو الثواب، ويخشى العقاب؛ فيؤثر ذلك في إقدامه وفي إحجامه، فإن فكر المسلم في الإقدام على شهوة تساءل وتردد، فإن كانت حراما رجع عنها وانزجر خشية المؤاخذة والعقاب، وخشية أن يغضب منه خالقه الذي خلقه فسواه ، ويدفعه دافع الحب لخالقه، فيشتري اللذة الدائمة في الآخرة بترك اللذة الفائتة المؤقتة في الدنيا، وما ذلك إلا

لإيمان وقر في وجدانه باليوم الآخر .

إذن فالإيمان باليوم الآخر يؤثر عمليًّا في سلوكيات المسلم، ويجعله دائمًا حريصا على اختيار جانب الحق والخير، ويجعله لا يستمر في الخطيئة ولا المعصية ولا الشر إذا وقع فيه؛ بل يتذكر فيعود.

والإيمان باليوم الآخر عندما لا يكون واضحًا في ذهن البشر؛ تراهم يتجرؤون على الشر بكل وسيلة، وتراهم لا يبالون، وتراهم وقد أنشئوا مقياسًا آخر غير مقياس الحلال والحرام، وهو مقياس المصلحة المحضة، والمصلحة الحقيقية تختلف باختلاف الأشخاص «فمصائب قوم عند قوم فوائد، وفوائد قوم عند قوم مصائب»، فتحديد المصلحة أمر متعذِّر فالمصالح تتنازع ، وكل إنسان يكيف المصلحة حسب هواه وحاجته، واتباع الهوى والجري وراء الشهوات يدفع لا محالة إلى إنكار اليوم الآخر.

والمساحة المشتركة بين المسلمين وأهل الكتاب كبيرة، إلا أنهم كذَّبوا محمدا وكفروا به وبرسالته، بينما يؤمن المسلم بكل الأنبياء من لدن آدم حتى موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، يؤمن بأنهم جميعا أخوة، جاءوا بدين واحد وعقيدة واحدة، وإنما اختلفت شرائعهم وأزمانهم وأممهم، ويؤمن المسلم بالكتب جميعا التوراة والإنجيل والقرآن، على عكس غيره من أهل الكتاب الذين يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض، ولكن الإسلام شرط على أتباعه أن يؤمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله جميعًا ، موسى عبد الله ورسوله وكذلك عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله، ومحمد صلى الله عليه وسلم عبد الله ورسوله

صلوات الله عليهم أجمعين، ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾[1].

---

(1) سورة البقرة، الآية :285.

مصادر المعرفة

يحتل الحديث عن مصادر المعرفة مكانة بالغة في النظرية المعرفية لأيِّ نسق معرفي؛ فمن خلال تحديد هذه المصادر تستقى المعارف وتنساق الأدلة وتنجلي الحقائق ويستبصر الإنسان.

وقد تميز المسلم بتعدد مصادر المعرفة لديه، فكان الوحي مصدرًا من أهم مصادر المعرفة التي ساهمت في تكوين عقل المسلم وفكره، ولكي يستطيع المسلم فهم الوحي والوقوف على دقائقه والاستفادة منه في حاله ومآله كان لا بد من مصدر آخر من مصادر المعرفة وهو العقل.

وعَلِمَ المسلم أن العقل هبة من الله للإنسان وبه تميزه عن سائر خلقه، وأن له عدة مهام يقوم بها حتى يصير الإنسان عاقلًا مميزًا وهي:

1- التلقي.

2- الإدراك.

3 - وربط المعلومات.

4 - وحفظها.

5- استرجاعها.

6- أدائها.

فتؤول هذه المهام به إلى الفهم العميق، والابتكار، والإبداع، فاكتمال هذه العناصر يؤدي إلى : الاكتشاف والتحسين والتطوير.

وقبل أن نستكمل الحديث عن العقل المسلم وأنماط تفكيره ومكوناته، نلقي نظرة على العلاقة بين الوحي والعقل، وكيف أنها مصدران متوافقان ومتكاملان من مصادر المعرفة.

فالمسلم لديه مصدران رئيسان للمعرفة وهما:

1- كتاب الله المسطور؛ وهو "الوحي"، والذي يستخرج منه قواعد ومناهج يستطيع أن يصل بها إلى السعادة في الدنيا والآخرة .

2- كتاب الله المنظور؛ وهو "الكون" الذي يتوصل إلى قوانينه ودقائقه بالعلم والعقل.

وكلا هذين الكتابين من عند الله سبحانه وتعالى.

وقد أشار اليهما القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ (1) أي: الكون، وقوله تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ (2) أي: الوحي، وهما كتابان لا يختلفان، ويؤيد كل منهما الآخر؛ لأنهما من عند الله. قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (3) فقوله تعالى: (لَهُ ٱلۡخَلۡقُ) أي: عالم الأكوان، وقوله: (وَٱلۡأَمۡرُ) أي: النص. إذن فكيف يتعارض النص مع حقائق الأكوان! ولذا فليس ثمة تعارض في الإسلام بين الدين والدنيا، ولا بين العلم والمعرفة.

يستطيع الإنسان بالنظر في هذين الكتابين أن يصل إلى الهداية، وأن يفتح الله عليه بإدراك الحقائق المتتالية؛ لأنهما المكون الأساسي للحقائق التي يصل إليها العقل، بينما يمثل الأخذ بأحد هذين الكتابين وترك الآخر عرجًا فكريًا، فكما أن العرج الجسدي هو السير على قدم واحدة، فكذلك العرج الفكري هو الأخذ بأحد وسائل المعرفة دون الآخر، وبذلك لن يستطيع الإنسان أن يصل إلى الحقائق الكاملة أبدا إن ترك مصدرا واعتمد على الآخر.

---

(1) سورة العلق، الآية: 1.

(2) سورة القلم، الآية: 1.

(3) سورة الأعراف، الآية: (54).

فكتاب الله المسطور وهو (النص) قد صدر من عالم الأمر، وكتاب الله المنظور وهو: قد صدر من عالم الخلق (الكون).

وثمة كتاب ثالث جعله الله لإدراكهما، وهو الكتاب المقدور، ألا وهو الإنسان، فأصبح لدينا ثلاثة كتب:

الكتاب المقدور وهو: الإنسان.

والكتاب المسطور الذي يترجم مراد الرحمن وهو: الوحي.

والكتاب المنظور الذي هو: الأكوان.

ولذلك لم يمر المسلمون قط بما مرت به أوروبا عندما اصطدموا باكتشافات كوبرنيكوس[1] وجاليليو [2] لمخالفتها لمقررات الكنيسة حينئذ، مما أدى لصدور الخطاب البابوي الذي حُرِّم فيه سبعون علمًا لمخالفتها للنص الذي تعتقده الكنيسة، فزادت

(1) كوبرنيكوس: نيكولاس كوبرنيكوس (1473-1543م) راهب وعالم وفيلسوف كان أحد أعظم علماء عصره. يعتبر أول من صاغ نظرية مركزية الشمس وكون الأرض جرمًا يدور في فلكها في كتابه "حول دوران الأجرام السماوية". وهو مطور نظرية دوران الأرض، ويعتبر مؤسس علم الفلك الحديث.

(2) جاليليو (1564-1642م) عالم فلكي وفيلسوف وفيزيائي ولد في إيطاليا نشر نظرية كوبرنيكوس ودافع عنها بقوة على أسس فيزيائية، فقام أولًا بإثبات خطأ نظرية أرسطو حول الحركة، وقام بذلك عن طريق الملاحظة والتجربة، شكا بعض أعدائه إلى سلطات الكنيسة الكاثوليكية بأن بعض بيانات جاليليو تتعارض مع تقارير الكتاب المقدس، فأمرته الكنيسة بعدم العودة إلى كتابة هذه الأفكار مرة أخرى، وظل ملتزمًا بوعده إلى حين، لكنه كتب بعد ذلك في كتاب آخر بعد ست عشرة سنة نفس الأفكار، وفي هذه المرة أرغمته الكنيسة على أن يقرر علانية أن الأرض لا تتحرك على الإطلاق وأنها ثابتة كما يقول علماء عصره.

الاضطرابات التي أدت إلى نشأة ما يسمى "بعلم الهرمنيوطيقا" [1] لمحاولة إيجاد الترابط وفك التناقض بين الكتابين المسطور والمنظور.

أما في الإسلام، فالنص يتوافق ويتلاحم مع كل سقف معرفي يصل إليه الإنسان، فكلما ارتقى الإنسان في إدراك حقائق الكتاب المنظور(الكون) بعقله تحمَّله الكتاب المسطور (النص) الوحي.

ولذا فالإعجاز العلمي في القرآن ليس في مطابقة آياته للاكتشافات العلمية الحديثة، بل في كونه مستوعبًا لها، غير مخالف أو متناقض معها.

فلم يحدث أن وصل العلم الحديث إلى شيء وقد نص القرآن الكريم على خلافه، وكيف يكون ذلك! وخالق الكتاب المنظور (الكون) هو نفسه مُنْزِل الكتاب المسطور(الوحي)، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [2] ، فكلاهما من عند الله الذي يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون! وهذا الذي يجعل القرآن قطعًا متجاوزًا للزمان والمكان والأشخاص والأحوال.

وهذا الفهم الدقيق لما بين الكتاب المسطور والمنظور من ترابط، يساعد في تبديد مشكلة أخذت حيزًا في الفكر الإسلامي قديمًا وهي مشكلة خلق القرآن، فالقول بخلق القرآن، كما

---

(1) فلسفة تأويل النصوص الدينية.

(2) سورة الملك، الآية: (14).

يرى المعتزلة سابقًا ومن تبني قولهم في العصر الحديث[1]، يتنافي مع القول بتجاوزه للزمان والمكان، ويجعله خاصًا بزمن معين وهو زمن النبي صلى الله عليه وسلم، ذلك لأنهم لم يلتفتوا لهذا المعني في زمانهم؛ ربما لعدم تصورهم التغير الذي سيحدث في الأزمنة اللاحقة.

ورحم الله الإمام أحمد بن حنبل لتصديه لهذه الفتنة وإصراره على القول بأن القرآن ليس مخلوقًا، وأنه كلام الله تعالى الذي يصلح لكل زمان ومكان، مدركًا بذلك أن القول بخلق القرآن يلزم عنه تغيره مع تغير الأزمنة وإلا لما صلح لها.

فالقرآن للمسلمين نبي مقيم، ورسالة دائمة لا تتغير ولا تتبدل؛ لذا فلا يمكن أن يكون مخلوقًا.

وجاز مع ذلك القول بأن المصحف مخلوق؛ لكونه وجد بعد ما لم يكن موجودًا، أي طبع ولم يكن مطبوعًا من قبل، والفرق هنا هو الفرق بين الدال والمدلول، فالدال هنا مخلوق والمدلول غير مخلوق[2].

كما أن هناك فرقا بين النص وبين تفسير النص، وبين النص وتطبيق النص ، والعلم بذلك له أدواته وله قواعده، التي يبرز فيها دور العقل في كيفية استيعابه لهذه الأدوات والمناهج،

---

(1) نصر أبو زيد: (1943-2010م) حاصل على دكتوراه في الدراسات الإسلامية من قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة القاهرة، وعندما قدم أبحاثه للحصول على درجة أستاذ تكونت لجنة من أساتذة جامعة القاهرة بينهم د.عبد الصبور شاهين الذي اتهم في تقريره د.نصر "بالكفر"، وحدثت القضية المعروفة التي انتهت بترك نصر الوطن إلى المنفي، منذ 1995م .

(2) الدال والمدلول: الدلالة: هي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأول هو الدال، والثاني: هو المدلول فليست الدلالة هي الدال أو المدلول، بل هي النسبة والانتقال الذهني من الدال إلى المدلول.

وكيفية تطبيقها، والتي لا بد أن يتمثل بها الفقيه حتى يستطيع تفسير النص تفسيرًا صحيحا متوافقًا مع المقاصد الشرعية غير متجاوز لمقتضيات اللغة، مراعيًا في ذلك ما استقرت عليه الأمة من إجماع وما يترتب من مآلات تختلف باختلاف الواقع وتتغير بتغيره.

فينظر إلى: الواقع كيف تغير!..وإلى أي مدى تغير!..وكيف يصل بين الواقع وبين النص.

وكل هذا لا يكون بغير معرفة، ولذا فهي درجات، أي في الترقي والصعود قال تعالى: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾(1) وعكسها والعياذ بالله "دركات" أي في السقوط والهبوط. وهو مقلوب الهرم، ومعناها أنهم ظهروا بغير مراد الله قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾(2)

ونخلص من ذلك إلى :

1- أنَّ العلاقة بين الإنسان والكون في الإسلام هي علاقة انفتاح كما هي العلاقة بين النص وتفسيره.

2- أنَّ هناك توافقا وتكاملا في الإسلام بين المعرفة وبين مصادرها.

والمقصود بالتوافق هو: عدم التعارض بين المصادر، إذا اشتركوا في الدلالة على شيء واحد.

والمقصود بالتكامل: أن يكون لبعض المصادر حدود ومجالات تختص بها تتكامل بها مع غيرها من المصادر.

---

(1) سورة آل عمران، الآية: (163).

(2) سورة الروم، الآية: (7).

وهذا الترابط والتكامل بين الوحي والعقل يرفضه ولا يستوعبه أصحاب الفكر الأعرج، الذين يغلقون أنفسهم على ظاهر النص فقط، ويكتفون به مصدرًا للمعرفة، فيؤول بهم الأمر أن تتناقض لديهم المعارف الدينية مع العلوم الدنيوية، فتضطرب الحقائق ويضلوا الطريق.

وهذا ما حدا بالمتطرفين من خوارج العصر (كلاب أهل النار) أن يعادوا الأمة ويخرجوا عليها بالسلاح يقتلوا برها وفاجرها؛ لأنهم استعملوا الدين في غير ما هو له، فشوهوا الدين باسم الدين، وهذا تلبيس وتدليس.

ومن الأمثلة على هذا الانحراف الفكري اعتراض بعضهم على ما قد توصل إليه العلم من الحقائق الكونية، كأن الشمس تدور حول الأرض، ظنًا منهم أنَّ ذلك يتعارض مع النص، وعند سؤالهم عن سبب قولهم هذا، يجيبون بأن النص القرآني أثبت أنَّ الشمس هي التي تدور حول الأرض وليس العكس في قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾(1)

فإذا بينت لهم بأن المعني من الآية بخلاف ما فهموا، وأن الاكتشافات الحديثة: من معرفة حجم الشمس وحجم الأرض والمسافة بينهما، تبين استحالة هذا المعنى، مع ثبوت جريان الشمس الذي نص القرآن عليه، لكن في مجرتها وليس حول الأرض، فلا تجد من هؤلاء إلا نفورًا وإعراضًا، وتجدهم ينهالون عليك بمؤلفات لإثبات تعارض العلوم الحديثة مع القرآن، كالذي ألفوه في استحالة وصول الإنسان إلى القمر؛ ردًا منهم على صعود البعض إلى القمر،

(1) سورة يس، الآية: 38.

ومن هذه المؤلفات "الصواعق الشديدة على أهل الهيئة الجديدة"[1] وكتاب "الصواعق المحرقة على أهل الهيئة المتزندقة" وكل ما بها يدور حول التعارض بين العلوم العقلية والنص الشرعي، وهو محض جهل وعرج فكري، وكأنهم يرغبون في تكذيب الله ورسوله ما وسعهم الجهد، ويريدون أن ينسبوا جهلهم وحمقهم إلى الوحي الإلهي.

وفي الجهة المقابلة لهؤلاء نجد علماء الإسلام، أصحاب المنهج الصحيح، يجمعون ولا يفرقون، فنجد الشيخ بخيت المطيعي[2] يؤلف كتاب "توفيق الرحمن" في عام 1920م للتوفيق بين ما قاله علماء الهيئة وبين ما جاء في الأحاديث الصحيحة وآيات القرآن الكريم.

فنراه يعمل فكره لكي يصل إلى التكامل وليس إلى التنافر، وهو الذي ألف كتاب "الجواب الشافي في إباحة التصوير الفوتوغرافي" الذي قالوا بحرمته مرارا وتكرارا إلى أن أصبح حلالا لديهم الآن.

فمن يفهم الإسلام يعلم أنه ذو نسق مفتوح، يستوعب كل جديد وحديث، كما يستوعب المختلِف معه؛ لأن تعاليمه لصلاح البشرية بأكملها، وخطابه موجه للناس جميعًا مسلمين وغير مسلمين. قال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:

---

(1) ومؤلفه هو: حمود بن عبد الله بن حمود التويجري، وهومطبوع 1388هـ.

(2) هو: الشيخ شمس الدين محمد بن بخيت بن حسين المطيعي (1856- 1935) مفتي الديار المصرية سابقا، كان نابغة عصره وإمام دهره، ووسم بأنه حلَّال المشكلات ورجل المعضلات، وكان مبرزًا في علم الأصول واستنباط الأحكام الشرعية، وشديد التمسك بالحق ينسى مصالحه الخاصة في سبيل نصرة الحق، ولا ينقطع عن تدريس العلوم الشرعية النقلية والعقلية لطلبة العلم الشريف في أي مكان حلَّ فيه، وقد درَّس الكتب المطولة في علوم التفسير والحديث والفقه وأصول الفقه والتوحيد والفلسفة والمنطق وغيرها.

158].

ولم يكن الإسلام يومًا منغلقًا على جانب دون جانب ولا خاصًا بفئة دون فئة، فلم نجد به شيئا يسمى حجرة قُدْس الأقداس التي نجدها في الديانات الأخرى موقوفة على الكهنة فقط، بل ليس لدينا فكرة الكهنة أصلا الذين ينشئون ديانة جديدة أو يحتكرون المعرفة، فليس في الإسلام رجال دين، بل علماء بالدين.

فكل إنسان في الإسلام له الحق في معرفة تعاليم دينه وعباداته وله الحق في دخول المسجد، وله الحق أن يتعلم علوم المسلمين وينهل منها، وقد كان من أصحاب الديانات الأخرى من دخل الأزهر الشريف والتحق بحلقاته والتف حول مشايخه؛ ليتعلم من علومهم (1).

نَسَقُنَا في الإسلام نسقٌ مفتوح بكل ما في المعنى من كلمة؛ لأنه اعترف بجميع الأنبياء والرسل السابقين، لأن مصدرا المعرفة فيه هما الكون والوحي دون فصل بينهما، لأنه حقق المقاصد وراعى المصالح، فأصبح بذلك صالحًا لكل زمان ومكان.

(1) ومن هؤلاء المستشرق لويس ماسينيون الذي درس بالأزهر لمدة عامين.

وسائل إدراك الحقيقة

سبق أن عرَّفنا العقل بأنه الدماغ، مع سلامة الحواس، مع المعلومات السابقة، مع الواقع المحيط، وبهذا التعريف عرفنا كيف أنه مناط التكليف، وأنَّه من وسائل الإدراك و به يربط بين المعلومات، وأنه يقوم بعمليات دقيقة جدًا يعجز عنها أعظم الحواسيب الإلكترونية في العالم، فالعقل ليس مجرد أداة تتلقن المعلومات، بل تحلل وتركب وتربط ليس فقط الأمور التي علاقاتها بين بعضها ظاهرة، بل بين الأمور التي يُظن ألا علاقة بينها، فالعقل نعمة عظمى من الله جل وعلا وله قدرات هائلة ، ويمكن القول : إنه أشبه بعملاق نائم ! وقد دلّت الدراسات النفسية والتربوية، وأبحاث الكيمياء والفيزياء والرياضيات أن ما تم استخدامه من إمكانات العقل لا يزيد على 1٪ من إمكاناته الحقيقية، وعرفنا أيضًا أنَّ القلب هو محل الفكر المستنير الذي في نهايته يؤمن صاحبه بالله، وأنَّ هذا القلب يعلو العقل، وأنَّ العقل يعلو السلوك، وأنَّنا إذا أردنا أن نغير السلوك فعلينا أن نغير المفاهيم والأفكار، أو شعور الأعماق، بدرجات مختلفة وبأساليب مختلفة، ومن هنا نصل إلى تغير السلوك؛ لأن السلوك المنضبط يصب في جانب عبادة الله وعمارة الأرض وتزكية النفس.

ومن كل هذه الخريطة نستطيع أن نصل منها إلى إجابة السؤال: هل العقل وحده يصل بالإنسان إلى الحقيقة؟

والحقيقة أن العقل هو أحد وسائل الوصول للحقيقة، وليس الوسيلة الوحيدة، فهو الوسيلة الأشيع التي يستخدمها العوام من الناس لكنها ليست الوحيدة؛ ومن أجل هذا الشيوع قسم العلماء الناس إلى عوام، وخواص، وخواص الخواص.

وطريقة وصول العوام للحقيقة هي العقل، لذا فإنه الوسيلة الأشيع، وطريقة وصول الخواص، وهم طائفة نخبوية من العوام لهم قدر من الخصوصية هي: القلب، ويعلوهم

خواص الخواص وهم نخبة النخبة بما منحهم الله من مواهب ربانية ومعارف نورانية.

إذن فالعقل هو الأسلوب الأشيع؛ ولكن هناك آخر، وهو القلب ويقصد به تجربة العقل والقلب معا.

وقد تكلم العلماء المسلمون عبر التاريخ عن القلب، وممن تصدر لهذا وتناوله بالتفصيل في كتبه الإمام الغزالي، فجاء إلى العقل ورأى أنه لا يستقيم أمره إلا بمجموعة من القواعد التي استقر عليها البشر وليس المسلمون فحسب.

ولذا فنحن نجد أن المسلمين قد استفادوا مما وصل إليه أرسطو[1] وجماعته من المشائين في اليونان[2]، وهم أجيال تسبق النبي صلى الله عليه وسلم بألف سنة؛ ولكن الحكمة ضالة المؤمن فأينما وجدها فهو أحق بها[3].

---

(1) أَرِسْطُو: (384-322ق.م.) أو أَرِسْطُوطَالِيس أو أرسطاطاليس فيلسوف يوناني، تلميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر، وواحد من عظماء المفكرين، تغطي كتاباته مجالات عدة، منها الفيزياء والميتافيزيقيا والشعر والمسرح والموسيقى والمنطق والبلاغة واللغويات والسياسة والحكومة والأخلاقيات وعلم الأحياء وعلم الحيوان . وهو واحد من أهم مؤسسي الفلسفة الغربية، وهو مؤسس علم المنطق.

(2) المدرسة المشّائيّة: الحكمة المشّائيّة هي مدرسة فلسفية في اليونان القديمة، استمدوا أفكارهم من مؤسس تلك المدرسة الفيلسوف اليوناني أرسطو، الذي سماه تلاميذه المشّاء .استمدت المدرسة اسمها من كلمة Peripatos، والتي تعني أروقة مدرج الألعاب الرياضية في أثينا، حيث كان أعضاء تلك المدرسة يجتمعون. ونشأت المدرسة عام 335 ق.م.، عندما سئم أرسطو من خلافة أفلاطون في رئاسة الأكاديمية.

(3) من حديث الترمذي وابن ماجه (الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا).

كان لأرسطو كتاب يسمى "الأرجانون العظيم"[(1)] تكلم فيه عن المنطق الذي يسمي لديهم "logique" ؛ وترجم بالعربية إلى المنطق؛ أي: أن له علاقة بالنطق ، فدلنا بذلك أن اللغة لها دخل في هذه المسألة، وقد علمنا أن الواضع للغة في الراجح هو الله سبحانه وتعالى، وعلى ذلك فإن لها عمق إلهي رباني في دلالتها على الألفاظ، وأيضا بها هداية يهتدي بها الإنسان إلى الحقيقة، ثم إلى الحق، والحقيقة تكون نسبية لكن الحق مطلق.

وقف الإمام الغزالي عند العقل، وألف فيه "معيار العلم"، وكتابه الماتع في الأصول "المستصفى" وقد جعل مقدمته في علم المنطق، والمنطق لدى المسلمين ليس هو عين منطق أرسطو لكنه استفاد منه كثيرًا، فقد كان منطق أرسطو يتكون من تسعة أجزاء: التصور والتصديق والشعر والجدل والقياس الاستثنائي بأشكاله الأربعة...إلخ، وعندما ترجمه العرب قسموه قسمين فقط هما: التصور والتصديق، ثم أضافوا له قسم آخر وهو دلالات الألفاظ، ثم أضافوا إليه الموجهات، ومن هنا جاءت تسمية كلمة "منطق"، وبذلك أصبح المنطق العربي مستفيدًا مما ذكره أرسطو في عدة قضايا، إلا أنه ليس هو نفسه.

فالمنطق هو: آلة قانونية يعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ، مثلما يعصم النحو اللسان عن الخطأ:

---

(1) الأرجانون: تجمع كلِّ مؤلفات أرسطو في المنطق تحت اسم" الأورجانون ."وتعني كلمة "أورجانون" الأداة، لأنَّ تلك المؤلفات كانت تبحث عن موضوع الفكر، الذي هو الأداة أو الوسيلة للمعرفة. كان أرسطو أول فيلسوف قام بتحليل العملية التي بموجبها يمكن منطقيّا استنتاج أنَّ أي قضية من الممكن أن تكون صحيحة استنادًا إلى صحة قضايا أخرى، فقد كان اعتقاده أنَّ عملية الاستدلال المنطقي هذه تقوم على أساس شكل من أشكال البرهان سماه القياس.

وَبَعْدُ فَالمَنْطِقُ لِلْجَنَانِ *** نِسْبَتُهُ كَالنَّحْوِ لِلِّسَانِ[1]

تحدث المسلمون عن التصور والتصديق وعن القياس الاقتراني وأشكاله وهما مما تحدث عنه أرسطو إلا أن أرسطو بيَّن أن للقياس أشكالا أربعة، فاختار منها المسلمون الشكل الأول وتعمقوا فيه، وتركوا الأشكال الأخرى، فيذكرون الأشكال الأربعة في بحوثهم من باب الفائدة، ولكنهم اعتمدوا الأول فقط؛ لأنه يؤدي إلى اليقين، ولا خلاف عليه بين العقلاء، ثم أضافوا بعد ذلك مبحث القياس الاستثنائي وهو من إبداعهم، فلم يسبقهم به أرسطو.

إذن فالمسلمون يأخذون الشيء ولا يقفون عنده بل يطورونه طبقا لقواعد منضبطة ومحكومة.

وقد وقف الإمام الغزالي عند العقل موقفًا كبيرًا جدا، فألف "القسطاس المستقيم"، و"معيار العلم"، و"المنقذ من الضلال"، و"الاقتصاد في الاعتقاد"... إلخ، إلا أنه لم يقصر المسألة على العقل فقط، بل أضاف ما يبين أن هناك وسيلة أخري للإدراك وهي القلب، فألف "مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب" وجعل إدراكات القلب بالبصيرة، فكما أنَّ إدراك العقل عن طريق البصر والحواس السليمة وترتيب الأدلة، كذلك القلب له إدراكات بالبصيرة، فهناك الإلهامات والتلقيات والواردات؛ أي: هناك عالم آخر يستطيع المؤمن أن يصل إليه بقوة إيمانه وقلبه .

والبصيرة هي : قوة القلب المنور بنور القدس يرى بها حقائق الأشياء[2].

(1) متن السلم المنورق في علم المنطق للفقيه الإمام الأخضري.

(2) جامع العلوم في اصطلاحات الفنون 1/169.

ومن حصلها صدق عليها قول الله تعالى : ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ (1)، وفي الآية معنى لطيف وهو: " إِيثَارُ كَلِمَةِ شَرَحَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى قَبُولِ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّ تَعَالِيمَ الْإِسْلَامِ وَأَخْلَاقَهُ وَآدَابَهُ تُكْسِبُ الْمُسْلِمَ فَرَحًا بِحَالِهِ وَمَسَرَّةً بِرِضَى رَبِّهِ وَاسْتِخْفَافًا لِلْمَصَائِبِ وَالْكَوَارِثِ لِجَزْمِهِ بِأَنَّهُ عَلَى حَقٍّ فِي أَمْرِهِ وَأَنَّهُ مُثَابٌ عَلَى ضُرِّهِ وَأَنَّهُ رَاجٍ رَحْمَةَ رَبِّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلِعَدَمِ مُخَالَطَةِ الشَّكِّ وَالْحَيْرَةِ ضَمِيرَهُ.

فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ أَوَّلُ مَا يُؤْمِنُ بِأَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ وَأَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولُهُ يَنْشَرِحُ صَدْرُهُ بِأَنَّهُ ارْتَفَعَ دَرَجَاتٍ عَنِ الْحَالَةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا.

فالإيمان حينما يقر في القلب مع تمام المحبة لله ورسوله، فيحدث انشراح للصدر، وها هنا يورث البصيرة، فَيَنْطِقُ الْحِكْمَةَ وَيَتَّسِمُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَأَصَالَةِ الرَّأْيِ وَمَحَبَّةِ فِعْلِ الْخَيْرِ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا لِلرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ، وَلَا يَنْطَوِي بَاطِنُهُ عَلَى غِلٍّ وَلَا حَسَدٍ وَلَا كَرَاهِيَةٍ" .(2)

وهناك وسيلة أخرى قطعية، لكنها خاصة وانقطعت، وهي وسيلة الوحي، فالوحي عندنا من الوسائل الراقية لإدراك الحقائق، وإن أنكره بعض العقول الغربية؛ إلا أنه حقيقة واقعة.

وخلاصة ذلك أن هناك وسائل عدة للمعرفة، منها الوحي والعقل والقلب، والتجربة ، والعادة والتواتر.

ونتسائل هل يمكن إخضاع كل ما جاء به الشرع على العقل، ومن ثَم له أن يرفض منه أو

---

(1) سورة الزمر، الآية :22.

(2) انظر: التحرير والتنوير 380/23.

يقبل؟

يصح للعقل تناول ما كان من نصوص الشرع ظنيا في دلالته أو ثبوته، ولكن ما كان قطعيا فإن الإيمان والذي توصل إليه أولا بالعقل يمنع من تحكيم العقل في تلك العقائد.

أخرج مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالي عنه أنه قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ»، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»(1)

هذا الحديث يبين درجات العلاقة بين البشر وبين الله عز وجل، ويقسم الناس إلى عوام،

(1) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، وأحمد في مسنده، وابن ماجه والترمذي وأبو داود في سننهم.

وخواص، وخواص الخواص، حسب تحقيقهم لدرجة الإسلام أم الإيمان أم الإحسان، وعند إدراج مسائل الدين وفروعه تحت هذه الأقسام الثلاثة، نجد أن العلماء قد أدرجوا تحت الإسلام مسائل الشريعة من عبادات ومعاملات وقضايا وشهادات... إلخ، وعند حصر مسائله نجدها 120.000 مسألة، وكل هذه المسائل أعملوا العقل فيها لكن بترتيب عقلي سليم.

أما مرتبة الإيمان، فقد بحث علماء المسلمين فيها، فتأمَّلوا آيات القرآن الكريم والسنة النبوية كلها؛ لينظروا ما المسائل التي يمكن إخضاعها للعقل، ومن ثم أنشأوا علم العقيدة أو ما يعرف بـ" أصول الدين"، وتوصلوا إلى أن الإيمان ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الإلهيات والنبوات والسمعيات. فأما الإلهيات: فتتناول ما يجب وما يجوز وما يستحيل في حق الله تعالى، وأما النبوات: فتتناول ما يجب وما يجوز وما يستحيل في حق الأنبياء. وأما السمعيات: فهي ما أتى إلينا عن طريق السمع كالجنة والنار والعرش ويوم القيامة والحساب والصراط... إلخ، وهي الأمور التي لا إعمال للعقل فيها، ولا نعلمها إلا بطريق السمع.

وأما القسم الثالث وهو مقام الإحسان، فقد أدخلوا تحته ما اسموه بعلم التصوف بقسميه التخلية والتحلية، وعند حصر مسائله نجد أن التخلية من الصفات القبيحة شملت 25 صفة مذمومة من كبر وحقد وحسد وكراهية ... إلخ، والتحلية بالصفات الحسنة نقيضهم من توبة ورضا وحب وتسليم وتوكل... إلخ، ووصلوا في حصرهم إلي ما لا يزيد عن 2000 مسألة، ووصلوا إلى أن الأخلاق متصلة بالإيمان، قال صلى الله عليه وسلم: "مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ

شَبْعَانَ وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ ".[1]

فأصبح لدينا 3500 مسألة أخلاق وعقيدة، وهما اللذان يمثلان من القرآن الكريم والسنة والنبوية نسبة 97٪، بينما يمثل قسم الإسلام بما أدرج تحته من مسائل العبادات والمعاملات نسبة 3٪ من آيات القرآن الكريم، فالطريق منقطع بالإنسان للوصول إلى محبة الله ورضاه إذا أهمل الجانب الأكبر من دينه وهو المتعلق بحسن الخلق وأعمال القلوب.

ولكن هل يتوصل الإنسان للحقائق بالعقل أكثر من القلب؟ إن وصول الإنسان للحقائق يكون حسب درجة الإنسان وحالته ودربته، فمن الناس من يثق في العقل ودرب عقله على ذلك بحيث أصبح يطمئن له، ومنهم من تعود على تدريب القلب بحيث إنه يطمئن إليه، فهي مواهب ربانية ومنح صمدانية وكلاهما على صواب؛ ولذلك لا مانع أن يثق الإنسان في أيهما شاء.

وقضية القلب ودوره في المعرفة قد شغلت الإمام الغزالي[2] في عزلته الشهيرة، وفي آخرة تبين له بعد نظر وتأمل أنَّ الإنسان خلق فيه قلب وعقل وسلوك، وأن القلب يعلو العقل، والعقل يعلو السلوك، وسُمِّي العقل عقلا لأنه يعقل؛ أي: يمنع ويربط، فهو ضابط للإنسان من السلوك الضال أو المؤذي أو المهلك، سواء في الدنيا أو الآخرة.

وألف في ذلك كتابًا لطيفا اسمه "مكاشفة القلوب" ذكر فيه أن سلامة الحواس لازمة

(1) أخرجه الطبراني والبزار بإسنادٍ حسن.

(2) أبو حامد محمد الغزّالي الطوسي النيسابوري الصوفي الشافعي الأشعري، أحد أعلام عصره وأحد أشهر علماء المسلمين في القرن الخامس الهجري (450هـ-ت 505هـ).

لعمل العقل وكذلك يحتاج القلب إلى بصيرة يرى من خلالها الأشياء كما ترى العين بنور البصر، وتوجد بين الروح الإنسانية والنفس المدركة ارتباط وثيق، فكلما صفيت الروح وارتقت النفس في منازل الكمال كلما اتضحت وزادت بصيرة القلب ورؤيته للأشياء.

وبين الإمام الغزالي أنَّ القلب هو موضع الهداية قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾(1) وأنَّ سبب ضلال العقل أو هدايته سلامة القلب، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(2) فإن سلم القلب سلم العقل، ثم تكلم الإمام عن كيفية الوصول إلى سلامة القلب .

ويلخص أهل الله الإجابة على هذا بثلاثة كلمات، منهم كلمتان في غاية الأهمية ، وهما اللذان نسعى إليهما وهما "التخلية والتحلية". فلكي نصل بالقلب إلى السلامة لا بد من اجتيازه مرحلتين:

المرحلة الأولى هي مرحلة التخلية: وهي إزالة كل قبيح.

المرحلة الثانية وهي التحلية: وهي التحلي بكل جميل وصحيح.

فبضدها تتميز الأشياء، فنخليه من القبيح فيحلى بالصحيح، فإذا حدث التخلّي والتحلّي يحدث التجلّي، وهذا هو المرحلة الثالثة.

فهما ثلاثة مراحل: تخلّي ثم تحلّي ثم تجلّي. ولمعرفة معني هذا الكلام ألف الإمام الغزالي كتاب كبير اسمه " إحياء علوم الدين" وقسمه أربعة أرباع:

---

(1) سورة القصص، آية: 56.

(2) سورة الشعراء، آية: 89.

- الربع الأول : العبادات
- الربع الثاني: المعاملات
- الربع الثالث: الصفات الذميمة، التي نريد أن نخليها .
- والربع الرابع: الصفات الجميلة التي نريد أن نتحلى بها.

أي أنه تكلم عن التخلية والتحلية في نصف الكتاب، وعن العبادات والمعاملات في النصف الآخر منه.

وعندما نرجع لنصوص الوحيين الشريفين لننظر أين هذا الكلام في المحجة البيضاء التي تركنا عليها صلى الله عليه وآله وسلم كما قال: "قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ "(1)

نجد أن السُنة المشرفة تحوي 60 ألف حديث، منهم 2000 حديث فقط اشتملوا على أحكام الشريعة بكل ما فيها من أولها لآخرها من صلاة وحج وزكاة وأحكام معاملات بيع وشراء وهبة وزواج وطلاق وقضاء.... إلخ، وباقي الأحاديث في التحلي بالأخلاق الحميدة، فقد نهانا عن الحقد والحسد والغل والكبر، وأمرنا بالرحمة وبالحب والتسامح وهكذا... إلخ .

وكذلك القرآن الكريم نجد فيه ما يقارب 300 آية في أحكام الشريعة و6000 آية في الأخلاق والقيم النبيلة، مما يعني أن 3٪ من نصوص القرآن السنة يتحدثون على التشريع، و97٪ يتحدثون عن الأخلاق.

فإذن نحن أمام نظام أخلاقي متكامل، قال صلى الله عليه وسلم «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمِ

(1) أخرجه الإمام أحمد في مسنده 28/367/ح17142 ، وابن ماجه في سننه 1/16/ح43.

الْأَخْلَاقِ»[1] ولذا لم يمتدح الله عزوجل نبيه صلى لله عليه وسلم بتميّزه في خلق عن خلق بل امتدحه باشتماله على جميع الأخلاق الكريمة قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2]

مما يفهم منه أنه إذا اجتمعت الأخلاق الحميدة والعقيدة الصحيحة كان في ذلك صلاح القلب الذي به يصلح العقل؛ قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [3] فالفقه هو: الفهم والإدراك الواعي، والقلوب عندما تكون سليمة توجه العقل التوجه السليم الذي به وبموجب سلامة الحواس وسلامة الدماغ والمعلومات السابقة والواقع المحيط، يستطيع الإنسان أن يأخذ القرار السليم، ويسلك السلوك القويم الذي يندرج تحت العقل الذي هو تحت القلب. فيكون تسلسل ذلك:

قلب سليم، فعقل سليم، فسلوك قويم.

ويمكن أن نسوغها في معادلة رياضية فنقول : السلوك القويم = القلب السليم+ العقل السليم.

وقد أجاد الإمام الغزالي في حديثه عن طرق التحلية والتخلية للوصول إلى سلامة القلب، ثم تبعه في ذلك آخرون ألَّفوا العديد من الكتب في الحديث عن التخلي والتحلي وصولًا إلى التجلي، الذي هو استقرار الإيمان في القلب واطمئنانه به بلا أدنى شك قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ

(1) أخرجه أحمد في مسنده 14/513/ح 8952.

(2) سورة القلم، آية: 4.

(3) سورة الأعراف، آية: 179.

أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾(1).

ومن الشروط التي تحدث عنها أهل السنة والجماعة في مساءلة الإنسان عن اختياره بين الإيمان والكفر؛ أن يكون الدين قد وصل للشخص بصورة لافتة للنظر، أي بصورة سليمة صحيحة، فمن نشأ في معزل عن المدنية والحضارة ولم يسمع عن الإسلام ونبيه وكتابه شيئا، فحكمه كحكم أهل الفترة، وكذلك من وصله عن دين الإسلام قليل من المعرفة وشوهت صورة الإسلام المنقولة له فهو مسئول بقدر ما قصر في البحث والتفتيش عن الحقيقة، أما إن عجز فأمره موكول لله عز وجل.

ولذلك فنحن نحمل المسئولية لكل مسلم نيط به تبليغ الدين الإسلامي والدعوة إليه أو تمثيله في العالمين فقصر في نقله وبيانه للناس، أو نقله بصورة معاكسة لما جاء به من تحضر وسلام، فالجماعات التي نشرت أتباعها في البلدان تثير الذعر والخوف والإرهاب بين الخلق بالقتل والتدمير وإهانة المرأة والعنصرية والتمييز ضد الخلق، كل أولئك المتطرفين مسئولون أمام الله عن تشويه صورة الدين وصد الخلق عن الدخول فيه واتباعه.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾(2)

أمَّا المعاند المكابر الذي وصله الإسلام بصورة لافتة للنظر، وأقيمت عليه الحجة، ولكنه أبى واستكبر، فهذا الذي يؤاخذه الله بعدم إيمانه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾(3)

---

(1) سورة النحل، آية: 106.

(2)سورة الإسراء، الآية: 15.

(3) سورة آل عمران، الآية: 19.

فالأمر لدى أهل السنة والجماعة واضح منذ البداية، وليس جديدا ولا مستحدثا.

أما بالنسبة لعلاقة القلب والعقل في كيفية إدراك المحسوسات والمعقولات، فالواقع أن العقل والقلب يتشاركان في إدراك الأمور الغيبية، وقد سبق وبيّنا أن العقل يعمل الأدلة الظاهرة ويرتبها، وهو ما يسمى عملية الفكر وهي: حركة النفس في المعقولات، فالنفس لها حركة، وهذه الحركة لها بداية ولها نهاية، وهذا هو دور العقل: أن يأخذ الشيء من بدايته حتى يصل إلى نهايته، كما يقولون: من المبادئ إلى المطالب؛ أي: من بداية الطريق حتى نهايته.

فالعقل يصل إلى المجهول؛ أي: الشيء الذي لم يكن يعرفه من قبل، وهو حقيقة، وقد توصل فيثاغورث [1] إلى الإيمان بالله من خلال هذا، فبعدما وصل بعقله إلى نتيجة لم تكن معلومة له من قبل، وهي: " أنَّ مربع طول الوتر في المثلث قائم الزاوية يساوي مجموع مربعي طولي الضلعين المحاذيين للزاوية القائمة".

ووجد أنها تطابقت مع الواقع أيقن أنَّ هناك إلها خارجا عن العقل، وخارجا عن الكون، إذ جعل هذا العقل، الذي هو كتاب الله المقدور والذي خُلق بهذه الكيفية، يتطابق مع هذا الكون، الذي هو كتاب الله المنظور، ولم تمر عليه هذه النتيجة بصورة عابرة، بل تنبه لها وصدّرها إلى القلب، فانكشف عنه الحجاب، فرأى بنور البصيرة، فآمن بوجود إله للكون.

---

(1) فيثاغورس (570 - 495 ق.م) وهو فيلسوف وعالم رياضيات يوناني، يُعرف بمعادلته الشهيرة "نظرية فيثاغورس".

مصادر العلم والمعرفة عند المسلمين

وهي المصادر المعرفية التي استقى منها المسلمون على مدار التاريخ علومهم وأسسوا عليها حضاراتهم .

أولها القراءة :

وأصلها يتمثل في قوله تعالى ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ [العلق :1]

والقراءة تكون في الكون المنظور من حولنا فهو أول مصادر المعرفة ، ونص القرآن على هذا الأمر "النظر والقراءة" في كثير من آياته، جعلت النظر فرضا واجبا على المسلم حتى يدرك عظمة خالقه خالق الكون، أمر بتأمل السماء والنجوم والكواكب ، والأرض وما فيها من جبال وأنهار وبحار ، وأمر بتأمل أحوال الإنسان على مدار التاريخ والنظر إلى ما أصابه من سنن إلهية .

قال تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [سورة فصلت آية: 53]

فالوجود مصدر من مصادر المعرفة .

والقراءة تكون بالدراسة والوعي لما أنزل الله سبحانه وتعالى من شريعة ووحي .

أشار تعالى إلى هذه القراءة بقوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق آية:3]، فهي تمثل قراءة الوحي ، فالوحي من مصادر المعرفة .

والوحي نجده يكلمنا عن عالم الشهادة فيأمرنا وينهانا بتكاليف مقصودها صلاح حياة الإنسان في هذه الدنيا .

قال تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: 61] أي طلب منكم عمارتها .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [سورة البقرة آية: 30-32]

وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات آية: 56]

فالإنسان مستخلَف ، مأمور بعمارة الأرض ، وعبادة الخالق وشكره .

ومصادر المعرفة عنده قراءتان: الأولى قراءة الوحي، والثانية قراءة الواقع المعيش الذي حوله ، والوحي والكون في عقيدة المسلم مردهما لله تعالى سبحانه (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) [الأعراف : 54]

وقراءة الكون وقراءة الوحي يقترنان سويا لا انفصال بينهما ، ففي سورة الرحمن نجد الله سبحانه قدم الوحي على الكون قال : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ ﴾ [الرحمن: 1-3]

وفي سورة العلق قدم الكون على الوحي قال : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

ولذلك فلا بد أن نتبع في تحصيل المعرفة سواء من الوجود أو الوحي منهجًا منضبطًا يقرنهما معا ، أما الاعتماد على الكون دون الوحي أو الاعتماد على الوحي منفصلا عن الكون والوجود فإنه يؤدي إلى إدراك ناقص وعلم سطحي ومعرفة جزئية.

وكذلك فالاعتماد على الحس وحده في تحصيل المعرفة يوقع في كثير من الضلال عن حقيقة الأشياء ، فالرؤية بمجرد العين أو باستخدام التلسكوبات المتطورة مثلا تحقق النجوم في السماء بمواقع معينة ، ولكن مع تطور المعرفة ثبت أن هذه النجوم هجرت هذه المواقع

التي نراها فيها منذ مئات السنين ، وربما تكون هذه النجوم تلاشت واندثرت في الكون ، وما نراه هو مجرد صورة لها خلفتها منذ سنين .

إذا فالمعرفة لها ثلاث نواح :

ناحية سطحية.

ناحية عميقة.

ناحية إيمانية .

فالناحية الأولى السطحية تتعلق بالظاهر .

والناحية الثانية العميقة تتعلق بالحقيقة .

ويمكن أن نطلق على الأولى الواقع وعلى الثانية نفس الأمر ، ويُمكن أن نُعرِّف الواقع بأنه "هو ما أدركه الإنسان بحسِّه المعتاد"، وهو بهذا التعريف يكون هو المشترك بين آدم والرجل المعاصر . ويمكن أن نعرف نفس الأمر بأنه "المتعلق بحقائق الأشياء ويختلف إدراك الإنسان له عبر الزمان وحسب كمِّ المعلومات التي لديه" ، ويكتشفه الإنسان عن طريق الآلة كالمجهر شيئًا فشيئًا .

فنفس الأمر وحقيقته أن الماء مكون من غاز يشتعل هو الهيدروجين وآخر يساعد على الاشتعال هو الأكسجين، فهو نار موقدة، وذرة الأكسجين أو الهيدروجين تتكون من "نواة" موجبة و"إلكترونات" سالبة .

أما الواقع أن الماء شراب لطيف تعتمد عليه حياة الإنسان . وكل يوم – وليس بصورة عامة في الزمان، والمكان، والأشخاص – يدرك الإنسان حقيقة جديدة قد تخالف أو تضاد أو تزيد على ما كان واقعا .

فإذا كان الأمر كذلك فإن النصوص الشرعية ينبغي أن تتعلق في خطابها العام للكافة

بالواقع بصورة أصلية ولا تتعلق بنفس الأمر إلا بصورة ثانوية .

وأظن أن هذا الفهم يحل "مشكلة العلم والدين"، التي نشأت من صدام النصوص الدينية المحَرَّفة مع الحقائق المتتالية المدركة بالتجربة والحس.

بل قد يحل هذا المدخل . عند عرضه بتوسع . المشكلة بين الفقهاء والصوفية الذين يتكلمون عن الحقيقة والشريعة ، ويوفق بينهما، وهو أمر جدير بالتأمل وبمزيد من البحث.

الناحية الثالثة ناحية إيمانية : ومعناها أننا عندما نعلم حقائق الكون نقول : "سبحان الله". ونربط هذه الحقائق بوجود الله عز وجل الخالق ، ومن هنا فإننا نصل إلى الفكر المستنير؛ لأنه ربط هذه الحقائق المحسوسة التي يشترك فيها كل البشر بالحقائق العليا التي قد يختلفون فيها ، فبعضهم ينكر الإله ، وبعضهم يؤمن بوجوده ، ولكن إذا ما وصلنا إلى حالة الفكر المستنير ربطنا هذه الحقائق بما فوقها ، فالعلم في التراث الإسلامي هو ما يُوَصِّلُ إلى الله.

إن التراث الإسلامي يؤيد العقلية العلمية وينبذ العقلية الخرافية ، ولكن العوائد والأعراف التي توارثناها أتت بكثير من الخرافة .

***

العقلية العلمية والعقلية الخرافية

إن الشريعة الإسلامية هي الرسالة الخاتمة والمنهاج المهيمن على ما عداه من الشرائع السماوية السابقة أو المناهج الوضعية الإنسانية على مستوى المكان والزمان ، وهي الشريعة التي ارتضاها واصطفاها رب العالمين كي تكون رسالة نبيه ومصطفاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهي فقط الشريعة القادرة بأحكامها الحكيمة العادلة أن تمكن كل إنسان يلتزم بما جاء فيها من مثل عليا وأخلاق فاضلة وعقائد صافية واضحة أن يكون نموذجا ومثلا للخليفة الذي أراده الله في الأرض ، خليفة يعمر ولا يهدم يصلح ولا يفسد .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الإنسان الكامل الذي ظهرت فيه كل معاني الصلاح والجمال والخير والعدل والرحمة كما أرادها رب العالمين سبحانه وتبعا والتزاما منه بالوحي الذي أنزل إليه والرسالة التي أمر بتبليغها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة للعالمين في كل زمان ومكان ، قدوة في عقلانية تفكيره ، وقدوة في التزامه بالمنهج القويم في التربية والحكم والسياسة والقضاء والجهاد وغير ذلك ، وكذلك استطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤسس المجتمع الإنساني النموذج الذي وجهته شريعة السماء إلى أقوم سبيل في التكافل والتعاون والسلام ، مجتمع اتفق أفراده على أسس في التفكير وأصول في الاجتهاد راسخة يمكننا إن استخلصناها أن نعرف كيف تكون العقلية الإسلامية .

ولقد كان القرآن الكريم هو الأصل الأول والعنصر الأهم في تشكيل هذه العقلية الإسلامية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من ارتسمت في أخلاقه وحياته مبادئ القرآن ومقاصده ، فقد سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خُلُقِ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : كان خُلُقُه القُرآن .

تعني أنَّه كان تأدَّب بآدابه ، وتخلَّق بأخلاقه ، فما مدحه القرآن كان فيه رضاه ، وما ذمه

القرآنُ كان فيه سخطه . وجاء في رواية عنها قالت : كان خُلُقُه القُرآن يَرضى لِرضاه ويَسخَطُ لسخطه .[1]

وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بدوره الكامل كمبلغ لآيات الله ومبين ومفسر لما استغلق فهمه وتأويله على أصحابه ، وتماما لكمال التربية العقلية سرد عليهم جوامع كلمه بما أوتي من الحكمة ، ثم قام صلى الله عليه وسلم بدور التزكية للنفوس وتطهيرها من الهوى ، حتى صار لكل من أصحابه سلطانا داخليا على شهواته ونوازعه وغدت أرواحهم صافية قوية.

قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة : 2]

وتقلب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بين يديه في مقامات وأحوال ترقوا فيها بين التوحيد والتجريد والتسليم والإخلاص . حتى وصلوا إلى درجة من الإيمان بالغيب والعقلانية في التفكير والالتزام والاستقامة في السلوك وفهموا دورهم في الوجود وغايته وحكمته ما أداهم إلى القيام به خير قيام فكانوا في سرهم وعلانيتهم على تمام العبودية لله وكانوا بين الناس على تمام الإحسان في قيامهم بدور التعمير والاستخلاف في الكون .

واستطاع المجتمع الإسلامي في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتحمل الأمانة الإلهية في الكون خير تحمل ؛ لأن أفراده تسلحوا بعقول أدركت قيمة المسئولية والاختيار ، وأحسنت التصرف في كون الله بالعمل والتدبير بمنهج احترم سنن الخالق في كونه ، فلم

---

1 - جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي الحديث السادس عشر. والحديث رواه أحمد رقم (26564) .

يضادها أو يتغافل عن مقتضياتها .

وأهم ما يميز العقل الإسلامي أو المنهج الإسلامي في التفكير هو السعة والمرونة بمعنى أن العقل الإسلامي استوعب نوعي الإيمان الإيمان بالغيب الممكن الذي دل عليه الدليل ، ودليل الغيب هو إخبار الصادق الذي دل على صدقه بالمعجزات الحسية والعقلية ، ومثل هذا النوع من الإيمان بالغيب يقطع الطريق أمام الخرافة والأباطيل التي حتما سيقع فيها عقل من استنكف عن الإخبار الصادق .

والإيمان بالشهادة الذي جعل عقل المسلم يحترم الكون ويقدر سنن الخالق فيه فيعمل ويجتهد لأجل عمارته والمحافظة عليه .

فالعقل المسلم إذن ليست عنده مشكلة في أن يجمع بين الإيمان بالبعث والآخرة والحساب وكلها أمور لو أمعنا النظر إليها لعلمنا أن تحفظ على الإنسان حياته الدنيا وتدعم عمله وإنتاجه فيها وتبعث على راحته وسكونه ورضاه بما يحصله من الدنيا ، وليس إيمان المسلم بالآخرة مطلقا دافعا له أن يتخاذل عن العمل أو يتقاعد عن مناصرة المظلوم ومجاهدة الظالم بل على العكس من ذلك .

وعقل المسلم استوعب المادة والروح وجمع بينهما بتوافق وميزان ألهمه به الرحمن .

قال تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: 1-5]

وأهم ما يميز العقل المسلم التمييز والتفرقة بين أمور ثوابت عقيدته وأخلاقه والتي لا تقبل المساومة أو التفاوض ومتغيرات الزمان والمكان والتي أتاح له الشرع من المرونة والتيسير من يمكنه دائما من اتباع مصلحته وسعادته .

والعقل المسلم عقل مثمر ومنتج لا يقف عند حد الاتباع والتقليد ، ولقد تربى على ذلك

فعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « لاَ تَكُونُوا إِمَّعَةً تَقُولُونَ : إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا ، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا . وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلاَ تَظْلِمُوا» . [1]

ولذلك نرى الفكر الإسلامي استوعب كل ما ورثه من الفكر الإنساني في حضارات الإمم السابقة سواء اليونانية أو المصرية أو الهندية واستفاد من كل صحيح وجده وزاد عليه وطوره وأحدث من الإبداع بعده ما أكسب الفكر الإسلامي تميزه ، وكانت لدى العقلية الإسلامية في كل زمان ومكان أصالة ومعايير استطاع من خلالها أن يطوع الفكر في خدمة الإنسان وتعمير الكون ولهذا أقام حضارة إنسانية إيمانية لم يعهدها تاريخ البشر من قبل.

استوعب العقل المسلم الحضارات الإنسانية من قبله وحفظ تراث النبيين والصديقين والحكماء والعلماء والفنانين والأدباء ، وجمع كل ذلك في معين متين ، ثم نقاه وصفاه ، وأعاد بناءه بعد أن أسبغ عليه أصالة وبهاء متفقا مع عقيدته ومنهجه وطريقته ، ثم ضمه إلى نسقه المفتوح وقدمه إلى الناس ليستفيدوا به مصفى بالهداية والرشاد ، فكان العقل المسلم حلقة الوصل بين الماضي والحاضر وبين السابق واللاحق فحق له أن تعترف الأمم بفضله وتقدره قدره .

فالحضارة الإسلامية بمقوماتها وخصائصها ونظمها ومجالاتها وعلومها وآدابها وفنونها وصنائعها ورُؤَاها وأفكارها وتراثها وتاريخها ورجالها وأبطالها وقادتها وعلمائها واكتشافاتها العلمية والأدبية والفنية وقيمها ومبادئها التي تجلت في نظم الاجتماع والثقافة والسياسة

---

1 – رواه الترمذي (كتاب البر والصلة. باب مَا جَاءَ فِى الإِحْسَانِ وَالْعَفْوِ) رقم (2138) .

والاقتصاد وإشراقاتها وفتوحاتها ؛ وليدة هذه العقل المسلم إبان صحوته وحيويته وعطائه .

ولكن وللأسف الشديد فإن العقل المسلم فرط في أصوله ورغب عنها فأصابه جزاء ذلك الخمول والنقصان وأصبح إمعة يعتمد على غيره يفكر له ويقبل ما يلقى إليه غير مدرك لمحاسنه أو مساوئه ، وبذلك أفسح المجال لغيره كي يحمل المسئولية والأمانة التي تخلى عنها وانزوى هو إلى ظلمات التاريخ والحياة يرضى بفتات العيش وبعض الكرامة المتوهمة والحرية المنقوصة غريبًا عن أصله منبتا عن حضارته ودينه .

والتساؤل الآن : هل لنا من عودة، وهل لعقولنا نحن المسملين أن تهجر التعصب والخرافة وأن تهجر التبعية والخمول، وأن تنهض لتمسك بزمام القيادة أو تشارك فيه كي تستطيع أن تحدد مصيرها ووجودها وتعيد إلى ذاتها ودينها وحضارتها الاحترام والتقدير وترفع ما أصابها من الهوان والتكبيل .

إن المسلم اليوم يعاني فوضى فكرية تُعيي الحكيم وتحير الحليم ، وقد أصابت هذه الفوضى أهم الأمور التي تتصرف بحياة الإنسان كالدين والهوية والعلم والمصلحة .

والسبب الرئيس في هذه الفوضى هو بعد عقل المسلم عن العلم والتفكير المنهجي ونزوعه إلى تحكيم الهوى واعتناق الخرافة وجعلها إطارا مسيطرا على أفعاله وسلوكياته وهذا على الرغم من أن شريعة الإسلام التي ينتسب إليها المسلم جاءت حاضة على العلم آمرة بتحصيل المعرفة بكل سبيل فأول ما نزل فيها من وحي أمر بالقراءة .

قال تعالى : ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ (٢) ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ (٣) ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ (٤) عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ (٥)﴾[العلق: 1-5]

وأقسم تعالى بالقلم والكتابة إعلاما بأهميتها في نقل العلم والمعرفة على مستوى المكان والزمان قال تعالى : ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ (١)﴾[القلم:1]

ولم يسو تعالى بين العالمين والجاهلين حيث قال : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩﴾[سورة الزمر: 9]

ولقد وردت كلمة العلم ومشتقاتها في القرآن على اختلاف مدلولاتها نحو أربعمائة مرة ، وكلمة الكتابة ومشتقاتها نحو ثلاثمائة مرة ، وكلمة القراءة ومشتقاتها خمسين مرة ، نسبت إلى الله وإلى الرسل وإلى الناس، كما أن جذور الفقه والفكر والتدبر والتذكر والعقل تكررت كثيرا ، وفي هذا دلالة على تقدير هذه الرسالة إلى العلم وأهله.

وأمر تعالى باتباع العلم والسير على صراطه .

قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام مخاطبا أباه : ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝٤٣﴾[مريم:43]

ولما خلق الله تعالى آدم شرفه بالعلم وحصنه به ولم يزوده بسواه حينما أخرجه من الجنة وأنزله إلى الأرض.

قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١﴾[البقرة:31]

والملائكة حيث جبلت على اتباع المنهج العلمي حينما أثبت لها سبحانه مقدرة آدم مخلوقه المكرم على تحصيل العلم وإعادة تكوينه أقرت واعترفت لله تعالى بمطلقية العلم والإحاطة بالحكمة ونزهته سبحانه.

قال تعالى : ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٢﴾ [البقرة:32]

وموسى عليه السلام عندما علم بعبد من عباد الله أوتي العلم اللدني ارتضى أن يكون

تابعا له حتى يتعلم من علمه . قال تعالى على لسان موسى قائلا لصاحب العلم : ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾[الكهف:66]

ومن هنا تأسست في الكيان المسلم عقلية قوامها العلم بمصادره ومناهجه ؛ وهذه العقلية العلمية تعتمد على التجربة الصحيحة وعلى الخبر الموثق الذي يأتي به الصادق، وترفض الكذب والزور ، وتحارب تأسيس المعتقد على الأسطورة أو الخرافة، وتعتبر أعظم الظلم الافتراء على الله والقول عليه بغير علم .

وهكذا فرق الإسلام بفرقان مبين بين عقلية العلم والصدق والدليل وعقلية الخرافة والزور، وعلى هذا سارت أُمَّتُنا في عصورها الزاهرة حتى تخلت عن العلم وآثرت عليه الجهل ووقعت في التنازع والشقاق ، وبغت على العلم حيث نحته عن حياتها وظلمت أهله حيث قلصت دورهم الإصلاحي ووضعت أمامهم العراقيل التي قوضت قواهم .

سوف نحاول أن نلقي الضوء على مفهوم العقلية العلمية والعقلية الخرافية ومعالم كل منهما بما يفرق بينهما ويساعد على تجنب عثرات التفكير بالطريقة الخرافية والمضي قدمًا نحو عقليةٍ سليمةٍ علميةٍ صادقةٍ .

العقلية العلمية

كلمة (علمية) في اللغة العربية هي مصدر صناعي، وتعني - حتى نفهم الفكر بصورة دقيقة من خلال لغتنا - كون الشيء منسوبا إلى كذا، وهذا هو معنى المصدر الصناعي فمثلا كلمة زراعية تعني كون الشيء منسوبًا إلى الزراعة، وصناعية تعني كون الشيء منسوبًا إلى الصناعة، وكذلك كلمة علمية تعني كون الشيء منسوبا إلى العلم، وعلى ذلك فلا بد أيضًا ونحن نحاول بقدر المستطاع أن تكون أفكارنا أصيلة، ومنطلقة من لغتنا، ومن واقعنا، وتمتد إلى استخلاص مناهج السلف الصالح من تراثنا، في محاولة للبناء والاستمرار بها في عصرنا المعيش المحيط بنا في هذا العالم فإن العِلْم عندهم هو: "الإدراك الجازم الثابت المطابق للواقع الناشئ عن دليل"

وإذا ما تأملنا هذا المعنى للعلم نجد أنه لا يتعارض مع لفظة (**Science**) بل هو أوسع وأشمل، فال(**Science**) هو العلم التجريبي، والعلم التجريبي أحد أنواع العلوم التي يطلق عليها مسمى العلم.

والعلم في حقيقته وموضوعه يتكلم عن مسائل، وهذه المسائل يسمونها الحكم؛ لأننا نحكم بالخبر على المبتدأ أو نحكم بالفعلية على الفاعل، وهذه المسائل إما أن يكون مردّها إلى الحس، وإما إن يكون مردّها إلى العادة والتكرار، وإما أن يكون مردّها إلى النقل، وإما أن يكون مردّها إلى الشرع .

ويحدث التضارب في العقل عند خلطه بين الأمور الأربعة فمثلا: الحكم العادي يقول بأن النار محرقة. حينئذ لا أستطيع أن أقول لك: أقم الدليل من الكتاب والسنة على أن النار محرقة؛ لأن ما رجع إلى الحس فإنه ينبغي علينا أن نسعى إلى دليله من الحس؛ هكذا فهم المسلمون وبنوا حضارتهم على هذا عبر القرون، وعندما أقول : إن الفاعل مرفوع ؛ فإن دليل

ذلك يأتي من النقل واللغة، ولا يمكن أن أطالب الناس بإقامة الأدلة من الكتاب والسنة على هذه الحقيقة اللغوية، وعندما أقول : إن الصلاة واجبة . فإن هذا أمر شرعي يحتاج إلى دليل من مصدره؛ وهو الكتاب والسنة، وعندما أقول : إن واحد وواحد يساوي اثنين . فينبغي علي أن أرجع إلى قواعد العقل المأخوذة من الواقع والمحسوبة منه حتى أُقَيِّمَ كل علوم الرياضة والفلك والفيزياء...الخ.

وينبغي علينا عندما نريد الإدراك الجازم، الثابت، المطابق للواقع، الناشئ عن دليل وليس عن هوى ولا تقليد ، أن نذهب إلى مصادر هذا الإدراك أو هذا العلم .

وهذه الحقيقة البسيطة المتمثلة في أن الأحكام على أنواع مختلفة قد غابت عن كثير من الناس ، فراحوا يهرفون بما لا يعلمون ويتكلمون فيما لا يعنيهم، ويبنون عقولهم على جانب الخرافة، ويخلطون الأمور، أو يقصرونها على جانب دون آخر . فيؤدي ذلك بهم إلى ما يمكن أن نطلق عليه بـ "العرج الفكري" .

العقلية الخرافية

معنى كلمة الخرافة:

أصل كلمة الخرافة ورد في الحديث .

عن عائشة قالت: حدث رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ذات ليلة حديثا فقالت امرأة منهن: يا رسول الله كان الحديث حديث خرافة. فقال: "أتدرون ما خرافة؟" إن خرافة كان رجلا من عذرة أسرته الجن في الجاهلية، فمكث فيهن دهرا طويلا، ثم ردوه إلى الإنس فكان يحدث الناس بما رأى فيهم من الأعاجيب. فقال الناس: حديث خرافة"[1] .

وهو حديث يحتاج إلى التأمل لا إلى الرفض .

فخرافة اسم رجل غاب ، ثم جاء فقال : اختطفتني الجن ، وحكى عجائب ، فكلما حكى شخص العجائب في ما لا يصدق سماه الناس "خرافة"، وقالوا: ذهب حديث خرافة. يعني ذهب يتحدث حديث خرافة.

والاهتمام بالأسماء والمسميات له أثر كبير في عقلية المجتمع، وفيما يتبناه الناس من آراء، وفى تكييف العلاقات، ولذلك أُمِرْنَا في الشريعة بألا نتلاعب بالأسماء في مقابل المسميات والمعاني، يقول ربنا سبحانه وتعالى وهو يحذر من الشرك ومن الوقوع فيه، بناء على التلاعب بالأسماء: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [سورة النجم آية: 24]

(1) مسند أحمد (157/6) ط (مؤسسة قرطبة – القاهرة)، مجمع الزوائد (365/4) ط (دار الفكر–بيروت).

ويخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن هذه العلة سوف تُصيب أمَّتَه، وأن بعض الناس سوف يستحلون الحرام بناء على تلاعبهم بهذه القضية، فقد ثبت أن أبا مسلم الخولاني حج، فدخل على عائشة . زوج النبي صلى الله عليه وسلم. فجعلت تسأله عن الشام وعن بَرْدِها، فجعل يخبرها، فقالت: كيف يصبرون على بردها؟ قال: يا أم المؤمنين، إنهم يشربون شرابا لهم يقال له: الطلا. قالت: صدق الله، وبلغ حبي صلى الله عليه وسلم، سمعت حبي يقول: "إن ناسا من أمتي يشربون الخمر يسمونها بغير اسمها"[1].

ولقد بدأ يشيع في مجتمعنا شيء من عدم ضبط الأسماء، مما يترتب عليه استحلال الحرام، وشيوع الفساد، وقبول الفاحشة، وهو ما يهدد السلام الاجتماعي، وعلاقة الإنسان مع ربه. وبات أناس وباستهانة عجيبة بالتخصص العلمي يتصدرون للفتوى ويتكلمون في دين الله بغير علم فيشرعون بأهوائهم وحسب تجاربهم الخاصة ومزاجهم الشخصي .

أسباب شيوع الخرافة:

1. اختزال المسائل المركبة .
2. عدم بذل الوسع في الاجتهاد وإيثار السهولة .
3. انتشار أمراض القلوب كالكبر .
4. إيثار الوهم على الحقيقة .

وهذه الصفات صفات نقص لا تؤدى أبدا إلى الخير ولا إلى النجاح، ولو أنها شاعت في

(1) المستدرك (164/4) ط دار الكتب العلمية – بيروت .

أوساط الباحثين والكاتبين لَمَثَّلت ظاهرة جد خطيرة يجب علينا جميعا أن نقاومها وأن نعيد الأمر إلى نصابه.

***

مصادر الخرافة

للخرافة مصادرها كما أن للعلم مصادره، وبمجرد بُعْدِ الإنسان عن مصادر المعرفة ليأخذها منها فإنه يقع فريسة للخرافة ومصادرها، والعلم يؤسس على اليقين والمعرفة الصحيحة، وأما الخرافة فإنها تؤسس على الظنون والأوهام التي ليس عليها برهان أو دليل .

وروافد الخرافة ومصادرها في مجال الشريعة هي :

أولا: الظنون والأوهام وهي الحلول التي يذهب العقل إلى إيجادها ليتغلب على إشكالية عقائدية أو فقهية أو فكرية معتمدا على مجرد الهوى أو التخييل رافضا النقل الصحيح أو الخبر الصادق .

ثانيا : أساطير وخرافات موروثة عن حضارات قديمة، أو متسربة من ديانات محرفة سواء وضعية أو سماوية.

ثالثا: الإسرائيليات، وهي روايات أهل الكتاب من اليهود والنصارى عن أخبار أممهم السابقة وقصص أنبيائهم، والتي دست في تراثنا الإسلامي ، وكانت أحيانا تنسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنها حديث، وأحيانا تنسب إلى أحد الصحابة، وقد وقع كثير من الإسرائيليات في كتب التفسير والحديث .

وكان السبب في وقوع هذه الإسرائيليات وتأثيرها في المنهج العلمي الإسلامي شهوة بعض العلماء إلى الاستكثار من الرواية دون الالتزام بالمنهج النقدي .

ولو أننا قارنا بين تذكرة داود أو القانون لابن سينا من كتب الطب وبين كتاب عن طب الرُّكة ألفه الدكتور محمد إسماعيل وقع في واحد وعشرين جزءا. وهي موجودة بدار الكتب ، وقد نشر في عام 1894م، وفي هذا الكتاب حاول المؤلف أن يحارب الخرافة الشائعة في المجال الطبي. لتبين لنا منهجان مختلفان ، منهج اجتهد في البحث والتجربة وهو المنهج الذي

بنيت عليه الحضارات ومنهج آخر ليس له ضابط أو أسس منهجية .

وكتاب طب الرُّكة هو أحد المصادر التي يمكن أن ندرس من خلالها عقلية الخرافة، وهذا الكتاب لا يسمع به كثير من الناس ولا يعرفه أحد، قد يكون ذلك لصغر حجمه، وقد يكون لكثرة أجزائه، لكنه يحتاج إلى دراسة .

ومن قبله بسنين ألف الدكتور حسن بك الرشيدي. وكان أستاذا في طب أبي زعبل. كتابا ماتعا في أربعة أجزاء كبيرة اسمه "بغية المحتاج في الأدوية والعلاج"، جمع فيه النباتات الطبية الموجودة تحت أيدينا، ووصفها وصفًا دقيقًا، وأدخلها المعمل، ونظر إليها، وجربها وكتب خلاصتها ثم بعد ذلك ربطها بكتب أهل الخبرة فى هذا المجال، وطُبع الكتاب بعد موته .

وكان هذا الرجل متمكنا في اللغة العربية، وكانت كتب الطب تدرس بالعربية إلى نحو سنة 1920م، وكان الشيخ محرم يصحح للرشيدي كتبه يقول عنه : لم أجد له خطًا واحدًا في اللغة، ولا في النحو، ولا في الصرف.

وهذا يؤكد أن الحياة العلمية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالفكر، وأن الفكر مرتبط ارتباطًا وثيقًا باللغة، وهذا من المهمات التي ينبغي علينا أن نؤكد عليها في هذا المقام.

رابعا: بعض الروايات الضعيفة والموضوعة.

لكن ليس كل الضعيف فيه خرافة بل في بعض الضعيف فوائد، فعندما يأتي حديث ضعيف ويقول : "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه ".[1]

فهذا حديث ضعيف، ولكن معناه طيب وبعيد عن الخرافة ، والقضية ليست قضية رفض الضعيف بالكلية، بل رفض الضعيف الذي يخالف أصول الدين، أو الذي ينمي الخرافة في العقول ويضاد مقاصد الشريعة وثوابتها ، أو الذي يعطل أدوات التمييز العقلية وهي مناط التكاليف .

ورفض الضعيف بالكلية يؤدي إلى التفريط في كثير من النصوص تحض على مكارم الأخلاق التي أرسى القرآن دعائمها ، ويقوم الفقهاء بدورهم في الجمع بين الأدلة القوية والضعيفة التي لها أصل ثابت .

ولكن إن وجد الفقيه رواية صحيحة السند أو ضعيفته تتعارض مع أصول الدين أو مقاصده الثابتة في القرآن قطعا، تعارضا لا يمكن معالجته بالتأويل أو الجمع بين الدليلين القطعي والظني، فإنه من المتعارف عليه تقديم الأقوى وهو القطعي .

وكان الإمام مالك يقدم عمل أهل المدينة على خبر الآحاد المعارض له ، والإمام أبو حنيفة كان يقدم القرآن على السنة ، ويؤكد الدليل الثابت بالقرآن ولو بأحاديث ضعيفة

(1) أخرجه البيهقى في شعب الإيمان (4/334، رقم 5312) . وأخرجه أيضًا أبو يعلى (7/349، رقم 4386) قال الهيثمى (4/98): فيه مصعب بن ثابت وثقه ابن حبان وضعفه جماعة. والطبراني في الأوسط (1/275، رقم 897)، وابن عدى (6/361، ترجمة 1842 مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير).

السند، ويرد خبر الآحاد الذي روي بسند صحيح من أجل معارضتها لصريح القرآن .

وأبو حنيفة هو فقيه الأمة وهو شيخ الأئمة من بعده ويجب احترام منهجه النقدي للرواية الصحيحة معتمدا على المتن ، فهو لا يكتفي بأن يكون السند صحيحا بل يحرص أن يكون المتن متفقا ومؤيدا بالأصول الشرعية الثابتة والمقاصد التي نص عليه القرآن .

وفي تفسير القرطبي عند تفسير قول الله تعالى : ﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴾ [سورة الكهف آية: 51]

قال : زعم ابن الراوندي . وهو مرمي بالفسق والإلحاد واتهم بسب القرآن . أن الأرض كرة، وفي هذه الآية رَدٌّ عليه .أهـ

فابن الراوندي ذكر شيئًا صحيحًا قال: إن الأرض كروية. ولكن القرطبي رد قوله واتهمه فيه معتمدا على فهمه للآية. ولكن ابن حزم في الفِصل قال: والأرض كرة قطعًا لاختلاف مواقيت الصلاة من قطر إلى قطر .(1)

فالقرطبي أخطأ في الاستدلال لأنه اعتمد على النقل والخبر في موطن يحتاج إلى الحس والتجربة .

وفي موطن آخر في تفسيره لسورة الكهف يذكر رواية تقول : إن النبي صلى الله عليه وسلم سأل الله أن يريه أهل الكهف ، فقال : إنك لن تراهم في دار الدنيا ، ولكن ابعث إليهم أربعة من خيار أصحابك ليبلغوهم رسالتك ويدعوهم إلى الإيمان . فقال النبي صلى الله عليه

(1) قال القرطبي: وقوله: (وَالأَرْضِ) رد على أصحاب الهندسة حيث قالوا: إن الأرض كرية والأفلاك تجري تحتها، والناس ملصقون عليها وتحتها. تفسير القرطبي 1/11. وانظر الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم 78/2.

وسلم لجبريل عليه السلام: كيف أبعثهم؟ فقال: ابسط كساءك وأجلس على طرف من أطرافه أبا بكر وعلى الطرف الآخر عمر، وعلى الثالث عثمان، وعلى الرابع على بن أبى طالب، ثم ادع الريح الرخاء المسخرة لسليمان فإن الله تعالى يأمرها أن تطيعك، ففعل فحملتهم الريح إلى باب الكهف، فقلعوا منه حجرا، فحمل الكلب عليهم فلما رآهم حرك رأسه وبصبص بذنبه وأومأ إليهم برأسه: أن ادخلوا. فدخلوا الكهف فقالوا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد الله على الفتية أرواحهم فقاموا بأجمعهم وقالوا: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فقالوا لهم: معشر الفتية، إن النبي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليكم السلام، فقالوا: وعلى محمد رسول الله السلام ما دامت السموات والارض، وعليكم بما أبلغتم.

وقبلوا دينه وأسلموا ، ثم قالوا: أقرئوا محمدا رسول الله منا السلام. وأخذوا مضاجعهم وصاروا إلى رقدتهم إلى آخر الزمان عند خروج المهدي.

فيقال: إن المهدي يسلم عليهم فيحييهم الله ، ثم يرجعون إلى رقدتهم فلا يقومون حتى تقوم الساعة، فأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم بما كان منهم، ثم ردتهم الريح فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "كيف وجدتموهم" ؟ فأخبروه الخبر، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " اللّهم لا تفرق بيني وبين أصحابي وأصهاري، واغفر لمن أجابني ، وأحب أهل بيتي وخاصتي وأصحابي" .[1]

ويسوق القرطبي هذه الخرافة وكأنها حديث صحيح مُخرَّج، وهو لا علاقة له لا بالتخريج

1 - تفسير القرطبي 389/10.

ولا بالصحة ولا بعدمها ، فإذا ما قرأه المسلم أو طالب العلم مثل هذا حدثت في عقله بلبلة وخبلا واضطرابا؛ لأنه حينما جاء ليسألني عن تفسير القرطبي قلت له: إنه من أبدع التفاسير في اللغة وفي القراءات وفي الفقه ، فكانت مثل هذه القصص من شأنها أن تحدث مشكلة في عقله .

وقد ناقش مجمع البحوث الإسلامية قضية وجود مثل هذه القصص الخرافية في كتب التراث وظهر بين علمائه اتجاهان؛ فكان اتجاه الشيخ محمد الغزالي رحمه الله أنها تحذف، وكان اتجاه بعضهم أن الحذف يعد تلاعبا بالتراث والأمانة العلمية والأمانة المنهجية وهكذا، واقترح البعض أن نترك مثل هذه الكتب كما هي وبما فيها مع التعليق على مثل هذه المسائل في الهامش.

سمات العقلية الخرافية

وتتسم العقلية الخرافية في واقعنا المعاصر بعدة أمور منها :

أولاً: إنكار حجية المصادر

وهذا ناتج في غالب الأحيان عن الجهل، وفى بعض الأحيان الأخرى عن الهوى والمزاج الذي يُؤْثِر عدم الالتزام بما أمر به الدليل .

ثانيًا: إنكار التنوع في مناهج البحث

فالعقلية الخرافية ضيقة الأفق ، لا تعترف إلا بما تدركه حواسها ، ولا تعتبر علما إلا ما أدركته بالمنهج التجريبي ، وهي لا تستوعب المعرفة التي تأتي من طريق الوحي أو الخبر الصادق.

فهذه العقلية تنكر من جانب وجود الجن والملائكة والجنة والنار وتنكر الغيب عامة حتى الخالق سبحانه تنكره ، ومن جانب آخر تسيطر على حياتها الأساطير والأوهام ولا تجد تفسيرا لكثير من الظواهر الحادثة بالفعل والمشاهدة بالحس .

ثالثًا: عدم احترام التخصص العلمي

فالعقلية الخرافية تظن نفسها خارقة القدرات يمكنها الإحاطة بكل العلوم ، وعلى هذا الأساس فهي لا تحترم لأهل الفقه والشريعة مثلا تخصصاتهم العلمية .

رابعًا: التحايل والهروب من الاعتراف بالدليل والبرهان

يهرب العقل الخرافي من الأدلة ، ومن البحث عنها وفيها؛ لأن ذلك يحتاج إلى علم هو يفتقده، وإلى جهد ووقت ليس متاحا له، ويعتمد على الشبهات ، والله سبحانه وتعالى يقول ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء:36].

خامسًا: أنها عقل مجتزئ .

والعقل المجتزئ هو الذي يَفْصِل المسائل عن أصولها، ويفصلها أيضا عن علاقتها بغيرها فى السياق ، ويفصلها عن مآلها، ويفصلها عن دليلها.

وهو أسلوب الوقوف عند جزء من النص كقوله تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ [الماعون:4] دون تكملته بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ ، وكذلك اجتزاء قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [النساء:43] دون اتباعه بتكملته ﴿وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ .

سادسا: التداعي .

ويكون التداعي بتصور لزوم ما لا يلزم، وهو ما يُغَبِّش علي فهم المسائل ودراستها، كأن يتصور صاحب هذه العقلية أن السكين لا يستخدم إلا فى القتل، فيرتب على ذلك حكما شرعيا بحرمة شراء السكين واستعمالها مطلقا، فقد وقع في تحريم الحلال بناء على نقص المعرفة والفهم .

سابعًا: التعميم .

وهو ما يسمى بالشغب، وفيه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِذَا قَالَ الرَّجُلُ : هَلَكَ النَّاسُ. فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ "[1]

فمن خصائص العقلية الخرافية أنها تعمم الحكم ، ولا تدقق فى مناط الحكم وأسبابه .

---

(1) رواه مسلم في صحيحه (2024/4) ط (دار إحياء التراث العربي – بيروت).

ثامنًا: الاعتماد على الأوهام.

وكذلك تعتمد العقلية الخرافية على الانطباعات، والرغبات، وتعتمد على ما درجت عليه ونشأت فيه، ولذلك يرى نفسه أنه مقياس الصواب وأن عاداته وسلوكياته هي الحق المطلق.

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾[الجاثية:23].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف:22].

تاسعًا: الخلط بين المصطلحات.

وإنه لمما يوقع العقلية الخرافية في كثير من الخطأ أنها تخلط بين المفاهيم، ولا تميز بين دلالات المصطلحات والألفاظ .

وقد يكون ذلك عن سوء فهم أو عن تعمد لتحريف الكلم عن مواضعه كما كان يفعل يهود وما زالوا .

قال تعالى لبني إسرائيل: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾[آل عمران:71]

وفي واقعنا يخلط كثير من الناس أيضا بين ما هو شرعي وما هو عرفي، وبين ما يدخل في دائرة فقه الحلال والحرام وما هو خارج عنها من فكر وإبداع، ومنهم من يخلط بين الحرية والإباحية، وبين احترام الذات وصيانة المجتمع .

***

نتائج مترتبة على انتشار العقلية الخرافية

إن عقلية الخرافة سوف تؤدى حتما بعقولنا إلى التسطح والاضطراب والوقوع في الشكوك حتى ينهار معها البناء الفكري، ونضل عن الفكر المستقيم المؤسس على العلم واليقين، والعقلية الخرافية سوف تؤدى بنا إلى التناقض في الحكم على الأشياء فلا نعرف ما نقبل وما نرفض ومتى نقبل ومتى نرفض، وذلك لعدم إدراكنا لتغير الواقع من حولنا على مستوى الزمان أو المكان أو الأشخاص أو الأحوال أو كمِّ المعلومات أو ظهور أهداف جديدة.

والعقلية الخرافية تؤدى أيضا إلى شيء من الإعجاب بالرأي والتشويش على الحق، وهذا ما حذرنا منه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعِ الْعَوَامَّ ؛ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ".[1]

وتؤدى العقلية الخرافية أيضا إلى الجهل وإلى العجز وعدم القدرة على تغيير الواقع، وهى عقليةٌ دائمة السخرية والتلبيس والكذب والعناد والجدل، وكل صفاتٍ نَهى الله عنها .

فقال تعالى : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران:66]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ

(1) رواه الترمذي (307/11) وأبو داود (479/12) وابن ماجه (169/12).

﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ
عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [المطففين:29 – 34].

وإن الإنسان لا بد وأن يكون له هدف في هذه الحياة الدنيا وهو عبادة الله وعمارة الكون وتزكية النفس ، وأن تكون عنده همَّة، فإن الأمور ليست بالأماني وإنما بالعمل والاستمرار عليه، وأن يكون عنده ترتيب للأولويات فيعرف حكمة الخالق سبحانه وتعالى ومراده ويقدمه على ما سواه، وأن تكون هناك ثقافة شائعة وجو عام يشجع العلم ويدعو إليه .

ولا بد أن تكون هناك أصول معتبرة نسير عليها جميعا فننكر المنكر ونأمر بالمعروف، وننهى عن كل ما يؤدى إلى الفساد في الأرض ونتكاتف ونتعاون ونعمل فريقا واحدا من أجل الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. وأن نهتم بتعليم أبنائنا بعد أن فشا فينا هذا التفرق وذهبت الأصول وأصبحت الثقافة العامة هي ثقافة الكذب وعقلية الخرافة .

وقال تعالى في شأن هذه العقلية الخرافية : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ [فصلت:26].

قال سبحانه ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران:75]

وقال تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ﴾ [الكهف:54].

وقال تعالى على لسان أصحاب العقول الخرافية : ﴿ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾[الأنفال : 32]

فالعقلية الخرافية هي التي ولدت الإرهاب الفكري والديني والعنف الطائفي، وهي التي جعلت أصحابها لا يقبلون الآخر ولا يستمعون إليه .

المنهج والنموذج المعرفي

المنهج في اللغة: هو الطريق الواضح المستقيم. قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[1]، أي: طريقًا واضحًا، أمرنا بالاستقامة عليه.[2]

وفي "جمهرة اللغة" لابن دريد: والنهج: الطَّرِيق الْوَاضِح وَالْجمع نهوج ونهاج وَهُوَ: "الْمنْهَج" وَالْجمع مناهج[3] .اهـ

وقال ابن منظور في "لسان العرب": وأَنهَجَ الطريقُ: وضَحَ واسْتَبانَ، وصار نهجًا واضحًا بينًا، والمنهج عنده - بفتح الميم وكسرها- هو النهج والمنهاج؛ أي: الطريق الواضح والمستقيم.[4]اهـ

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ترككم على طريق ناهجة. أي : واضحة بينة[5].

ومما سبق يتبين لنا أن المنهج في اللغة معناه الطريق الواضح، الذي لا عوج فيه .

وأمَّا بالنسبة للمعنى الاصطلاحي فهو: رؤية كلية ينبثق عنها إجراءات، والرؤية الكلية نعبر عنها بعبارات مختلفة في تراثنا وأدبياتنا المعاصرة. فنعبر عنها بكلمة النموذج المعرفي، ونعبر عنها بكلمة العقيدة، نعبر عنها ببعض القضايا الكبرى اختزالًا لهذه الرؤية الكلية في

---

1 - سورة المائدة، الآية: 48.

2 - تفسير الإمام الشافعي (2/ 757).

3 - جمهرة اللغة (1/ 498).

4 - لسان العرب (2/ 383).

5 - النهاية في الغريب والأثر لابن الأثير 5/281.

أهم قضاياها؛ إذًا فالرؤية الكلية هي النموذج المعرفي.

ويتوجب علينا أن نحسن إدراك الواقع المعيش بعوالمه الخمسة المختلفة كل عالم حسب المنهج المناسب له، إضافة إلى إدراك العلاقات البينية بين كل عالَم وآخر، والتعامل مع هذه العوالم على أنها كلٌّ مترابط، وأنها متغيرة بصفة دائمة، وحينما ندرك هذه الحقيقة نتفهم ضرورة متابعة البحث والتقييم للواقع المعيش وإعادة فهمه بصفة مستمرة، لأن هذا التغير سنة من سنن الله في كونه قال تعالى : ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩﴾ [سورة الرحمن : آية 29]

فعالم الأشياء يحتاج إلى المنهج التجريبي، وهذا المنهج اعتمد عليه المسلمون من قبل والغربيون من بعد في بناء حضارتهم، فقد ساعد الإنسان على تسخير مقدرات الكون، والاستفادة بما بثه الله فيه من ثروات، ويجب أن ينضبط المنهج التجريبي بمفاهيم واضحة هي:

(أ) لم يضع الشرع الشريف للبحث العلمي حدا في أي جهة كان، فقد أطلق الشارع للإنسان العنان ليتفكر ويعقل كل صغيرة وكبيرة في هذا الوجود، قال تعالى بما يفيد العموم: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ﴾ [سورة النمل: 69]

وقال تعالى بما يفيد الإطلاق: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩﴾ [الزمر : 9] أطلق تعالى العلم فلم يحدد منه شيئا. فاستوى العلم الشرعي والكوني ما ظنه الإنسان مفيدا وما اعتقده ضارا.

ولقد رفع القرآن الكريم من منزلة العلماء حتى قصر معرفة الله وخشيته الحقة عليهم فقال: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [سورة فاطر: 28] ، والعلماء جمع عليم، وليس جمع عالِم، مثل حكيم وحكماء، وخبير وخبراء، وفقيه وفقهاء، فهي جمع لصيغة المبالغة وليس

اسم الفاعل، قال تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة يوسف: 76].

(ب) يجب على المسلم عند خروج بحثه من دائرة النظر والعلم المجرد إلى التطبيق العملي أن يتقيد بما جاء في شريعته من أوامر ونواه وأخلاقيات، وألا يضرب المنهج الإلهي بالمنهج التجريبي، حتى لا يفسد حياته، فقد ساق إليه ربه وخالقه شريعة تقوده إلى الصلاح والسعادة، أما إن أتبع المنهج التجريبي بالفكر النفعي والبرجماتي فإنه لن يرعوي أن يدمر الكون والوجود ويودي بحياة البشرية ويغرق نفسه في التعاسة والضنك، حتى يفرض سلطانه وهيمنته على بقية الخلق، ويدور الإنسان حينئذ في دائرة ذاته لا يفكر إلى فيها، فيهتم بتحقيق الجاه والسلطان والمال لنفسه، وإن كان على حساب حياة الآخرين وحرياتهم.

(ج) العقلية الخرافية لا تفرق بين أي من العوالم المختلفة، ولا تقيم الدليل المناسب أو البرهان المستقيم لإثبات القضية محلَّ النظر، ولا تتبع منهجًا واضحًا محددًا في التعامل مع الحقائق، ولا تعتمد مصادر المعرفة السليمة، والعقلية الخرافية إما عقلية عشوائية متخبطة أو تصنع لأنفسها مناهج تدميرية، كمناهج الانتحار أو الانبهار أو الاجترار أو الانحسار أو الاغترار ، وكلها مناهج مرفوضة، فمنهج الانتحار وهو الذي يسلك صاحبه طريق التكفير ليعبر عن ذاته، ومنهج الانبهار بالآخر وهو ما يجعل صاحبه يهمل مصادر الشرع وإبداع الحضارة التي ينتمي إليها، وينجذب نحو كل ما يجده عند الآخر من غث أو ثمين، ويخرج علينا كل يوم من ينكر حتى معايير اللغة العربية ومقتضياتها، وينكر إجماع الفقهاء وعلماء المسلمين عبر العصور، ويقول بكل ما يؤدي إلى إذابة هوية الإسلام وإقصائها لصالح هوية علمانية أو عولمية تخص الآخر الذي انبهر به.

ومنهج الانحسار الانعزالي وهو الذي يؤدي إلى الفرار من الواقع واللجوء إلى الأحلام

والخيال والوهم، وهو الأمر الذي يشبه الفرار يوم الزحف؛ والشرع الشريف يرفض هذا المنهج ويدعو صاحبه للعودة إلى المجتمع ومخالطة الناس والمساهمة في إعمار الكون، قال تعالى : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) [سورة يوسف : 18]

وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "المُؤمنُ الذي يُخالطُ النَّاس ويَصبرُ عَلى أَذاهُم خَيرٌ مِن الذي لا يُخالِطُ النَّاسَ ولا يَصبرُ عَلى أَذَاهُم" .[1]

وأما منهج الاجترار وهو الذي يدعو صاحبه إلى العيش أسيرا لما جاء في التراث من مسائل، ويقف عند حدها دون اجتهاد أو تفكر ، فهو يعيش في انفصال شبه تام مع واقعه المعاصر، وعلاجه أن ننظر في المناهج التي تركها لنا العلماء والفقهاء في تراثنا فنسير على درب منهجهم فنتمكن من الاجتهاد لوقتنا والتجديد في مسائلهم لصالح واقعنا المعاصر، والتنسيق بين العوالم المختلفة المؤثرة في التفكير العلمي العقلية العلمية.

وأما منهج الاغترار وهو الذي يسير عليه غير المتخصصين مغترا بما حصله من دراسة ظنا منه أنه بلغ النهاية في التخصص، وأن بمقدوره أن يستعدل على أهل الفن وأصحابه الذين استكملوا أدوات العلم وعناصره الخمسة : الطالب، والأستاذ، والكتاب، والمنهج، والجو العلمي.

وهذه العناصر لا تغني عن التمتع بالاستعدادات الفطرية من الذكاء، باعتباره الوسيلة لربط المعلومات بمنهجية وموضوعية، والإرادة والعزيمة القوية التي تدفع الطالب لبذل ما

1 – أخرجه الترمذي برقم (2515) ، وابن ماجه برقم (4032) ، وابن أبي شيبة في المصنف 8 / 565، والبيهقي في السنن 89/10 ، والحديث صحيح .

في وسعه بشكل مستمر في سبيل تحصيل المعرفة والعلوم الخاصة بتخصصه.

والتخصص العلمي يكسب صاحبه بجوار المعرفة تحصيل القيم العلمية والقيم الأخلاقية وتربية الملكات والمهارات، فطول الممارسة والمعايشة للفن الذي تخصص فيه تؤهله إلى نقله إلى الواقع الخارجي.

ولقد أشار الإمام الشافعي إلى هذا المنهج العلمي فقال:

أخي لن تنالَ العلمَ إلا بستَّةٍ سأنبيك عن تفصيلها ببيان

ذكاءٌ وحِرصٌ واجتهادٌ وبُلْغَةٌ وصحبة أستاذ وطول زمان[1]

والبلغة تعني التفرغ لطلب العلم، وأن عنده ما يكفيه من الأرزاق، وهو المعنى الذي قامت به الأوقاف الإسلامية عبر القرون، فكان من أهم جهاتها الصرف على التعليم، وعلى الصحة وعلى الأمن الداخلي.

وهذا النمط من الاغترار هو أخطر الأنماط؛ لأنه قد حصَّل شيئًا من العلم الشرعي، إلا أنه لم تكتمل أدواته حتى يصل إلى مرتبة المجددين.

وأما عالم الأشخاص وقد تحدث فيه الفقهاء عن الشخصية الطبيعية والشخصية الاعتبارية، وينبغي أن تراعي أحكامها مصالح الناس والمقاصد الشرعية؛ ولا يجوز الخلط بين أحكام الشخصية الطبيعية وبين أحكام الشخصية الاعتبارية لما فيه من تغبيش على الواقع المعيش.

وأما عالم الأحداث، وهو الذي يحلل مضمون المسألة والموقف واستعمال هذا التحليل في

1 - المستطرف في كل فن مستظرف 53/1.

تكييف الحكم، وأشار إليه الحديث النبوي : "على العاقل أن يكون عالمًا بزمانه، ممسكًا للسانه، مقبلًا على شانه" .

وعالَم الأحداث مركب في الحقيقة من الأشياء والأشخاص والوقائع والعلاقات البينيّة، وهو أكثر العوالِم تداخلًا وتسارعًا؛ حتى نرى أن وكالات الأنباء الستة الكبرى تبث كل يوم 120 مليون معلومة أغلبها أحداث؛ مما يبين أهمية هذا الجانب.

وأما عالَم الأفكار والنظم فإنه يعد أساسًا لكثير من السلوكيات والتطبيق.

ومما سبق يتبين لنا أهمية المنهج العلمي في التفكير بالنسبة للشخصية الإسلامية والعقلية الفارقة، فالمنهج الإسلامي تضبطه المقاصد الشرعية التي حرصت على حفظ النفس والعقل والدين والكرامة الإنسانية والملك، وعليه فنقول:

1- المنهج الصحيح يحترم المصادر الإسلامية، ويحدد حجيتها، وطريقة توثيقها، وأدوات فهمها، ومساحة القطعي والظني، والثابت والمتغير فيها، وطريقة الإلحاق بها، وكيفية الترجيح فيما بينها عند التعارض الذي يرد على ذهن المجتهد، والسقف الذي يجب على المجتهد أن يلتزم به، وما شروط ذلك المجتهد.

2- المنهج يهتم بوضع رؤية كلية ينبثق عنها إجراءات، وهذه الرؤية الكلية هي النموذج المعرفي الذي تكلمنا عنه سابقا، أما الإجراءات فهي منهج البحث العلمي الذي نراه عند الأصوليين، حيث يعرف الرازي ومدرسته أصول الفقه بأنه: معرفة دلائل الفقه إجمالا، وكيفية الاستفادة منها، وحال المستفيد. يعني تكلم عن مصادر البحث الفقهي، ثم تكلم عن كيفية البحث وطرقه، ثم تكلم عن شروط الباحث، وهي الأركان الثلاثة بحالها التي اتخذت فيما بعد منهجا علميا كما قرره "روجرز بيكون" : المصادر والطرق وشروط الباحث.

منهجية العلم

وهذه المنهجية هي الضابط المحتكم إليه في استنباط الأحكام من الوحي، وهي الضابط لاستخلاص الحقائق من الكون . واتباع هذا الضابط المنهجي ينبغي أن يسيطر على عقولنا ونعمله في شتى أمور حياتنا.

ولقد ابتكر المسلمون علم أصول الفقه كمنهج علمي يضبط عملية الاجتهاد ، وأصول الفقه علم مؤسس على المنهج العلمي العقلي ، وهو العلم الذي يساعد العقل على إدراك الشريعة وفهم مقاصدها وأن يفعل دورها في الوجود .

وعلم أصول الفقه بالنسبة للوحي أو الشرع يمثل المنهج، ومثله كمثل المنهج التجريبي لعلوم الطبيعة كالفيزياء والكيمياء ، وأصول الفقه هو منهج المسلمين في الوصول إلى الحقيقة في مجال الوحي.

والإمام الشافعي هو واضع علم أصول الفقه ومؤسسه وأول من ألف فيه مؤلفا جامعا هو الرسالة ، ويمكن تعريف علم أصول الفقه بأنه :"معرفة دلائل الفقه إجمالًا وكيفية الاستفادة منها وبيان حال المستفيد".

وهذا التعريف بشكل آخر أو بدلالة ألفاظ أخرى يدلنا أن موضوعات علم الأصول هي مصادر البحث الفقهي ، وطرق البحث الفقهي ، وشروط الفقيه ، وهذه هي أركان المنهج العلمي المتعارف عليها عند الجميع.

والمتخصصون في علم الأصول يعرفون هذه الأركان بمسمياتها، ووقعت في مؤلفات بعض المدارس الأصولية القديمة كمدرسة الرازي ، فقد تكلموا عن مصادر البحث وطرق البحث وشروط الباحث .

وعندما تكلموا في هذه الثلاثة تكلموا في سبعة أنحاء:

أولها مدى الحجية ومصدر الحجية؟ وهذا الكلام ينبغي علينا أن نذكره في علم السياسة وعلم الاجتماع وعلم التربية، وفي العلوم جميعها، فالبرهان والحجة والاستدلال العلمي هو الأساس الذي يبنى عليه أي علم يُرغب في الاستفادة منه وتفعليه في حياة الناس، وهذا الأمر هو الأساس الذي تبنى عليه العقلية العلمية .

والحجية في علم الأصول هي للوحي: الكتاب والسنة .

ثانيها قضية الثبوت : وهي تتعلق بثبوت الحجية وثبوت الدليل ، وهذه القضية أسس عليها العلماء أربعة عشر علما في علوم الحديث والقراءات، وهذا يدل على أن هذه الأمة أمة عالمة ، فهي لا تسير خطوة إلا وهي تبني من الأدوات ما يوصلها إلى الهدف، مع رؤية كلية تضبط كل ما حولها .

والتساؤل لم خفتت هذه الروح العلمية ولم نحيت عن علوم الشريعة ؟ ولم يسعى قوم أن يحدثوا وقيعة بين الوحي والعقل بين الشرع والعلم ؟ ولم جرى تهميش علماء الشريعة ورجال الفقه عن الواقع والحياة والسياسة قرونا تقترب من الستة ؟

وحالنا صار مضطربا؛ لأن عالم الوحي لم يستطع الوفاء بدوره في المجتمع؛ لأنه غُيِّبَ عنه وتقوقع منعزلا لا يدرك متطلبات الواقع، وبذلك انفسح المجال لكل ناعق يقحم نفسه على علوم الشريعة وليس له إدراكٌ بمسائلها أو مناهجها .

وثالثها : قضية الفهم والتأويل .

ورابعها قضية الثبوت والتغير أو القطع والظن .

وخامسها : القياس وإلحاق المسائل بأشباهها ونظائرها .

وسادسها: حل التعارض الواقع بين الأدلة أو إزالته .

وسابعها : التطبيق ، ونقل الشرع إلى واقع الناس ، وإسهامه في حل مشاكلهم المستحدثة

والمتجددة .

وهذه بعينها هي الخطوات المنهجية السبعة التي يدور في فلكها كل علم يبدأ في معامل الاختبار ثم ينتهي إلى واقع الناس بعد وضع الآليات واستحداث الأدوات التي تسهل على الإنسان حياته ومعاشه .

فإذا أردنا للعقل المسلم أن يرجع إلى منهجية العلم يجب عليه أن يعرف مصادره وأن يعرف أنه مكلف بالوحي والوجود معا ، وأن يعرف أنه ينبغي عليه عندما يدخل إلى الوحي أن يدخل بضابط ، وأن يدخل بأداة ، وإذا ما دخل إلى الوجود يجب عليه أن يدخل بضابط ، وأن يدخل بأداة.

عقبات في الطريق:

المشكلة الأولى: أناس ليس عندهم منهج وليست لديهم أدوات علمية يهجمون على النصوص الشرعية بغير علم ولا عقل فأفسدوا وأضروا وهم يظنون أنهم يحسنون .

المشكلة الثانية : انعزالية وخمول ممن امتلك العلم الشرعي والأدوات المنهجية، وبعد عن الواقع ومشكلاته وقضاياه، والاستغراق في قضايا خلافية ماضية لم يعد للخلاف حولها أي جدوى أو أثر على حياة المسلمين .

المشكلة الثالثة : أناس امتلكوا ناصية التغيير في الواقع المعيش ولكنهم عجزوا عن تفعيلها في داخل أوطانهم بما تحويه من عقلية خرافية، فنراهم حينما يخروجون إلى الغرب تبرز مواهبهم وقدراتهم ويحصدون الجوائز ، وعندما يعودون تتعطل قدراتهم ويعجزون .

المشكلة الرابعة : أناس تسلطوا على الواقع ومقاليد الأمور وليس لهم من معرفة الوحي وأحكامه ومناهجه نصيب، وهم في أحيان لا يدركون أهميته، وفي أحيان يريدون تهميشه والبعد عنه.

اهتمام المسلمين بالعلم وتحصيل العلوم

حث الإسلام على العلم ومكانته في كثير من نصوص القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا فِيهِ يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»[2].

واستجاب المسلمون لهذا الحث، فأحبوا العلم، وبذلوا فيه كل غال ونفيس[3] وأتقنوا العلوم، بل وابتكروا علومًا لم تكن موجودة من قبل أفادت البشرية بأجمعها كعلم الجبر والكيمياء، وأنشأوا علومًا اختصت بهم وبتراثهم كعلم الأصول، والتخريج ..وهكذا

ولكل علم خطوات، وأولى خطوات العلم دائما هي تحديد المفاهيم، ودلالات الألفاظ التي يستخدمها الناس لأجل تعلم العلم، ومن هنا نبين أنَّ دلالات الألفاظ تختلف وفقًا لاختلاف جهة الدلالة عليها، فنقول:

هناك دلالة لغوية وتعرف بالتعريف "اللغوى"، وهناك دلالة اصطلاحية، والتي تعرف بالتعريف "الاصطلاحي"، كما أن هناك دلالة عرفية، وكل هذه الدلات إنما تندرج تحت علم يسمى علم الوضع، فما هو علم الوضع؟

---

1 – سورة الزمر، الآية: 9.

2 – أخرجه مسلم في "صحيحه"4/2074/ح 2699 .

3 – من أراد معرفة هذا، فليراجع كتاب الدكتور عبد الفتاح أبو غدة "صفحات من صبر العلماء على الشدائد" سيجد فيه مقدار البذل والعطاء لعلماء الأمة الإسلامية في سبيل تحصيل العلوم وتعليمها للناس.

الوضع كما عرفه العلامة الزركشي وغيره من علماء الأصول هو: جعل اللفظ بإزاء المعنى الذي جُعل اللفظ حقيقة عليه.[1]

وذلك مثل وضع اسم للإنسان ، كتسمية الإنسان ولده "زيدا" وكإطلاقهم على الحائط مثلا "الجدار".

أما أقسام الوضع فهي:

أولًا: الوضع اللغوي. وهو ما يصدق عليه التعريف السابق من جعل اللفظ بإزاء المعني الموضوع له في اللغة التي تعارف عليها الناس، أي في لغة العرب، وقد اختلفوا في مَن الواضع إلى أقوال :

- القول الأول: إن واضع اللغة هو الله عز وجل، وهذا هو الراجح، ويستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[2].
- القول الثاني: إن البشر هم الذين وضعوا الألفاظ يإيذاء معانيها، فهم الذين أطلقوا لفظ "الأسد" على الحيوان المفترس، وأطلقوا لفظ "السماء" على القبة الزرقاء التي فوقنا، و"الأرض" على ما تحتنا.
- القول الثالث: إن الله عز وجل وضع القواعد والأصول وعلمها لسيدنا آدم عليه السلام، ومنها وعلى نظائرها فرّع سيدنا آدم وعَلَّمَ البشر، ومن تلك القواعد أنه عند تصغير كلمة "طبق" نقول "طُبَيّق"، فأعمل الإنسان عقله في تصغير "حصان" فجعله "حُصَيّن"،

---

1 - البحر المحيط في أصول الفقه (1/ 536).

2 - سورة البقرة، آية: 31.

ومن ذلك وضع الله عز وجل كلمة "ضرب" واشتق منها الإنسان "ضراب وضارب ومضرب ومضروب" وهكذا...

- القول الرابع: وهو مذهب التوقف؛ أي: الذي سكت، وقال: لا أعلم.

ثانيًا: الوضع الشرعي وهو: جعل اللفظ بإزاء المعنى الموضوع له شرعًا، فقد استخدم الشرع الألفاظ لمعاني غير المعاني الموضوعة لها في اللغة، وذلك كلفظ الصلاة من حيث اللغة فهي تعني الصلة والدعاء.

أمَّا تعريفها من حيث المعنى المراد في الشرع، فهي الأقوال والأفعال المخصوصة المبتدئة بالتكبير والمختتمة بالتسليم.

وكذلك لفظ الزكاة في اللغة تعني الطهارة، أمَّا في الشرع فهي قيمة 2,5 في المائة من المال المدخر الذي بلغ النصاب ومر عليه الحول، وسميت زكاة؛ لأنها تحمل معنى تطهير المال بإخراج جزء منه لله عز وجل.

وكذلك لفظ "الوضوء": فهو مشتق: من الوضاءة : أي: الحسن والنظافة ، ومعناه شرعا: غسل الوجه واليدين إلى المرفقين ومسح الرأس وغسل الرجلين... وهكذا.

ثالثًا: الوضع العلمي أو الوضع الاصطلاحي. وهو أن يتوافق أهل فن معين أو طائفة من الطوائف على استخدام لفظ للدلالة على معنى خاص يتفقون عليه جميعًا.

يقول الشريف الجرجاني في "التعريفات": الاصطلاح عبارة عن: اتفاق قوم على تسمية الشيء باسم ما ينقل عن موضعه الأول، وإخراج اللفظ من معنى لغوي إلى آخر لمناسبة

بينهما.

وقيل: الاصطلاح اتفاق طائفة على وضع اللفظ بإزاء المعنى .

وقيل: الاصطلاح لفظ معين بين قوم معينين[1]. اهـ

وذلك مثل اصطلاح أهل الحديث على لفظ مسلسل للدلالة على نوع من أنواع الحديث، وكلمة مسلسل في اللغة مشتقة من السلسلة وهي اتصال الشيء بالشيء.

أما الحديث "المسلسل" فمعناه عند أهل الحديث كما عرفه ابن الصلاح: هو عبارة عن تتابع رجال الإسناد وتواردهم فيه واحدًا بعد واحدٍ على صفة، أو حالة واحدة[2].

مُسَلْسَلٌ قُلْ مَا عَلَى وَصْفٍ أَتَى		مِثْلَ أَمَا وَاللهِ أَنْبأَنِي الْفَتَى

كذَاكَ قَدْ حَدَّثَنِيهِ قَائِما		أَوْ بَعْدَ أَنْ حَدَّثَنِي تَبَسَّمَا

فنجد عندنا حديث مسلسل بالتبسم، وحديث مسلسل بالقيام... إلخ، فهذا معنى لا علاقة له بالمعنى اللغوي.

ولا يصح استخدام التعريف اللغوي محل التعريف الاصطلاحي، فالصلاة، مثلا تعريفها لغة: الدعاء ؛ لقوله تعالى :﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾[3] ، وتعريفها اصطلاحا: أقوال وأفعال مخصوصة مبدوءة بالتكبير ومختتمة بالتسليم، فلا يصح أن يأتي أحدهم ويقول: إن الصلاة هي الصلة

(1) التعريفات ص 28، بتصرف .

(2) مقدمة ابن الصلاح ص161.

(3) سورة التوبة، الآية 103.

والمهم أن يكون بين الإنسان وربه صلة، فيترك الصلاة بمعناها الاصطلاحي، متمسكًا بمعناها اللغوي فقط، فهذا خلط وعبث وتلاعب بالألفاظ.

إذن فلدينا ثلاث مجالات للوضع وهم: اللغة، والشرع، والعلوم المختلفة، وأضيف إليها وضع آخر معتبر وهو العرف.

رابعًا : الوضع العرفي. اتفاق أهل بلد معين على معنى معين للفظ غير المعنى الموضوع له لغة، فعلى سبيل المثال: كلمة "دَبُّوس" من معانيها في اللغة: آلة حرب، وأصبحت تطلق على أداة تشبه الإبرة منها ما يستخدم لتثبيت الأوراق، ومنها ما يستخدم لتثبيت حجاب النساء.

والوضع العرفي ينقسم إلى عرف عام وعرف خاص، فإذا ما كنت في المكتب، وأثناء العمل فكلمة دبوس تعني أداة تثبيت الأوراق، وإذا كنت في البيت تتناول الطعام فكلمة دبوس تعني قطعة معينة من الدجاجة، كما تعارف على ذلك المصريون.

إذن فأقسام الوضع خمسة: اللغة، والشرع، والعلوم والفنون المختلفة، والعرف الذي ينقسم إلى عرف عام وعرف خاص.

وأول من ألف في علم الوضع الإمام عَضُد الدين الإيجي وضع فيه كتبا سماه الرسالة العضدية [1] ، وبهذا الشكل يصبح للكلمة الواحدة معان مختلفة باختلاف المجال الذي نتحدث فيه.

---

(1) الإيجي: هو أبو الفضل عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي الشيرازي الشافعي (756هـ)، عالم بالأصول والمعاني والعربية. ما. من تصانيفه (المواقف) في علم الكلام، و(الرسالة العضدية) في علم الوضع، و(شرح مختصر ابن الحاجب) في أصول الفقه، وغيرها من المؤلفات.

ونعود للحديث عن العلم والاختلاف والاختلال الذي حدث في تحديد مفهومه!!.

فالعلم عند أهل اللغة يعني: المعرفة، وهو الذي سمي فيما بعد بالتصور.

والتصور معناه: الإدراك، والإدراك هو: حدوث الصورة في الذهن.

ومعنى هذا أن من تصور فقد حدث له إدراك لوجود ما،ولتوضيح هذا لا بد أن نتحدث عن الوجودات الأربعة وهي:

1_ وجود في الأعيان.

2_ وجود في الأذهان.

3_ وجود في اللسان.

4_ وجود في البنان.

فالوجود في الأعيان هو: الوجود الخارجي، مثل: الشجرة، شيء موجود في الخارج= يُرى بالعين، فإذا أغمضت عيني لأتخيلها = فهذا وجود في الأذهان، وقد سميتها شجرة ونطقت به، فهذا وجود على اللسان، وكتبت شجرة "ش ج ر ة" فهذا وجود في البنان، إذن فانطباع الصورة في الذهن علم.

أما العلم في لغة القرآن الكريم: الذي هو الشرع الشريف هو: الموصل إلي الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ (1)، وقال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (2)، و"علماء" هنا جمع "عليم" وليس جمع عالم، كـ"فقهاء" جمع "فقيه"، و"خبراء" جمع "خبير"

(1) سورة فاطر، الآية: 28

(2) سورة يوسف، الآية: 76

فكل جمع على وزن "فعلاء" مفرده على وزن "فعيل" وليس " فاعل ".

أما العلم الذي لا يوصل إلى الله يعد جهلا، والجهل على قسمين:

جهل بسيط: وهو عدم إدراك الواقع.

وجهل مركب: وهو إدراك الواقع على خلاف ما هو عليه.

يقول حمار الحكيم توما(1):

قال حمار الحكيم توما . . . لو أنصفوني لكنت أركب

لأنني جاهلٌ بسيطٌ . . .. وصاحبي جاهلٌ مركّب

أما العلم في اصطلاح العلوم المختلفة، فله معنى عام ومعنى خاص.

فالمعنى العام هو: إدراك الشيء أو إدراك صورته، وهذا الإدراك على نوعين:

1- فإما أن يكون إدراكًا جازما.

2- وإما أن يكون إدراكا غير جازم.

فأما الإدراك الجازم فهو: الإدراك بنسبة مئة في المئة، والوصول لدرجة اليقين، كشعور الإنسان بأنه جائع، فهذا الشعور في حقه علم ضروري، قد لا يشعر به، ولا يصدقه غيره، لكنه بالنسبة له يعتبر إدراكا جازما.

وأما الإدراك غير الجازم فهو: الإدراك بنسبة أقل من مئة في المائة، ويدخله الاحتمال والشك؛ لذا فهو إدراك ظني وليس قطعيا.

---

(1) كان طبيبا، ولكن تطببه من الكتب، وقد وقع التصحيف في بعض كتبه، فكان يقرأ: الحية السوداء شفاء من كل داء، تصحفت كلمة حبة إلى حية، فمات بسبب تطببه خلق كثير.

والإدراك الجازم قد يكون مطابقا للواقع، وقد يكون مخالفا للواقع:

1- فأما كونه مطابقا للواقع فهو: كالاعتقاد بأنه لا إله إلا الله.

2- وأما كونه غير مطابق للواقع: كاعتقاد بعضهم اعتقادًا جازمًا بأنَّ الأوثان تنفع وتضر، فهذا شيء غير مطابق للواقع؛ لكنه في حق معتقديه اعتقادٌ جازمٌ بنسبة مئة في المائة.

والاعتقاد المطابق للواقع قد يكون نشأ عن دليل، وقد يكون عن غير دليل، أي: عن تقليد، فالذي نشأ عن دليل فهذا هو "العلم".

إذن نخرج من كل هذا التسلسل إلى أن العلم هو: الإدراك الجازم المطابق للواقع الناشئ عن دليل.

وهذا هو تعريف العلم في الاصطلاح، فإذا كان إدراكا مطابقا للواقع، لكنه عن غير دليل فهذا يسمى تقليدًا، وإن كان غير مطابق للواقع فهذا الاعتقاد الفاسد، فإن كان غير جازم : فإما أن يكون راجحا؛ فإن كان اعتقاد نسبته من 55٪ = فهذا هو الظن، وإن تساوى فيه الطرفان؛ أي: نسبة اعتقاده 50٪ = فهذا هو الشك.

وإما إن يكون مرجوحا؛ أي: نسبة اعتقاده في الشيء 45٪ =فهذا هو الوهم.

ومن كل هذه التقسيمات نعلم كيف اهتم المسلمون بالعلم، وكيف فهموا عن البشرية مرادهم، فعندما فتحوا بلاد الهند، والأندلس، وأنطاكية، ومصر، أحسنوا التعبير عن دينهم وعقائدهم، وناقشوا وردوا على الفلسفات والآراء المختلفة ولم ينساقوا وراءها؛ لأنهم درسوا تلك العلوم بذلك العمق منذ البداية ، فتربوا على التفكير المنضبط.

وإذا كان ذلك كذلك ، فالمسلمون لم يكونوا أصحاب عقلية هشة ولا سطحية، بل كانت عقولهم ناضجة وواعية لها رؤية منضبطة للكون، فانطبع هذا في سلوكهم، فأبدعوا وأفادوا ليس فقط دينهم وبلادهم، بل البشرية جمعاء ، ولذلك كان من وسائل انتشار الإسلام التجار

المسلمون وسلوكهم الحسن في بلاد غير المسلمين.

ونكرر قائلين أن تضييق مفهوم العلم بما ينحصر في المنهج التجريبي لمقابلة معناه للترجمة الإنجليزية science والمقصود بها كل ما يخضع للتجربة ويدرك بالحس، فهذا التقيد في مفهوم العلم مما لا يتفق عليه المسلمون؛ لما يؤول إليه من القول بأن مسألة الألوهية غير علمية، ثم إلى القول بأن الدين ليس علمًا. فيتحتم وصفه بالضد وهو الجهل.

وهذا الخلط في المفاهيم والمصطلحات تنبه له الشيخ المرصفي، فألف في ذلك كتابًا اسمه "الكلم الثمان" رصد فيه التغيرات التي طرأت على عدة مصطلحات فغيرت من مدلولها وحقيقتها.

انبهر المسلمون في بداية عصر النهضة حينما اصطدموا بالحضارة الغربية فوجدوها قطعت شوطا كبيرا في التقدم العلمي، شعر بذلك الشيخ عبد الرحمن الجبرتي[1] والشيخ حسن

(1) الجبرتي: هو عبد الرحمن بن حسن برهان الدين الجبرتي (1756-1825م)، مؤرخ مصري عاصر الحملة الفرنسية على مصر، وصف تلك الفترة بالتفصيل في كتابه: (عجائب الآثار في التراجم والأخبار)، والمعروف اختصارًا بـ(تاريخ الجبرتى)، كان فقهيًا حنفيًا، وبعد وفاة والده عكف على خزانته التي احتوت نفائس الكتب يستزيد من علوم الفلك والحساب والهندسة وغير ذلك، مما اكسب الجبرتى ملكة النقد والتحليل.

العطار[1] والشيخ رفاعة الطهطاوي، عندما وجدوا دقة تنظيم الجيوش الفرنسية مقارنة بسوء تنظيم جيوش المماليك. بعدما لاحظوا تطور البندقية على ما لديهم من آلات ومعدات، وذلك على الرغم من أن مكتشف البارود هو حسن الرماح[2] .

وفي ذات الوقت كان الفرنسيون يأتون لتعلم الرياضيات على يد الشيخ حسن الجبرتي؛ ولكن سرعان ما تحرك المسلمون لاستدراك ما فاتهم، فأرسل الشيخ حسن العطار تلميذه رفاعة الطهطاوي إلى فرنسا ضمن البعثات العلمية التي كان يبعثها محمد علي، وطلب منه أن يرسل له خطابات بأدق تفاصيل تلك البلاد؛ ليعلم منها سر تقدمهم المادي الذي وصلوا إليه، وبالفعل كان الشيخ رفاعة الطهطاوي يرسل له جميع التفاصيل حتى صنف مؤلفه الشهير " تخليص الإبريز في تلخيص باريز" وهو عبارة عن الرسائل التي أرسلها رفاعة الطهطاوي إلى شيخه حسن العطار.

---

(1) حسن العطار: الشيخ حسن بن محمد بن محمود العطار (1766-1180هـ/1835-1250م) كان شيخًا للأزهر، ولد بالقاهرة،. رزق حظًا كبيرًا من التوفيق في الدعوة إلى إصلاح التعليم بالبلاد كلها، فالمدارس العالية الفنية التي أنشئت بمصر في ذلك العهد كالهندسة والطب والصيدلة، هي الاستجابة الحقيقية لدعوة العطار وتطلعاته ونداداته بحتمية التغيير للأحوال في البلاد، كما كانت الكتب التي ترجمت بالمئات في عصر محمد علي، هي الصدى المحقق لأفكار العطار.

(2) نجم الدين حسن الذي اشتهر بحسن الرماح، وهو قائد ومخترع عبقري، قام بتطوير واختراع الأسلحة الحربية التي كانت السبب في انتصارات العرب على الغرب، وحسن الرماح من العباقرة الذين حفروا أسماءهم في التاريخ وينسب إليه اختراعات لا تحصى مثل اختراع القنابل المتفجرة، وأهم ما قام به حسن الرماح باختراعه هو الطوربيد في العهد المملوكي وله العديد من المؤلفات أيضا.

كان جل هم الشيخ حسن العطار إعادة النهضة من الحوزة الأزهرية، وعندما لاحظ ذلك الطلبة الفرنسيون نقلوا إلى بلادهم أن هناك شيئا يحدث في مصر يؤدي إلى النهضة والحضارة المادية يقوم على اللغة العربية، وقضية التوثيق والنظام الأخلاقي، فجاء نابليون(1) وتعمد قتل العلماء، فكان يقتل كل يوم خمسة من العلماء كما أشار إلى ذلك الجبرتي، وذكرته أيضا الدكتورة ليلى عنان(2) في كتابها عن الحملة الفرنسية مترجما من مذكراته؛ أي: قتل ما يقارب 1800 عالم في السنة، كانوا هم ثمرة مرتضى الزبيدي، ومدرسة عبد القادر البغدادي، لإحياء ما كان من نهضة لأجل الدخول إلى الحضارة المادية(3).

إذن فالاستعمار حقا ضربنا في مقتل، ولذلك ينسب كثير من المفكرين العديد من مشاكلنا إلى الاستعمار، ومن بعده ظللنا فترة نتتقل من عثرات إلى عثرات متتالية، من احتلال الإنجليز، إلى احتلال الصهاينة لفلسطين، إلى الهزيمة النكراء في 67، وبعدها مكثنا نسعى لتحرير أراضينا والاستقلال بإرادتنا.

---

(1) نابليون بونابرت: جنرال فرنسي (1769-1821م) إيطالي المولد، ينتمي إلى عائلة إيطالية نبيلة، درس بفرنسا والتحق بأكاديمية باريس العسكرية وخدم في مدرسة تدريب ضباط المدفعية، وكان متفوقا في الرياضيات. فقاد الحملة الفرنسية على مصر عام 1798م.

(2) الدكتور ليلى عنان، وكتابها (الحملة الفرنسية: تنوير أم تزوير): مؤلفاتها لعبت دورا مهما في إعادة صياغة مفهوم الحملة الفرنسية علي مصر، وأثبتت من خلال كتابات مؤرخي الحملة الموضوعيين النزهاء أن جيش نابليون بونابرت غزا مصر بالمدفع وليس بالكتاب، وبالخوازيق والبارود وليس بالمطبعة والعلماء.

(3) انظر: كتابنا حكاية الإرهاب، وكتاب العلامة محمود محمد شاكر الطريق إلى ثقافتنا، وكتاب الدكتور محمد البهي: الفكر الغربي وصلته بالاستعمار.

ولكن بقيت مشكلة تكلم عنها الأستاذ مالك بن نبي وهي: القابلية للاستعمار، فالمسلمون عندهم كل ما يؤهلهم إلى صناعة حضارة تنقذ العالم مما هو واقع فيه من محو لكل ما هو إنساني، ولكنَّ فكرة الاضطهاد ونظرية المؤمرة التي نعلق بها كل أخطائنا، ونأخذ من الغرب كل فاسد، ونترك كل دافع للنهضة.

العلم والعمل مدخلان لتحقيق النهضة

العمل والعلم هما أعمدة بناء النهضة في العالم الإسلامي، ولكن أيهما يسبق الآخر؟

هناك ما يسمى عند علماء الحضارة بمفهوم الدائرة، حيثما وضعت يدك على أي نقطة في محيط الدائرة، فأنت في البداية والنهاية معًا؛ ولذلك فليس هناك ترتيب خطي بمعنى الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، فمن حيث استطعت فابدأ في بناء النهضة، حسب ما يتاح لك من إمكانات، أو يواتيك من ظروف، سواء كانت البداية العلم أم العمل أو هما معًا.

وقد كان إرسال النبي صلى الله عليه وسلم، وهو المؤيد من ربه في حياته وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، تغير لوجه البشرية كلها قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [1]

ففي الآية أَنَّ إرسال النبي صلى الله عليه وسلم مَظْهَرُ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِلنَّاسِ كَافَّةً وَبِأَنَّهَا رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ.[2]

ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن الله أرسل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة لجميع العالم، مؤمنهم وكافرهم. فأمَّا مؤمنهم فإن الله هداه به، وأدخله بالإيمان به، وبالعمل بما جاء من عند الله الجنة. وأمَّا كافرهم فإنه دفع به عنه عاجل البلاء الذي كان ينزل بالأمم المكذّبة رسلها من قبله[3]. اهـ.

فرسالته صلى الله عليه وسلم لم تكن مقصورة على العرب فقط بل العالم أجمع قال تعالى:

---

1 - سورة الأنبياء، الآية : 107.

2 - انظر: التحرير والتنوير 17/165.

3 - تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (18/ 552).

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا ﴾[1].

وهناك شق في السيرة النبوية مهم جدا، يختلف عن أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله، ألا وهو حال العالم قبل الرسول صلى الله عليه وسلم وبعده، ما الذي حدث في العالم؟ في روما، ومصر، والهند، والصين في الجنوب، وفي اليمن والحبشة، وفي الشام، وفارس، والعراق...إلخ. وكيف أصبحت هذه البلاد بعد مقدم النبي صلى الله عليه وسلم وكيف كانت قبله؟

وقد دعا الدكتور سليمان حزين[2]-رحمه الله تعالى- إلى دراسة المناخ قبل مجيء النبي صلى الله على وسلم كعامل من عوامل إرسال النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ إن للمناخ دافعًا وتأثيرا يدعو الناس للإيمان بالله سبحانه وتعالى، وقد كتب هذا في رسالته[3] التي أخذ بها الدكتوراة من لندن، وقد ناقش فيها أحوال الفترة الزمنية السابقة للنبي صلى الله عليه وسلم من أجل أن يلتمس منها ما الذي بُني، وكيف بني حتى يكون نموذجًا لبناء النهضة في أي

1 - سورة الشورى، الآية: 7.

(2) سليمان حزين (1909- 1999)، تخرج من كلية الآداب قسم الجغرافية، أسس جامعة أسيوط عام 1955، وكان أول رئيس لها، كما شغل منصب وزير الثقافة، ثم اختير رئيسا للاتحاد الجغرافي العربي، وقد أنشأ المعهد الثقافي المصري بلندن عام 1943م، وكذلك هيئة اليونسكو بلندن وباريس عام 1944م، وأسس قسم الجغرافيا بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية عام 1947م، ومن مؤلفاته حضارة مصر أرض الكنانة، مستقبل الثقافة في مصر العربية. وهو من أبرز الجغرافيين العرب، ومن أبرز مؤسسي المدرسة الجغرافية المصرية، وقد أثرى الدكتور حزين المكتبةَ العلمية بالعديد من المؤلفات التي زادت على مئة مؤلفٍ علمي باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية.

(3) كانت بالإنجليزية قبل أن تترجم أخيرا إلى اللغة العربية.

زمان ومكان.

وقد اهتم بهذا أيضا سليمان الندوي[1] وشبلي النعماني[2] في كتابهما الرائع حول سيرة النبي صلى الله عليه وسلم والذي ترجم أخيرا إلى اللغة العربية في سبع مجلدات[3]. إذن فقد عني الباحثون ببيان كيف كان حال الناس قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم؟ وكيف تغير بعد مقدمه صلى الله عليه وسلم؟ وما هو ذلك التغير؟

فالنبي صلى الله عليه وسلم عندما جاء غيَّر المفاهيم، وغيَّر المصطلحات، دعا المسلمون إلى العلم والعمل معا، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[4] فالإيمان نوع من أنواع العلم القلبي.

وقد ربط الله عز وجل دائمًا بين الإيمان والعمل الصالح، فالإيمان في القرآن مقرون بالعمل الصالح.

فإذا ما أردنا أن نصل إلى مستوى رائق من العلم وهذا في ذاته عمل، فما الذي علينا أن

(1) المؤرخ اللغوي الأديب المحقق السيد سليمان الندوي الحنفي النقشبندي هو رئيس علماء الهند: ورئيس المجمع الإسلامي العريق (دار المصنفين) لكهنؤ، ومؤسس مجلة (معارف) العلمية الشهيرة، (1302 - 1373هـ).

(2) هو شِبْلي حبيب الله بن سراج الدولة النعماني، أحدُ أبرز علماء الهند في العصر الحديث، وأحد أعلام النهضة الأدبية والعلمية بها، ومن رواد الإصلاح والفكر الإسلامي الذين ساهموا بجهود ملموسة في حركة الأدب والتاريخ والدعوة الإسلامية في شبه القارة الهندية.

(3) ألف النعماني المجلدين الأولين من هذا الكتاب ، وأكمله الندوي في سبعة مجلدات كبار، وهذا الكتاب مؤلف باللغة الأردية

(4) سورة محمد، الآية :2.

نبدأ به؟

علينا أن نبدأ بالأركان الخمسة للتعليم، فنبدأ بإعداد المدرس، وإعداد الطالب، وإعداد المناهج، وإعداد الكتب، وإعداد الجو العلمي الذي يشمل الأنشطة، ويشمل الامتحانات، والأبنية التعليمية.

وعلى سبيل المثال إذا ما أردنا إعداد المناهج التعليمية نجد أن منهج كالرياضيات له في العالم نماذج كثيرة جدا، ومنها ما أوشك على الكمال كالذي يدرس في فنلندا وسنغافورة، وبمجرد بدء المقارنة بين المنهجين؛ لتخير أفضلهما فقد بدأت مرحلة العمل.

وإذا ما تم الاختيار تبدأ مرحلة الترجمة إلى اللغة العربية؛ لأن اللغة و الفكر وجهان لعملة واحدة، فإذا صحت اللغة صح الفكر، واستطعنا أن نبدع، أما إذا أصبحنا نتكلم لغة لا نفهمها الفهم التام، ولا نعيشها المعيشة التامة، ونفكر بلغة أخرى غير التي ننطق بها، وغير التي تربينا عليها، فلا يمكننا أن نبدع أبدا.

فاليابان مثلا لم تستطع أن تقوم من كبوتها بعد الحرب العالمية الثانية وبعد القنابل الذرية التي ألقيت على هيروشيما ونجازاكي إلا بأن تتكلم اليابانية، وليس صحيحا أن الشعب الياباني ينطق الإنجليزية أو يعيش فيها؛ بل يترجم كل يوم آلاف الصفحات من سائر لغات العالم إلى اليابانية، وكذلك الحال في الصين وألمانيا وفرنسا...إلخ.

فكما لا بد في بناء الحضارة من العلم والعمل كذلك لا بد من الاهتمام باللغة حتى نصل إلى الإبداع والتفكير والانطلاق.

ولا تناقض ولا تفاضل عندنا بين العلوم الشرعية والعلوم الكونية، أو النظرية والتجريبية؛ لأن الأمة تحتاجهم جميعا؛ ولابد علينا أن نوفي تلك الحاجة، بأن نهتم بالعلوم النظرية وبالعلوم الشرعية، وبالعلوم التجريبية الكونية على نحو متكامل حتى لا نصير

كالأعرج، الذي لا يستطيع الجري، ولا يحوز السبق، فاستخدام منطق العرج، وهو الاهتمام بشيء على حساب الآخر، سيوصلنا حتما إلى نتائج فاشلة.

كان لدينا رجل عظيم جدا من أولياء الله الصالحين، كان اسمه "أبو الخير أبو سعيد"(1)، وهو زميل وصديق "ابن سينا"، كان يقول: (ما رأيته ببصيرتي رآه ببصره، وما عرفه بعكَّازته توصلتُ إليه بمعرفتي). ويقصد بعكازته العلم، وكأنه يريد أن يقول: إن الحقائق التي كتبها ابن سينا في العلم التجريبي المحسوس هي التي توصل إليها أبو الخير بالذكر والفكر، إلى هذا الحد يمكن أن يحدث التناغم والتجانس في المعرفة الإشراقية والمعرفة التجريبية .

عندما أعلن الأمريكان أنهم قد وصلوا إلى القمر، قام بعض أصحاب فكر الْعَرَج ممن ينكرون علوم الهيئة والفضاء بإنكار ذلك والقول بأنه من المستحيل، فألف السيد "عبد العزيز بن الصديق" كتابًا ذكر فيه أن الوصول إلى القمر بهذه الكيفية ذكره سيدي "محيي الدين بن عربي" في "الفتوحات"، وبين أنه لا تناقض بين الهيئة العقلية التي تسير في طريق الله، وبين الهيئة العقلية التي تسير في طريق تعمير الكون؛ لأن كلايهما من عند الله، فهذا كتاب الله المنظور وهذا كتاب الله المسطور.

---

(1) أبو الخير أبو سعيد من أشهر علماء نيسابور. العارف المتصوف، أحواله تبهر العقول اهتدى به فرق من الناس، وجالس أبا عبد الرحمن السلمي، وكان بينه وبين ابن سينا صداقة ومراسلات معروفة.

المطلق والنسبي

ينادي دعاة الحداثة والعلمانية بالشك والنسبية في كل الحقائق المطلقة، ومنها وجود الإله الخالق، فالحقيقة عند هؤلاء ليست ثابتة، بل تتغير من مكان لآخر ومن زمن لآخر؛ بل ومن شخص لآخر، ومن حال لآخر، فالحق في فلسفتهم متعدد وليس واحدا، وهذا يختلف تماما عن اعتقاد المسلمين ونموذجهم المعرفي.

وقد أشاع اللادينيون النسبية في كل شيء، بداية من الدين، ومرورا بالفن والأدب والسياسة والاجتماع، وانتهاءً بالقيم والأخلاق وسائر السلوكيات والأنشطة، على اعتبار أن الإيمان بالمطلق موضة قديمة يجب التخلص منها والثورة عليها؛ لأنه في زعمهم سمة العصور الماضية.

والدعوة إلى النسبية بدأت مع الفيلسوف الألماني "هيجل"، حيث حاول أن يوجِدَ حلّا لبعض المشكلات الفلسفية التي نشأت في ذهن الإنسان مصحوبة بالشك عند تخليه عن الإيمان بالوحي وإنكاره له.

وتتلخص فلسفة "هيجل" في أن الله موجود، والكون موجود، وأن الله قد حل في هذا الكون، فصار الكون هو الله، والله هو الكون، وهذا يعني أن الماديين على صواب؛ لأنهم لا يرون إلا الكون، والحداثة التي يدعون إليها تعني الاهتمام بهذا الكون، وهذه الفلسفة تتوافق مع تلك الدعوة.

ثم جاء ماركس فأخذ فكرة الجدلية والحتمية التاريخية من هذه الفلسفة وأنزلها على الاقتصاد والسياسة والدين، ثم جاء نيتشه (ت 1900م) فاعتبر كلام هيجل أفضل ما قيل، ولكنه أراد أن يتقدم خطوة على كلام هيجل حيث قال: إن الله ليس مفارقًا للكون، يعني ليس خارج الكون – واعتبر أن الله الذي يدعو له هيجل قد مات؛ لأنه ليس موجودًا.

وبناء على هذه الفلسفة فإن الوحي والرسالات الإلهية تصبح سرابا ووهما في أذهان أتباع الديانات، فإذا كان صاحب الوحي مات، فإن الوحي والرسالات تصبح أسطورة كبيرة، فليس هناك إلا هذا الكون.

وهؤلاء الفلاسفة والمفكرون إنما كانوا يريدون بفلسفتهم هذه الانخلاع عن سلطان البابوات، والانفصال عن هيمنة الكنيسة على حياة الناس وتدخلها في شئونهم وأفكارهم، فقد وصل من طغيان الكنيسة في أوربا وتسلطها على الناس ومحاربتها للعلوم الإنسانية والتجريبية أن أحرقت كتب كثير من العلماء وهددتهم ودمرت تراثهم العلمي، والأمثلة على ذلك كثيرة.

وأما المؤمنون بالوحي والرسالات الإلهية يعتقدون في وجود الله عز وجل، ويؤمنون أن الربَّ ربٌّ، وأن العبد عبد، وليس هناك اتحاد ولا حلول من أحدهما في الآخر، فالله شيء والكون شيء آخر. قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[2]

ومذهب النسبية يجعل الإنسان يتيه عن فطرته التي خُلق عليها، حيث لا إيمان ولا اعتقاد في مطلق أبدًا، فالإنسان حينئذ لا يمكنه التصديق بحسن شيء ولا بقبح آخر، فالصدق نسبي والكذب كذلك، والقتل نفسه نسبي؛ قد يكون ممدوحًا وقد يكون مذمومًا، لا فرق في ذلك بين الجور والعدل، ولا بين الحق والباطل، والجمال والقبح، مما يوقع الإنسان المعاصر في بئر

(1) سورة الشورى، الآية: (11).

(2) سورة الأنعام، الآية: (103).

من التعاسة والتشاؤم والاكتئاب، ويمتد شكه حتى في سعادته، وفي الرضا بواقعه وحياته، فلا يرضى بها ولا يسعى إلى تحسينها، ولا يأمل في أحسن منها، حيث لا يعرف شيئا ولا يثق بشيء مما قد يدفعه إلى ارتكاب الجرائم بمنتهى الأريحية في حق غيره أو حتى في حق نفسه بالانتحار أخيرا، حتى يقضي على الشك الذي يؤرق حياته قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤﴾[1] وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2]

والمتأمل في النموذج المعرفي الإسلامي يجد أنَّ المسلمين قد آمنوا بالمطلق، واعترفوا بالنسبي، وإيمانهم بالمطلق تمثل في إيمانهم بالله، فالله سبحانه وتعالى كان قبل الزمان والمكان والأشخاص والأحوال، أي قبل الجهات الأربع التي تحكم الواقع المعيش، والتي ينسب إليها؛ ولذلك نسمي المتغير بالنسبي، نسبي في الزمان، أو نسبي في المكان، أو نسبي في الأشخاص، أو نسبي في الأحوال، فالله سبحانه وتعالى مطلق فرد لا يحده شيء من ذلك كله.

وآمن المسلمون بمطلقية القيم، فالعدل عدل في كل الجهات الأربعة، والرحمة رحمة، والظلم ظلم، والقسوة قسوة، لا تتغير بتغير الواقع أو تبعًا لمصلحة بعض الناس دون بعض؛ لأنهم اهتدوا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا

(1) سورة طه، الآية: (123 – 124).

(2) سورة القصص، الآية: (50).

يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1]

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[2].

فالإيمان بالمطلق والنسبي بهذا المعنى هو أحد مكونات النموذج المعرفي في الإسلام، ومكون من مكونات العقل المسلم الذي يعيش به واقعَه ويرتضيه، وهذا يختلف مع نموذج معرفي آخر يؤمن بالنسبية في كل شيء، حتى يصل بعض منهم إلى إنكار وجود الخالق، وإنكار أن يكون هناك رسالة أو وحي مقدس، ومنهم من يشكك في هذه الحقائق، ويوجب تنحيتها عن الواقع والاعتقاد، ويصير الإيمان بالله مسألة شخصية قابلة للتعدد والتغيير والتبديل. كما تصير الأخلاق مسألة نسبية تتفاوت من شخص لشخص ومن حال لحال .

ومما لا شك فيه أنَّ عدم الإيمان بالمطلق يؤدي إلى الانهيار الأخلاقي، ويتحول الأمر إلى شريعة الغاب ونفقد معنى العدل والظلم، ونكون في نسبية مطلقة، هذه النسبية المطلقة تصل بك إلى أنَّ الكون حولك كما تراه، من يرى أنه له إله له إله، من يرى أنه لا يوجد إله فلا إله، من يرى أن العدل خير يتعامل به، ومن يراه شرا يرفضه ولا يتعامل به، وهكذا...

وعلى ذلك فلا بد من معايير أخرى. حسب نظرتهم. غير المعايير الأخلاقية حتى نقوِّم الإنسان، فتكون هذه المعايير الإنجاز أو القوة، فلا بأس عند أصحاب هذا الاتجاه أن تبيع

---

(1) الآية (8) من سورة المائدة.

(2) من الآية (152) من سورة الأنعام.

المرأة نفسها، وأن يمارس الرجل الفواحش طالما رأي أن هذا عمل وإنجاز.

وأيضًا يتغير مفهوم الحضارة، فتصير الحضارة هي الوصول بالإنسان إلى أكبر قدر من الإنتاج حتى ولو على حساب نفسه وأسرته والبيئة المحيطة به، ولو أدى ذلك إلى تدمير الكرة الأرضية، فيتحول العالم إلى وسيلة مستهلكة.

وقد ظهر هذا في الولايات المتحدة، وحاولوا أن يضع مبررا لهذا فابتكروا ما يسمى بالنظرية التعاقدية، فالعلاقة الأسرية وعلاقة الإنسان بعمله أو بغيره ما هي إلا علاقة تعاقدية، فالبنت تنتهي علاقاتها بأسرتها عند وصولها إلى مرحلة عمرية معينة، وكذلك الأب، فيوضع في دور الرعاية إذا بلغ سن الشيخوخة، فتجد تفككًا أسريًا عجيبًا، وانتشار لمعدلات الجريمة، ومن العجب أن تجد من يريد نقل هذه الأفكار إلينا كما هي، فيالله ويا للمسلمين!

إذن فالمطلق هو المتحرر من جهات التغير الأربعة: الزمان، والمكان، والأشخاص والأحوال، وعليه فالأخلاق كلها مطلقة، فالكذب سيظل معيبا، والصدق سيظل ممدوحًا مهما اختلفت الجهات الأربع.

إلا أن الإطلاق له شروطه، وهذه الشروط لا تخرجه عن كونه مطلقًا، بل تقيد كيفية تحققه

ومن الأمثلة على ذلك: حرمة الخمر والخنزير، فالخمر والخنزير حرام دائما عند المسلمين، إلا أنه قد تطرأ أحوال تسمح له بتناولهما كحالة الضرورة، وحالة الضرورة مقيدة بما يدفع الهلاك يعني لايشرب حتى يرتوي أو يأكل حتى يشبع، ولكن هذا التناول لا يرفع عنهما حكم الحرمة، فتظل ماهية كلٍّ منهما محرمة إلا أنَّ شرط تعلق هذه الحرمة بالمكلف قد تغير

لحالة الضرورة قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾[1] والأمثلة على ذلك عديدة ومنها إباحة الكذب بين الزوجين بالكلام المحمود والمجاملات الطيبة تطييبًا للخاطر وتثبيتًا للروابط الأسرية، ومثاله : مَا رُوِيَ أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ عَامِلًا لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَلَمَّا رَجعَ قَالَتِ امْرَأَتُهُ: مَا جِئْتَ بِهِ مِمَّا أَتَى بِهِ الْعُمَّال إِلَى أَهْلِهِمْ؟ وَمَا كَانَ قَدْ أَتَاهَا بِشَيْءٍ، فَقَال: كَانَ عِنْدِي ضَاغِطٌ، قَالَتْ: كُنْتَ أَمِينًا عِنْدَ رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَبَعَثَ عُمَرُ مَعَكَ ضَاغِطًا. وَقَامَتْ بِذَلِكَ بَيْنَ نِسَائِهَا، وَاشْتَكَتْ عُمَرَ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ دَعَا مُعَاذًا وَقَال: بَعَثْتُ مَعَكَ ضَاغِطًا!؟ قَال: لَمْ أَجِدْ مَا أَعْتَذِرُ بِهِ إِلَيْهَا إِلاَّ ذَلِكَ، فَضَحِكَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَعْطَاهُ شَيْئًا، فَقَال: أَرْضِهَا بِهِ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: (ضَاغِطًا) يَعْنِي رَقِيبًا، وَأَرَادَ بِهِ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.[2]

و من الأمثلة على ذلك من القرآن الكريم قول سيدنا إبراهيم عليه السلام لقومه ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾[3] فلا يعد قوله هذا كذبًا وإنما تنبيهًا لهم ولفتًا لأنظارهم لما هم فيه من سوء اعتقاد،؛ ولذلك لما رجعوا إلى أنفسهم اكتشفوا ضلالهم وكيف أن هذا القول أفاقهم من ضلالهم ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ٦٥﴾[4].

---

(1) من الآية (173) من سورة البقرة.

(2) المتقي الهندي: كنز العمال رقم (37507).

(3) من الآية (63) من سورة الأنبياء.

(4) سورة الأنبياء64-65.

فشروط تطبيق المطلق هي التي قد تتغير لكن تظل ماهية المطلق كما هي مطلقة.

ومن المبادئ والأسس التي ينادى بها مدعو الحداثة هدم المقاييس اللغوية، والتحرر من ثبات اللغة، زعمًا منهم أن التجديد يجب أن يشمل اللغة بنقد دلالاتها، والثورة عليها وتفكيكها، واستبدالها بما يتناسب مع المستجدات، ولا شك أن في هذا القول فقدانا للهوية وقطع لروابط التواصل بين الأجيال.

فاللغة هي البوابة التي ينفذ منها الحداثيون لهدم الثرات، ثم يستتبع تحريف القرآن والقضاء على الثوابت التي يقوم عليها الدين ككل.

فالثوابت التي لا يمكن المساس بها في الفكر الإسلامي الوحي واللغة والإجماع ؛ حيث يُعد المساس بهم مساس بهوية الإسلام ككل.

أما إذا تعلق الأمر بالمقاصد المرعية والمصالح الشرعية فيبدو لنا جليا ما في هذا الجانب من السعة والمرونة ما يسمح بالتغير والتغيير والتأثير والتأثر بما يجد وما يطرأ من أحوال.

إدراك الجزئي والكلي

من مكونات العقل المسلم، إدراكه للجزئي وللكلي.

وقد اهتم المسلمون بإبراز هذا المكون اهتمامًا بالغًا، وذكروه في كتاباتهم في الحكمة العالية، والمنطق، وأصول الفقه.

يقول الشاطبي: لما انبنت الشرعية على قصد المحافظة على المراتب الثلاث، من الضروريات والحاجيات والتحسينات، وكانت هذه الوجوه مبثوثة في أبواب الشريعة وأدلتها، غير مختصة بمحل دون محل، ولا بباب دون باب، ولا بقاعدة دون قاعدة؛ كان النظر الشرعي فيها أيضا عامًا، لا يختص بجزئية دون أخرى؛ لأنها كليات تقضي على كل جزئي تحتها، وسواء علينا أكان جزئيا إضافيا أم حقيقيا؛ إذ ليس فوق هذه الكليات كلي تنتهي إليه، بل هي أصول الشريعة، وقد تمت؛ فلا يصح أن يفقد بعضها حتى يفتقر إلى إثباتها بقياس أو غيره؛ فهي الكافية في مصالح الخلق عمومًا وخصوصًا؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾(1). وقال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾(2)

وفي الحديث: "تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لاَ يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِى إِلاَّ هَالِكٌ".(3) وقوله: " وَلاَ يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ هَالِكٌ ".(4) ونحو ذلك من الأدلة الدالة على تمام الأمر

(1) سورة المائدة، الآية: 3.

(2) سورة الأنعام ، الآية: 38.

(3) أي المحجة البيضاء. سنن ابن ماجه 16/1.

(4) صحيح مسلم 83/1.

وإيضاح السبيل.

وإذا كان كذلك، وكانت الجزئيات وهي أصول الشريعة؛ فما تحتها مستمدة من تلك الأصول الكلية، شأن الجزئيات مع كلياتها في كل نوع من أنواع الموجودات؛ فمن الواجب اعتبار تلك الجزئيات بهذه الكليات عند إجراء الأدلة الخاصة من الكتاب والسنة والإجماع والقياس؛ إذ محال أن تكون الجزئيات مستغنية عن كلياتها، فمن أخذ بنص جزئي معرضًا عن كليِّه؛ فقد أخطأ، كما أن من أخذ بالكلي معرضا عن جزئيِّه؛ فهو مخطئ.

وبيان ذلك: أن تلقي العلم بالكلي إنما هو من عرض الجزئيات واستقرائها؛ وإلا فالكلي من حيث هو كلي غير معلوم لنا قبل العلم بالجزئيات؛ ولأنه ليس بموجود في الخارج، وإنما هو مضمن في الجزئيات حسبما تقرر في المعقولات؛ فإذًا الوقوف مع الكلي مع الإعراض عن الجزئي وقوف مع شيء لم يتقرر العلم به بعد دون العلم بالجزئي، والجزئي هو مظهر العلم به. وأيضًا؛ فإن الجزئي لم يوضع جزئيا؛ إلا لكون الكلي فيه على التمام وبه قوامه.[1]

ولذا اهتم الفقهاء بالتفرقة بين الكلي والجزئي فعرفوا الكلى بأنه: ما لا يمنع نفس تصور معناه من وقوع الشركة فيه. كلفظ إنسان، فهو غير مختص بمشخص معين؛ بل هو معنى عام يصدق على كثيرين. فلو قلت لشخص: احضر لي إنسانًا، فلو أحضر لك طفلًا فقد امتثل ولو أحضر لك رجلًا فقد امتثل، ولو أحضر لك امرأة فقد امتثل.

والجزئي: ما يمنع نفس تصور معناه من وقوع الشركة فيه.

وهو ما قامت به المشخصات فشخصته، مثل: فاطمة وزينب وأحمد وهكذا، فكل منهم له

1 - الموافقات (3/ 171-175).

صفات خاصة به، طول معين، ومولد معين، وله جسم معين، وشكل معين، فالمقصود به شخص واحد فقط وهو ما نقصده، وهو هذا الجزئي، فلو قلت لشخص احضر لي فاطمة، لا يجوز له إلا أن يحضر فاطمة بعينها.

وبعدما عرف المسلمون الكلي والجزئي انتقلوا لبحث هذا الكلى ما هو؟ وما درجاته؟ وعلام يصدق؟

لم يجد المسلمون حرجًا في الاستفادة من غيرهم من الأمم إذا ما سبقوهم في علم من العلوم إذا ما استطاعوا توظيف ذلك إلى ما يتوافق مع الذهن واللسان العربي وفيما يخدم الشريعة عملًا بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الكَلِمَةُ الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ، فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا» [1] ومن ذلك استفادتهم بما وصل إليه الفكر الأرسطي الإغريقي في الحديث عن الكلي والجزئي؛ حيث وجدوا هذا المبحث موجودًا عند أرسطو في حديثه عن الكليات الخمس التي سماها في منطقه الصوري (بالجنس، والفصل، والنوع، والعرض، والخاصة) فنقلوه عنه.

فالمنطق العربي هو علم من العلوم التي أخذت كثيرًا عن المنطق الصوري "لأرسطو" ولذا فإنه يعد مثالًا يحتذى في كيفية التعامل مع الفكر الغربي.

حيث استطاع العقل المسلم أن يتعلم ثقافتهم ويستفيد منها وينقحها ويجردها مما لا

---

1 - أخرجه الترمذي في جامعه5/51/ح 2687، وقال: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْهِ وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ الْفَضْلِ الْمَخْزُومِيُّ يُضَعَّفُ فِي الحَدِيثِ مِنْ قِبَلِ حِفْظِهِ»، وانظر : المقاصد الحسنة للسخاوي ص310.

يتناسب معه، ثم يطورها ويدخلها في نسيجه.

ثم فرق المسلمون في حديثهم بين الكل والكلية، فبينوا أنَّ الحكم على الجميع هو الكلية، بينما الحكم على المجموع هو الكل.

فَالكُلُّ حُكْمُكَ عَلَى المَجْمُوعِ كَكُلِّ ذَاكَ لَيْسَ ذَا وُقُوعِ
وَحَيْثُ مَا لِكُلِّ فَرْدٍ وَقَعَا فَإِنَّهُ كُلِّيَّةً قَدْ عُلِمَا (1)

فما الفرق بين المجموع والجميع، والكلِّ والكليةِ؟

فالكلُّ هو ما لا يتبع الحكم فيه كل فرد من أفراده، بل يكون الحكم على الكل بالمحمول على مجموعه كما في قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ (2)

وأما الكلية: فيتبع الحكم فيها كل فرد من أفرادها؛ نحوَ: كل إنسان حيوان. أي: كل فردٍ مِن الإنسان محكوم عليه بالحيوانية.

فالكلية هي: استغراق الحكم لجميع أفراد المحكوم عليه.

والكل: عدم استغراق الحكم لجميع الأفراد.

وبالمثال يتضح الحال، ومن الأمثلة التي توضح ذلك:

أمر الله عز وجل المسلمين بصلاة الجنازة؛ لكنه أمر على سبيل الكفاية وليس العينية. بمعني أنه لو صلى بعض المسلمين، فقد صلى المسلمون صلاة الجنازة على هذا الميت؛ لأن الأمر جاء للمجموع و ليس للجميع وهذا من قبيل الكل.

---

(1) شرح الشيخ الدمنهوري "إيضاح المبهم"على "السلم المنورق" للأخضري ص:8 .

(2) سورة الحاقة، الآية : 17.

وكذلك أمر بالصلوات الخمس؛ لكنه أمر على العينية، أي أنَّ الأمر يشمل جميع الأفراد ولا يرتفع عن أحد، وهذا من قبيل الكلية.

وهذه التفرقة مما يفرق به بين الحكمين الشرعيين فرض الكفاية وفرض العين كما بينا، ففرض الكفاية: إذا قام به بعض المكلفين رفع الحرج عن الباقين.

وسنن الكفاية مثل: رد السلام، وتشميت العاطس، والأذان، والإقامة، وأمثال هذه الأشياء هي سنة كفاية لو قام بها بعضهم سقطت عن الآخرين؛ لأنَّ الأمر فيها جاء للمجموع وليس للجميع.

أمَّا فرض العين: فلا بد أن يقوم به كل مكلف بعينه؛ كالصلاة والصيام .

وعبر عن هذا المعنى الإمام القرافي تعبيرًا غاية في الروعة، فقال : الأفعال قسمان: منها ما تتكرر مصلحته بتكرره ، ومنها ما لا تتكرر مصلحته بتكرره.

فالقسم الأول: شرعه صاحب الشرع على الأعيان تكثيرًا للمصلحة بتكرر ذلك الفعل، كصلاة الظهر فإن مصلحتها الخضوع لله تعالى وتعظيمه ومناجاته والتذلل له، والمثول بين يديه والتفهم لخطابه والتأدب بآدابه، وهذه المصالح تتكرر كلما كررت الصلاة.

والقسم الثاني: كإنقاذ الغريق إذا شاله إنسان فالنازل بعد ذلك في البحر لا يحصل شيئا من المصلحة، فجعله صاحب الشرع على الكفاية نفيًا للعبث في الأفعال وكذلك كسوة العريان وإطعام الجيعان ونحوهما.[1]

فمحل النظر في فروض الكفاية هو "الفعل"، فيتحتم فعله من غير النظر إلى ذات الفاعل؛

1 - أنوار البروق في أنواع الفروق (1/ 470).

لأنه مقصود بالجملة.

أما فروض العين فالنظر فيها إلى الفاعل؛ بحيث يتحتم على كل شخص فعلها، ويلام ويأثم من لم يفعلها

قال الإمام القرافي: "فرض العين مهم متحتم مقصود حصوله منظور بالذات إلى فاعله حيث قصد حصوله من عين مخصوصة، كالمفروض على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم دون أمته، أو من كل عين عين، أي: واحد واحد من المكلفين.

وفرض الكفاية مهم متحتم مقصود حصوله من غير نظر بالذات إلى فاعله، أي: يقصد حصوله في الجملة، فلا ينظر إلى فاعله إلا بالتبع للفعل ضرورةَ أنَّ الفعل لا يحصل بدون فاعل سواء كان دينيا كصلاة الجنازة أو دنيويا كالصنائع المحتاج إليها. قال الأمير على عبد السلام على الجوهرة : والحق أن العيني أفضل لمزيد الاعتناء فيه" [1] .

إذن فالتفرقة بين الكلي والجزئي من الأمور المهمات لتعلقها بالأحكام الشرعية كما بينا؛ وهي مكون رئيس من مكونات العقلية الإسلامية.

---

1 - أنوار البروق في أنواع الفروق (1/ 474).

إدراك الواقع

يعد إدراك الواقع مكونًا أساسيا من مكونات النموذج المعرفي الذي يتمييز به العقل المسلم، ويقصد به إدراك العوالم الأربعة الذين تتغير على أساسها الأحكام، وهم:

عالم الأشياء، وعالم الأشخاص، وعالم الأحداث، وعالم الأفكار، وما يحيط بها ويربطها وهو عالم النظم.

فإدراك هذه العوالم هو الجسر الذي يربط بين النص وإنزاله على الواقع، وهو الذي يجعل النص صالحًا لكل زمان ومكان متحققًا بغاياته ومضمونه وليس متمسكًا بظاهره وألفاظه؛ ولذلك فلا يمكن لكل شخص عبور هذا الجسر مكتفيًا بإدراكه الشخصي في إسقاط النص على الواقع، بل لا بد لمن يتصدر لهذا أن يكون متسلحًا بأسس لا يمكن تجاوزها في عملية الربط بين الواقع بعوالمه المختلفة والنص، وما يشتمل على أحكام، وهذه الأسس هي:

(1) اللغة العربية، والتي هي وعاء المنطق العربي المتصل بالفطرة الإسلامية.

(2) الإجماع، والذي ينبغي على الساعي إلى الفهم ألا يخرقه أو يتجاهله.

(3) المقاصد الكلية للشريعة، من حفظ الدين والنفس والعِرض أو النسل والعقل والمال.

(4) النموذج المعرفي- وهو ما نسميه بالعقيدة أو الرؤية الكلية.

(5) القواعد الفقهية أو المبادئ العامة للشريعة: من قبيل: لا ضرر ولا ضرار، لا تزر وازرة وزر أخرى..إلخ.

فإدراك الواقع من حيث تعلقُه بالزمان والمكان وما يصاحبهما من أعراف وعادات، يلزم عنه أحكامًا تتناسب معه، قد تتغير وتختلف من واقع لآخر اختلف فيه الزمان والمكان، كما أن إدراكه من حيث حال المكلف من كونه في حال سعة أو حال اضطرار يلزم عنه تغيير الحكم

بين الحالتين.

وهذا ليس مما هو مستحدث، بل هذا من الأصول التي بُنِيَ عليها الفقه الإسلامي مستنبطا ذلك من الكتاب والسنة وحال الصحابة والتابعين.

وقد نقل العلامة الزركشي عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام أنه قال: يحدث للناس في كل زمان من الأحكام ما يناسبهم، وقد يتأيد هذا بما في البخاري عن عائشة أنها قالت: لو علم النبي – صلى الله عليه وسلم – ما أحدثته النساء بعده؛ لمنعهن من المساجد.

وقول عمر بن عبد العزيز: يحدث للناس أقضية على قدر ما أحدثوا من الفجور. أي: يجددون أسبابًا يقضي الشرع فيها أمورًا لم تكن قبل ذلك؛ لأجل عدمه منها قبل ذلك، لا لأنها شرع مجدد[1].

وقد عبر الفقهاء عن هذا بقاعدة فقهية مضيئة تقول: "لا ينكر تغيير الأحكام بتغيير الزمان"[2]، وهي من القواعد المتفرعة عن إحدى القواعد الخمس الكبرى وهي قاعدة: "العادة مُحكمة".

فينبغي على المفتي أن يدرك النص، ويدرك الواقع، وأن يكون لديه الملكة – وليس فقط محض الإدراك – للوصل بينهما، مراعيا تحقق المقاصد الشرعية، والمصالح المرعية غير خارج عن الإجماع، وقواعد اللغة العربية في فهم النص.

ونبين بشيء من الإجمال كيف يتغير الواقع من خلال تغير عوالمه المختلفة:

---

1 – البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي 1/ 220– 219.

2 – شرح القواعد الفقهية للزرقا ص: 149.

تتغير عادات الناس وأعرافهم وأحوالهم وفقًا لتغير الزمان والمكان المحيط بهم، وهذا من السنن الكونية التي لا تتبدل، ومن المعلوم أن التشريع الإسلامي جاء صالحًا لكل زمان ومكان، فلزم عن ذلك أن تتغير الأحكام التي هي مرتبطة بالزمان أو بالمكان.

ويبدو ذلك جليًا في نصوص الوحي الشريف ومن ذلك: نهى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن ادخار لحوم الأضاحي في عام، وأجازه في العام التالي له، وعندما سئل في ذلك بيَّن أن تغير الزمن والحال كان هو الأصل في النهي والإباحة.

فعن سلمة بن الأكوع -رضي الله عنه- قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم «مَنْ ضَحَّى مِنْكُمْ فَلَا يُصْبِحَنَّ بَعْدَ ثَالِثَةٍ وَبَقِيَ فِي بَيْتِهِ مِنْهُ شَيْءٌ فَلَمَّا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ نَفْعَلُ كَمَا فَعَلْنَا عَامَ الْمَاضِي قَالَ كُلُوا وَأَطْعِمُوا وَادَّخِرُوا فَإِنَّ ذَلِكَ الْعَامَ كَانَ بِالنَّاسِ جَهْدٌ فَأَرَدْتُ أَنْ تُعِينُوا فِيهَا».[1]

وفي بعض الروايات: «إِنَّمَا نَهَيْتُكُمْ مِنْ أَجْلِ الدَّافَّةِ»[2]

أفاد الحديث: أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن ادخار لحوم الأضاحي بعد ثلاثة أيام في حالةٍ معينة، ولعلَّةٍ طارئة، وهي وجود ضيوف وافدين على المدينة، فكان يجب أن يوفر لهم ما يوجبه كرم الضيافة من لحم الضحايا، فلما انتهى هذا الظرف العارض، وزالت هذه العلة الطارئة، زال الحكم الذي أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم تبعا لها، إذ المعلول يدور مع

1 - متفق عليه : أخرجه البخاري في صحيحه 7/103/ح 5569، ومسلم في صحيحه 3/1563/ح 1974من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه.

2 - أخرجه مسلم في في صحيحه 3/1563/ح 1971من حديث عبد الله بن واقد.

علته وجودًا وعدماً، وتغيرت الفتوى من المنع إلى الإباحة، فقال صلى الله عليه وسلم «إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ لُحُومِ الْأَضَاحِيِّ فَوْقَ ثَلَاثٍ كَيْمَا تَسَعَكُمْ، فَقَدْ جَاءَ اللهُ بِالْخَيْرِ، فَكُلُوا، وَادَّخِرُوا»[1] فهذا مثلٌ واضحٌ لتغير الفتوى بتغير الأحوال.

أما عن تغير الفتوى من أجل تغير الأشخاص فالأمثلة على ذلك عديدة ومنها: فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فجاء شاب، فقال: يا رسول الله، أقبّل وأنا صائم؟ قال: لا، فجاء شيخ، فقال: يا رسول الله، أقبّل وأنا صائم؟ قال: نعم، فنظر بعضنا إلى بعض، فقال رسول الله: «قد علمتُ نَظر بعضِكم إلى بعضٍ، إن الشيخ يَمْلِك نَفْسه»[2]

فيلاحظ كيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الموضع أجاب الشاب على سؤاله بجواب يختلف عن إجابته للشيخ رغم أن السؤال واحد، مما يدل على أن الحكم يتغير بتغير حال الشخص.

كما تختلف الفتوى من كون السائل شخصية طبيعية أم شخصية اعتبارية، وهي المتمثلة في الجهات كالشركات والبنوك، ولها أحكام تختلف عن أحكام الشخصية الطبيعية، حيث لا يوجد لها نفس ناطقة تحتاج إلى شعور ويخشى عليها من سوء الخلق ودناءة الطبع.

ومن الأمثلة على ذلك اتفاق الفقهاء أنَّ الكفالة بأجر لا تجوز بين الأشخاص الطبعيين لما في ذلك من فقدان معنى المرؤة، وقد عبر عن هذا الفقهاء بأن الكفالة عقد تبرع يقصد به

---

1 - أخرجه الإمام أحمد في مسنده 34/328/ح 20729.

2 -أخرجه الإمام أحمد في مسنده 11/630/ح 7054.

الأرفاق والإحسان، ولذا لا يجوز فيه أخذ العوض.

بينما أجازوا الأجر في الكفالة من الشخصية الإعتبارية كالبنوك مثلا؛ لعدم تصور معنى المروة والإحسان فيها أصلا، وعلى ذلك فأصبح للشخصية الاعتبارية أحكاما مغايرة عن الشخصية الطبيعية.

كما تختلف الفتوى من مكان لمكان، كالأحكام التي لا بد منها في بلاد السلم قد يتجاوز عنها في بلاد الحرب، والأحكام التي تتعلق ببلاد المسلمين قد لا يصح العمل بها في بلاد غير المسلمين، وهكذا.

وقد بيَّن العلامة القرافي المالكي أن المفتي إذا جاءه رجل يستفتيه عن لفظةٍ من الألفاظ التي تختلف بها البلدان، فلا يفتيه بحكم بلده، بل يسأله هل هو من أهل بلد المفتي فيفتيه حينئذ بحكم ذلك البلد[1].

وقال:" إنَّ إجراء الأحكام التي مَدْركُها العوائد مع تغير تلك العوائد: خلاف الإجماع وجهالة في الدين، بل كل ما هو في الشريعة يتبع العوائد: يتغير الحكم فيه عند تغير العادة إلى ما تقتضيه العادة المتجددة ، وليس هذا تجديدًا للإجتهاد من المقلدين حتى يشترط فيه أهلية الإجتهاد ، بل هذه قاعدة اجتهد فيها العلماء وأجمعوا عليها فنحن نتبعهم فيها من غير استئناف اجتهاد"[2].

وقال أيضًا: "فمهما تجدد في العرف اعتبره، ومهما سقط أسقطه، ولا تجمد على المسطور في

1 - الفروق للقرافي = أنوار البروق في أنواء الفروق (1/ 46).

2 - الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام (ص: 218).

الكتب طول عمرك... والجمود على المنقولات أبدًا ضلالٌ في الدين، وجهل بمقاصد علماء المسلمين والسلف الماضين، وعلى هذه القاعدة تتخرج أيمان الطلاق والعتاق وصيغ الصرائح والكنايات، فقد يصير الصريح كناية يفتقر إلى النية[1].

ولا يقصد بذلك أنَّ أحكام الشريعة كلها قابلة للتغيّر؛ لأن أحكام الشريعة، تنقسم إلى قسمين :

1- ما هو ثابت دائم لا مجال فيه للتغير والاختلاف، مهما تغيّرت الظروف والأحوال كوجوب الواجبات، والحدود المقررة بالشرع على الجرائم إذا تحققت شروطها، ونحو ذلك، فهذا لا يتطرق إليه تغيير ولا اجتهاد يخالف ما وضع عليه.

2- ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة له، زمانا ومكانا، وحالًا، كمقادير التعزيرات وأجناسها وصفاتها، فإنّ الشرع ينوِّع فيها بحسب المصلحة، وهذا يدل على مرونة الشريعة وسعتها.

يقول صاحب درر الأحكام في شرح مجلة الأحكام: "إنَّ الأحكام التي تتغير بتغير الأزمان هي الأحكام المستندة على العرف والعادة؛ لأنه بتغير الأزمان تتغير احتياجات الناس، وبناء على هذا التغير يتبدل أيضا العرف والعادة وبتغير العرف والعادة تتغير الأحكام"[2] .

وقد اعتبر علماء الحضارة في العصر الحديث تغير الأزمنة في حسابهم للقرون فجعلوا

1 - الفروق للقرافي = أنوار البروق في أنواء الفروق (1/ 177).

2 - درر الحكام في شرح مجلة الأحكام (1/ 72).

بدايات القرون تتميز بالعلامات الفارقة التي كان لها آثر واضح في تغيير الزمان، فقالوا: إنَّ القرن التاسع عشر لا يبدأ من 1800م، بل يبدأ سنة 1760م، وهو تاريخ الثورة الصناعية الكبرى حيث دخلت الآلة إنجلترا، فصاحَب ذلك نقلة وتغيرًا كبيًرا في الزمان.

ومما لاشك فيه أن الزمان قد تغير تغيرًا جذريا منذ بدأت الاختراعات تنهال على البشرية بداية من اختراعات أديسون التي تجاوزت الألف ومئة اختراع ومن ضمنهم المصباح، وقوة البخار، وغير ذلك، واختراعات فرانكلين 1830م الذي قام بعمل الصاعقة، فكان علامة من العلامات الفارقة في تغيير الزمان وتاريخ البشر ، ووصولا إلى اختراعات القرن العشرين والطفرة الكبرى التي صاحبت التطور الكبير في عالم التواصل والاتصالات؛ حتى طويت المسافات وأصبح العالم كله كالقرية الواحدة (Globa village)[1]، يرى الواحد منا ما يحدث في بلاد بينه وبينها مسافات طويلة في لحظة وقوعه، وذلك مثلما رأينا أحداث 11 من سبتمبر مباشرة فيما عرف ب (On air) بينما كان الأمريكان أنفسهم لم يروها بعد.

كما طوي الزمن فأصبح الإنسان لا يعيش أمسه في يومه، ولا يعيش يومه في غده، وكل هذا ساعد على تغيير العلاقات الاجتماعية، وبالطبع كان لا بد لمسايرة كل هذه التغييرات، أن

---

(1) وهذا ما يعرف بالعولمة ، ومعناها :جعل الشيء عالمي أو جعل الشيء دولي الانتشار في مداه أو تطبيقه، وتستخدم العولمة للاشارة إلى تكوين القرية العالمية أي تحول العالم الكبير إلى ما يشبه القرية لتقارب الصلات بين الأجزاء المختلفة من العالم مع ازدياد سهولة انتقال الأفراد، التفاهم المتبادل والصداقة بين سكان الارض.

"Global village" is a term closely associated with Canadian-born Marshall McLuhan, the world, especially considered as the home of all nations and peoples .living interdependently

تتغير الوقائع وتتغير المصالح والمقاصد، فإذا ما غاب هذا عن إدراك المسلمين كانوا كمن تأخر عن الركب ففاته الكثير.

ويصبحون كمن يعيش في واقع آخر وعالم آخر، وذلك لا شك يخل بالدور الذي أناطهم الله به، وهو الاصلاح والإعمار في الأرض.

وقد أدرك الغرب كل هذه التغيرات، فأنشأوا مجموعة العلوم الإنسانية والاجتماعية التي انفصلت عن الفلسفة، أمَّا نحن فلم نقم بذلك، فكان النتيجة أنَّ المسلم يستغرب هذا الواقع، فينسحب عنه.

ومن أسباب انفصال المسلمين عن الواقع المعيش وعدم إدراكهم له: نشأة العلوم الاجتماعية والإنسانية في أحضان الغرب، واستبعادها للقضايا الغيبية، كالوحي واليوم الآخر والتكليف...إلخ ، فكانت نظرتهم للكون والإنسان والحياة تختلف عما تقول به العقيدة الإسلامية من إيمان بالله، وملائكته وكتبه واليوم الآخر والتكليف وهكذا.. ولذلك تأخر المسلمون في هذه العلوم، ولم يقوموا بإنشاء علوم أخرى تهتم بفهم الواقع وتفسيره تتوافق مع عقيدتهم وإيمانهم، فكان حتما أن يكون المسلمون بين خيارين وهما:

أولًا: إما أن يستعيروا هذه العلوم الغربية التي تهتم بدراسة الواقع على الرغم من كونها تنطلق من نموذج معرفي يختلف عن نموذجنا المعرفي المنضبط فيعشوا بذلك حالة من الانفصام بين الدين والدنيا.

ثانيًا: أن يرفضوا هذه العلوم جملة وتفصيلًا، وهم بذلك أيضا قد انفصلوا عن الواقع وعن تطوره.

فعدم اتساق ما يدرس من العلوم المستحدثة مع عقائد المسلمين تسبب في وجود شيء من أمرين يمثلا نوعًا من العرج الفكري وهما:

الأول: انبهار البعض بهذه العلوم الدنيوية بالكلية متجاهلين بذلك علوم الدين وأحكامه، وهذا نوع من العرج الفكري.

الثاني : اتجاه البعض الآخر إلى العلوم المتعلقة بالدين وعدم قبول العلوم الحديثة المرتبطة بالواقع الحديث، وهذا أيضًا نوع آخر من أنواع العرج الفكري.

فأصبح لدينا الشخص المتدين الذي يعادي الدنيا ويحاربها، وأصبح لدينا من يدعي الانفتاح، ويعد الدين رجعية وتعقيدًا؛ لاقتصاره على ما تلقاه من نموذجه المعرفي الخالي من أمور العقيدة والإيمان.

وكلا الفكرين يعد انفصالًا بين الكون والنص .. بين الكتاب المسطور والكتاب المنظور.. بين عالم الخلق وعالم الأمر، وهذا نوع من قبيل الخلل في الإدراك والعرج الفكري كما سبق وبينا.

ومن ثَمَّ فهناك واقع مختلف يجب علينا أن نفهمه، أن ندرك قواعده، وأن نحسن التعامل معه، كما يجب علينا أن ندرك النص الشريف في إطلاقه الذي هو صالح للتطبيق في كل الوقائع، وكيف نوقعه على هذا الواقع بتلك المفاهيم أو بهذه القواعد؛ حتى نسد تلك الفجوة التي تحدث بين أصحاب الفكر الأحادي الذي يريد أن يسير على قدم واحدة حتى أصبح في فشل مستمر.

والحل هو: أن نتعامل مع الواقع في تغيره وأن يكون لدينا أداة لفهمه، وأن تنشأ هذه الأداة من نموذجنا المعرفي حتى لا يكون بين النص وبين فهم الواقع تلك الفجوة التي يرفضها البعض؛ إلا أنَّ فقد هذه الأداة الخاصة بنموذجنا المعرفي لا يعني أن ننعزل ونرفض كل أداة ومنتج صدر من الآخر؛ بل نتقبله ونطوعه لما يمكن أن يتوافق مع نموذجنا المعرفي حتى لا يكون المسلم منفصلًا منعزلًا عن الواقع المعيش فيه.

أمَّا الانغلاق عن الواقع ورفضه ورفض كل مستحدث هو الذي تسبب في وجود الفكر المتطرف الداعشي وغيره، الفكر الذي انفصل عن الواقع، فأصبح بذلك منفصلا عن الفهم الصحيح للشرع الشريف وأحكامه، منفصلًا عن فهم تراثنا وتراث علمائنا الإمام مالك والشافعي وأحمد وأبو حنيفة والبخاري وأتباعهم، حيث فهموا وعملوا، متخذين من حياة الصحابة رضي الله عنهم قدوة في ذلك.

فعندما دخلوا بلاد فارس نجدهم قد اندمجوا واختلطوا وتعايشوا معهم بكل سهولة ويسر حتى في الملبس يقول ابن الجوزي : (ودخلت الصحابة فارس فصَلُّوا في سراويلهم) [1]، أي بكل بساطة (ولما دخلوا مصر تزوجوا من عائلاتهم) فلم يكونوا مستعمرين مفسدين منفصلين، وهذا يتضح جليًا من الخطاب القوي الذي أرسله سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى الأشتر النخعي (والذي كان من أشد المؤيدين لسيدنا علي) ، حيث ولاّه على مصر بعد الفتنة التي أدت إلى مقتل الخليفة الراشد سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، بدلا من عبد الله ابن أبي السرح، إلا أنه للأسف لم يصل به الأشتر إلى مصر، لكننا احتفظنا بخطابه.

أصدره الإمام محمد عبده وشرحه مما يدل على وعي بأهميته وعلاقته بواقعنا ومشاكلنا.

(1) تلبيس إبليس 123/1.

وفي هذا الخطاب يقول له سيدنا على(1):

[أمره بتقوى الله وإيثار طاعته واتباع ما أمر به في كتابه من فرائضه وسننه التي لا يسعد أحد إلا باتباعها ولا يشقى إلا من جحودها وإضاعتها وأن ينصر الله سبحانه بيده وقلبه ولسانه؛ فإنه جل اسمه قد تكفل بنصر من نصره وإعزاز من أعزه.

وأمره أن يكسر من نفسه عند الشهوات وينزعها عند الجمحات؛ فإن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم الله .

ثم اعلم يا مالك أني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقوله فيهم، وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده، فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح فاملك هواك وشح بنفسك عما لا يحل لك فإن الشح بالنفس الإنصاف منها فيما أحبت أو كرهت .

وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم؛ فانهم صنفان: إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ .

فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه،

(1) (رسالة سيدنا على بن أبي طالب إلى الأشتر النخعي) لقد اعتمدت الرسالة في الأمم المتحدة كونها من أوائل الرسائل الحقوقية والتي تحدد الحقوق الواجبات بين الدولة والشعب، وصوّتت غالبية دول العالم على كون عهد علي بن أبي طالب لمالك بن الأشتر أحد مصادر التشريع للقانون الدولي.

فإنك فوقهم وولي الأمر عليك فوقك والله فوق من ولاك، وقد استكفاك أمرهم وابتلاك بهم فلا تنصبن نفسك لحرب له، فإنه لا يد لك بنقمته ولا غنى بك عن عفوه ورحمته ولا تندمن على عفو، ولا تبجحن بعقوبة، ولا تسرعن إلى بادرة وجدت عنها مندوحة، ولا تقولن إني مؤمر، آمر فأُطَاع، فإن ذلك إدغال في القلب ومنهكة للدين، وتقرب من الغير .

و إذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة فانظر إلى عظم ملك الله فوقك وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك؛ فإن ذلك يطامن إليك من طماحك ويكف عنك من غر بك ويفيء إليك بما عزب عنك من عقلك، وإياك ومساماة الله في عظمته والتشبه به في جبروته فإن الله يذل كل جبار ويهين كل مختال .

أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك هوى فيه من رعيتك فإنك إن لا تفعل تظلم. ومن ظلم عبدا لله كان الله خصمه دون عباده ومن خاصمه الله أدحض حجته وكان لله حربا حتى ينزع ويتوب.

وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم. فإن الله يسمع دعوة المضطهدين وهو للظالمين بالمرصاد .

وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق وأعمها في العدل وأجمعها لرضى الرعية؛ فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضى العامة وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء وأقل معونة له في البلاء وأكره للإنصاف وأسأل بالإلحاف وأقل شكرا عند الإعطاء وأبطأ عذرا عند المنع وأضعف صبرا عند ملمات الدهر من أهل الخاصة، وإنما عمود الدين وجماع المسلمين والعدة للأعداء العامة من الأمة، فليكن صفيك لهم وميلك معهم .

وليكن أبعد رعيتك منك وأشنأهم عندك أطلبهم لمعايب الناس فإن في الناس عيوبا

الوالي أحق من سترها، فلا تكشفن عما غاب عنك منها، فإنما عليك تطهير ما ظهر لك والله يحكم على ما غاب عنك فاستر العورة ما استطعت يستر الله منك ما تحب ستره من رعيتك وأطلق عن الناس عقدة كل حقد واقطع عنك سبب كل وتر وتغاب عن كل ما لا يصلح لك، ولا تعجلن على تصديق ساع فإن الساعي غاش وإن تشبه بالناصحين. ولا تدخلن في مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر، ولا جبانا يضعفك عن الأمور، ولا حريصا يزين لك الشره بالجور فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله .

إن شر وزرائك من كان قبلك للأشرار وزيرا، ومن شركهم في الآثام فلا يكونن لك بطانة فإنهم أعوان أثمة وإخوان ظلمة وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفاذهم وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم وآثامهم ممن لم يعاون ظالما على ظلمه، ولا آثما على إثمه أولئك أخف عليك مؤونة وأحسن لك معونة وأحنى عليك عطفا وأقل لغيرك إلفا، فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك.

ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه واقعا ذلك من هواك حيث وقع من ينبغي أن يجالسهم وألصق بأهل الورع والصدق، ثم رضهم على أن لا يطروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو وتدني من العزة .

ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإن في ذلك تزهيدا لأهل الإحسان في الإحسان وتدريبا لأهل الإساءة على الإساءة وألزم كلا منهم ما ألزم نفسه .

اعلم أنه ليس شيء بأدعى إلى حسن ظن وال برعيته من إحسانه إليهم وتخفيف المؤونات عليهم، وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قبلهم، فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به

حسن الظن برعيتك فإن حسن الظن يقطع عنك نسبا طويلا فإن أحق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده، وإن أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده .

ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة واجتمعت بها الألفة وصلحت عليها الرعية، ولا تحدثن سنة تضر بشيء من ماضي تلك السنن فيكون الأجر لمن سنها والوزر عليك بما نقضتها .

وأكثر مدارسة العلماء ومناقشة الحكماء، في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك وإقامة ما استقام به الناس قبلك .

واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض فمنها جنود الله ومنها كتاب العامة والخاصة ومنها قضاة العدل ومنها عمال الإنصاف والرفق ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها التجار وأهل الصناعات ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجات والمسكنة .

وكل قد سمى الله له سهمه ووضع على حده وفريضته في كتابه أو سنة نبيه(صلى الله عليه وآله) عهدا منه محفوظا فالجنود بإذن الله حصون الرعية وزين الولاة وعز الدين وسبل الأمن وليس تقوم الرعية إلا بهم .

ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج الذي يقوون به على جهاد عدوهم ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ويكون من وراء حاجتهم ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاء والعمال والكتاب لما يحكمون من المعاقد ويجمعون من المنافع ويأتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها ولا قوام لهم جميعا إلا بالتجار وذوي الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم ويقيمونه من أسواقهم ويكفونهم من الترفق بأيديهم مما لا يبلغه رفق غيرهم.

ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم ومعونتهم وفي الله لكل سعة ولكل على الوالي حق بقدر ما يصلحه .

وليس يخرج الوالي من حقيقة ما ألزمه الله تعالى من ذلك إلا بالاهتمام والاستعانة بالله وتوطين نفسه على لزوم الحق والصبر عليه فيما خف عليه أو ثقل .

فول من جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله وإمامك وأنقاهم جيبا وأفضلهم حلما ممن يبطئ عن الغضب ويستريح إلى العذر ويرأف بالضعفاء وينبو على الأقوياء وممن لا يثيره العنف ولا يقعد به الضعف، ثم ألصق بذوي المروءات والأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة فإنهم جماع من الكرم وشعب من العرف .

ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما ولا يتفاقمن في نفسك شيء قويتهم به ولا تحقرن لطفا تعاهدتهم به وإن قل فإنه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك وحسن الظن بك ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالا على جسيمها فإن لليسير من لطفك موضعا ينتفعون به وللجسيم موقعا لا يستغنون عنه .

وليكن آثر رؤوس جندك عندك من واساهم في معونته. وأفضل عليهم من جدته بما يسعهم من وراءهم من خلوف أهليهم حتى يكون همهم هما واحدا في جهاد العدو فإن عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك وإن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد وظهور مودة الرعية وإنه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدورهم ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاة أمورهم وقلة استثقال دولهم وترك استبطاء انقطاع مدتهم فأفسح في آمالهم وواصل في حسن الثناء عليهم وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم فإن كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهز الشجاع وتحرض الناكل إن شاء الله تعالى ثم اعرف لكل امرئ منهم ما أبلى، ولا تضيفن بلاء امرئ

إلى غيره، ولا تقصرن به دون غاية بلائه، ولا يدعونك شرف امرئ إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيرا ولا ضعة امرئ إلى أن تصغر من بلائه ما كان عظيما .

ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم، ولا يتمادى في الزلة ولا يحصر من الفيء إلى الحق إذا عرفه.

ولا تشرف نفسه على طمع ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه، أوقفهم في الشبهات وآخذهم بالحجج وأقلهم تبرما بمراجعة الخصم وأصبرهم على تكشف الأمور وأصرمهم عند اتضاح الحكم، ممن لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء وأولئك قليل.

ثم أكثر تعاهد قضائه وافسح له في البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته إلى الناس.

وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك، فانظر في ذلك نظرا بليغا فإن هذا الدين قد كان أسيرا في أيدي الأشرار يعمل فيه بالهوى ويطلب به الدنيا .

ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختبارا ولا توهم محاباة وأثرة، فإنهما جماع من شعب الجور والخيانة.

وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام المتقدمة فإنهم أكرم أخلاقا وأصح أعراضا وأقل في المطامع إشرافا وأبلغ في عواقب الأمور نظرا ثم أسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك، ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم فإن تعاهدك في السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية وتحفظ من الأعوان .

فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك اكتفيت بذلك

شاهدا فبسطت عليه العقوبة في بدنه وأخذته بما أصاب من عمله ثم نصبته بمقام المذلة ووسمته بالخيانة وقلدته عار التهمة .

و تفقد أمر الخراج بما يصلح أهله، فإن في إصلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم؛ لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله.

وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج؛ لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلا قليلا.

فإن شكوا ثقلا أو علة أو انقطاع شرب أو بالة أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم ولا يثقلن عليك شيء خففت به المئونة عنهم فإنه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك، وتزيين ولايتك مع استجلابك حسن ثنائهم، وتبجحك باستفاضة العدل فيهم، معتمدا فضل قوتهم بما ذخرت عندهم، من إجمامك لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم ورفقك بهم، فربما حدث من الأمور ما إذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوه طيبة أنفسهم به، فإن العمران محتمل ما حملته وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها، وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع، وسوء ظنهم بالبقاء، وقلة انتفاعهم بالعبر .

ثم انظر في حال كتابك فول على أمورك خيرهم واخصص رسائلك التي تدخل فيها مكايدك وأسرارك بأجمعهم لوجوه صالح الأخلاق ممن لا تبطره الكرامة فيجترئ بها عليك في خلاف لك بحضرة ملأ، ولا تقصر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمالك عليك، وإصدار جواباتها على الصواب عنك، وفيما يأخذ لك ويعطي منك ولا يضعف عقدا اعتقده لك ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور؛ فإن الجاهل بقدر نفسه

يكون بقدر غيره أجهل، ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك، فإن الرجال يتعرفون لفراسات الولاة بتصنعهم وحسن خدمتهم وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء، ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك فاعمد لأحسنهم كان في العامة أثرا وأعرفهم بالأمانة وجها. فإن ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وليت أمره .

واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأسا منهم لا يقهره كبيرها ولا يتشتت عليه كثيرها .

ومهما كان في كتابك من عيب فتغابيت عنه ألزمته، ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيرا المقيم منهم والمضطرب بماله، والمترفق ببدنه، فإنهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح، فيبرك بحرك وسهلك وجبلك، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترؤون عليها، فإنهم سلم لا تخاف بائقته وصلح لا تخشى غائلته، وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك، واعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقا فاحشا وشحا قبيحا واحتكارا للمنافع وتحكما في البياعات وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة، فامنع من الاحتكار فإن رسول الله صلى الله عليه وآله منع منه، وليكن البيع بيعا سمحا بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع، فمن قارف حكره بعد نهيك إياه فنكل به وعاقبه من غير إسراف .

ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزمنى؛ فإن في هذه الطبقة قانعا ومعترا، واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسما من بيت مالك وقسما من غلات صوافي الإسلام في كل بلد؛ فان للأقصى منهم مثل الذي للأدنى، وكل قد استرعيت حقه، ولا يشغلنك عنهم بطر؛ فانك لا تعذر بتضييع التافه لأحكامك الكثير المهم .

فلا تشخص همك عنهم، ولا تصعر خدك لهم، وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ممن

تقتحمه العيون وتحتقره الرجال ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع فليرفع إليك أمورهم ثم اعمل فيهم بالإعذار إلى الله سبحانه يوم تلقاه فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم وكل فاعذر إلى الله في تأدية حقه إليه، وتعهد أهل اليتم وذوي الرقة في السن ممن لا حيلة له ولا ينصب للمسألة نفسه، وذلك على الولاة ثقيل، والحق كله ثقيل، وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العافية فصبروا أنفسهم ووثقوا بصدق موعود الله لهم .

واجعل لذوي الحاجات منك قسما تفرغ لهم فيه شخصك وتجلس لهم مجلسا عاما فتتواضع فيه لله الذي خلقك وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك حتى يكلمك متكلمهم غير متعتع فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول في غير موطن: "لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متعتع". ثم احتمل الخرق منهم والعي ونح عنهم الضيق والأنف يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته ويوجب لك ثواب طاعته، وأعط ما أعطيت هنيئا وامنع في إجمال وإعذار .

ولا تدخل عمل يوم في يوم وامض لكل يوم عمله، فإن لكل يوم ما فيه .

واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل تلك المواقيت وأجزل تلك الأقسام وإن كانت كلها لله إذا صلحت فيها النية وسلمت منها الرعية، وليكن في خاصة ما تخلص لله به دينك إقامة فرائضه التي هي له خاصة فأعط الله من بدنك في ليلك ونهارك ووف ما تقربت به إلى الله سبحانه من ذلك كاملا غير مثلوم ولا منقوص بالغا من بدنك ما بلغ وإذا قمت في صلاتك للناس فلا تكونن منفرا ولا مضيعا؛ فإن في الناس من به العلة وله الحاجة وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله حين وجهني إلى اليمن كيف أصلي بهم فقال: "صل بهم كصلاة أضعفهم وكن بالمؤمنين رحيما" .

ولا تُطَوِّلَنَّ احتجابك عن رعيتك؛ فان احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق وقلة

علم بالأمور والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه، فيصغر عندهم الكبير ويعظم الصغير ويقبح الحسن ويحسن القبيح، ويشاب الحق بالباطل، وإنما الوالي بشر لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الأمور، وليست على الحق سمات تعرف بها ضروب الصدق من الكذب وإنما أنت أحد رجلين: إما امرؤ سخت نفسك بالبذل في الحق ففيم احتجابك من واجب حق تعطيه أو فعل كريم تسديه أو مبتلى بالمنع فما أسرع كف الناس عن مسألتك إذا أيسوا من بذلك، مع أن اكثر حاجات الناس إليك ما لا مؤونة فيه عليك من شكاة مظلمة أو طلب إنصاف في معاملة .

ثم إن للوالي خاصة وبطانة فيهم استئثار وتطاول وقلة إنصاف في معاملة، فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وحاميتك قطيعة ولايطمعن منك في اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس في شرب أو عمل مشترك يحملون مؤونته على غيرهم، فيكون مهنا ذلك لهم دونك، وعيبه عليك في الدنيا والآخرة.

وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد وكن في ذلك صابرا محتسبا واقعا ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه، فإن مغبة ذلك محمودة .

وإن ظنت الرعية بك حيفا فأصحِر لهم بعذرك واعدل عنك ظنونهم بإصحارك فإن في ذلك رياضة منك لنفسك ورفقا برعيتك وإعذار تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق .

ولا تدفن صلحا دعاك إليه عدوك لله فيه رضى؛ فإن في الصلح دعة لجنودك وإراحة من همومك وأمنا لبلادك، ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه؛ فإن العدو ربما قارب ليتغفل فخذ بالحزم واتهم في ذلك حسن النية، وإن عقدت بينك وبين عدو لك عقدة أو ألبسته منك ذمة فحط عهدك بالوفاء وارع ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت؛ فإنه ليس من فرائض الله شيء الناس أشد عليه اجتماعا مع تفرق أهوائهم وتشتت

آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود.

وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لما اسْتَوْبَلوا من عواقب الغدر، فلا تغدرن بذمتك ولا تخيسن بعهدك ولا تختلن عدوك؛ فإنه لا يجترئ على الله إلا جاهل شقي وقد جعل الله عهده وذمته أمنا أفضاه بين العباد برحمته، وحريما يسكنون إلى منعته ويستفيضون إلى جواره، فلا إدغال ولا مدالسة ولا خداع فيه، ولا تعقد عقدا تجوز فيه العلل ولا تعولن على لحن القول بعد التأكيد والتوثقة، ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحق؛ فإن صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته وأن تحيطه بك من الله طلبة، لا تستقبل فيها دنياك ولا آخرتك .

وإياك والدماء وسفكها بغير حلها؛ فإنه ليس شيء أدعى لنقمة ولا أعظم لتبعة ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها والله سبحانه مبتدئ بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة، فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام؛ فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقله ولا عذر لك عند الله ولا عندي في قتل العمد؛ لأن فيه قود البدن وإن ابتليت بخطأ وأفراط عليك سوطك أو سيفك أو يدك بالعقوبة فإن في الوكزة فما فوقها مقتلة، فلا تطمحن بك نخوة سلطانك عن أن تودي إلى أولياء المقتول حقهم .

وإياك والإعجاب بنفسك والثقة بها يعجبك منها وحب الإطراء؛ فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين .

وإياك والمن على رعيتك بإحسانك أو التزيد فيما كان من فعلك أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك؛ فإن المن يبطل الإحسان والتزيد يذهب بنور الحق، والخلف يوجب المقت عند الله والناس، قال الله سبحانه وتعالى (كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) .

وإياك والعجلة بالأمور قبل أوانها أو التساقط فيها عند إمكانها أو اللجاجة فيها إذا

تنكرت أو الوهن عنها إذا استوضحت، ضع كل أمر موضعه وأوقع كل عمل موقعه .

وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة والتغابي عما تعنى به مما قد وضح للعيون؛ فإنه مأخوذ منك لغيرك، وعما قليل تنكشف عنك أغطية الأمور وينتصف منك للمظلوم .

املك حمية أنفك وسورة حدك وسطوة يدك وغرب لسانك واحترس من كل ذلك بكف البادرة وتأخير السطوة حتى يسكن غضبك، فتملك الاختيار، ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربك.

والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لمن تقدمك من حكومة عادلة أو سنة فاضلة أو أثر عن نبينا صلى الله عليه وآله أو فريضة في كتاب الله فتقتدي بما شاهدت مما عملنا به فيها وتجتهد لنفسك في اتباع ما عهدت إليك في عهدي هذا واستوثقت به من الحجة لنفسي عليك لكي لا تكون لك علة عندما تسرع نفسك إلى هواها .

وأنا أسال الله بسعة رحمته وعظيم قدرته على إعطاء كل رغبة أن يوفقني وإياك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه من حسن الثناء في العباد وجميل الأثر في البلاد وتمام النعمة وتضعيف الكرامة وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة إنا إلى الله راغبون والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله.] [1] أهـ

وبيانه: انظرْ إلى المشترك بينك وبين غيرك، وعلى هذا الأساس تقوم ببناء المعاملة بينك وبينهم، وهذا يدل على فهمهم العميق للواقع الذي عاشوه.

---

(1) مقتبس السياسة وسياج الرياسة، كتاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى الأشتر النخعي. بشرح الإمام محمد عبده . طبع المطبعة الأدبية.1917م.

فهم قاموا بواجب وقتهم على أتم وجه، كما يجب علينا أن نقوم بواجب وقتنا دون أن نقف على مسائلهم ؛ لتغير الواقع المحيط بنا عن واقعهم، لكن نتمسك بمنهجهم واتساع رؤيتهم وشمولها.

فالواقع بعوالمه الأربعة يستلزم منا أن نتعامل معه ولا يجب علينا تغييره، فعلاقتنا بعالم الأشياء هي علاقة التناول، وليست علاقة الإنشاء، وقد راع الشرع الشريف هذا في تشريعاته فكان هناك دائرة الحرمة وهي دائرة بسيطة محدودة يمكن حصرها، كالخمر والميتة والخنزير والشيء المغصوب، وهكذا. وكل ما هو خارج هذه الدائرة من عالم الأشياء فهو مباح وحلال.

الظاهر ونفس الأمر

من مكونات العقل المسلم التفريق بين ما يمكن أن نُطلق عليه الظاهر، وبين ما يمكن أن نطلق عليه الحقيقة أو نفس الأمر، وعلى الرغم من أنَّ الفلسفة قد اهتمت بالظاهر والحقيقة اهتمامًا كبيرًا إلا أنَّ هذه التفرقة الدقيقة فعلًا هي من اختيارات العقل المسلم، فترى في كلام علمائنا قديمًا دقة التفرقة بين الظاهر ونفس الأمر.

ويمكن أن نُعرِّف الظاهر في بعض الأحيان بلفظ الواقع، وهو ذلك الذي يدركه الإنسان باعتباره إنسانا بحواسه الخمسة، ولا فرق في ذلك بين ما أدركه سيدنا آدم عليه السلام، وما يدركه أي إنسان آخر يعيش بعد ذلك بمئات وآلاف السنين في أي مكان في العالم باعتباره إنسانًا وبحواسه الخمسة أيضًا.

ولذلك فالواقع يشترك في إدراكه كل إنسان سواء أكان مؤمنًا أو غير مؤمن، ومن هذا الواقع نستطيع إقامة الأدلة على وجود الله تعالى؛ لأنه لا بد عند إقامة الدليل من وجود عامل مشترك بيننا وبين باقي البشر نطلق منه؛ لنخاطبهم، فكان هذا المشترك بين بني الإنسان هو: "**إدراك الواقع**".

فرؤية الواقع المعيش هو ما يشترك في إدراكه الجميع، لكن هذا الواقع له ما يسمى بنفس الأمر، وله ما يسمى بالظاهر، والشريعة الإسلامية علَّقت أحكامها بالواقع لا بنفس الأمر؛ لأنَّ تعليق الأحكام بنفس الأمر يكلف الإنسان ما لا يطيق.

ولذلك أُمر القضاة أن يأخذوا بالظاهر، والله سبحانه وتعالى يتولى السرائر، فهو يأخذ بالبيّنة في الشهادة، ويأخذ باليمين، كما يأخذ ببحثه في ظاهر الأمر في حين أن الحقيقة عند الله سبحانه وتعالى قد تكون مختلفة، فقد يقضي الإنسان لأحد بشيء وهو ملك آخر، فعن أم سَلَمَةَ رضي الله عنها: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ

تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلاَ يَأْخُذْ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»(1) لأنه في يوم القيامة ستظهر الحقيقة، لكن الله سبحانه وتعالى أمرنا بأن ينفذ حكم القاضي في الحياة الدنيا حتى تستقيم الأمور.

فمن حكم له القاضي بشيء هو يعلم أنه ليس من حقه وقبله = فكأنما قبل قطعة من النار يوم القيامة، وأما إذا كان لا يعلمه وظن فعلًا أنها له = فلا شيء عليه، حتى لو كانت في نفس الأمر هي لغيره؛ فإنه لا يعاقب عليها، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ العِلْمِ﴾ (2) فالله سبحانه وتعالى يحاسبنا يوم القيامة على مبلغنا من العلم، وليس على نفس الأمر.

والأمثلة كثيرة جدًا في الفقه الإسلامي مثل قضية النسب، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الوَلَدُ لِلْفِرَاشِ، وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ»(3)

أليس من الممكن أن يكون هذا الولد قد أتى من زنا رغم تحقق فراش الزوجية على كلمة الله وعلى سنة رسول الله، ولكنَّ الشرع كما قلنا يعلق الأمور بالواقع وليس بنفس الأمر، فالواقع أن الولد أتى في فراش رجل فهو منسوب إليه، ولا يدخل الشرع في التفتيش عن حقيقة كونه أتى من زنا أم لا.

ولكن الشرع حرم الزنا، فإن كشف بعد أو اعترف الزاني لعوقب.

---

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه 9/25/ح 6967، ومسلم في صحيحه 3/1337/ح 1713.

(2) سورة النَّجم، الآية: (30).

(3) متفق عليه : أخرجه البخاري في صحيحه 8/154/ح 6750، ومسلم في صحيحه 2/1081/ح 1458.

إذن القضية أننا نتعامل في الحياة الدنيا على الظاهر، والأحكام مترتبة على الظاهر، فيجب على هذا الطفل أن يُنسب إلى أبيه وإلى أمه، ولا يجوز لأحدٍ من الخارج أن يأتي ويقول: أنا قد زنيت بهذه المرأة، وإن هذا الطفل طفلي، ويجب أن يُنسب إليَّ، لن نقبل بكلامه، بل سنعاقبه على ما اعترف به على نفسه، والولد لن ينسب إليه.

لأننا نأخذ بالظاهر لا بنفس الأمر، والظاهر يحترم الأسرة، ويحافظ عليها، ويمنع الأوباش من أن يقاربوها والعصاة أن يهدموها؛ولذلك فالأحكام تترتب على الظاهر دائمًا، وليس على نفس الأمر.

ومن الأمثلة الفقهية على هذا: إن وقفت ذبابة على نجاسة، ثم طارت ووقفت على ثيابي، فلا شك أنَّ قدرًا معينًا من النجاسة قد علق بها، وهذا نفس الأمر، ولكن الواقع أني لا أرى في ثوبي نجاسة حصلت، ولربما أراه إن وضعت هذه الذبابة تحت المجهر؛ لأنظرَ كم النجاسة في أرجلها، لكن الشرع لا يكلفك بهذا، فعندما تضع أقدامها النجسة على الثياب لا يُحكم على هذه الثياب بأنها قد تنجست، فيعلمنا الفقهاء: أنه يعفى عن النجاسة التي لا يُدركها الطرف، ومعنى هذا أننا نأخذ بالظاهر؛ لأن النجاسة التي أصبحت على ثيابي لا يدركها الحس البشري المعتاد، وهذا من رحمة الله بنا.

والواقع أنَّ كثيرًا من الناس يفتش، ويسأل ويغوص ما الذي في نفس الأمر، لكن الله سبحانه وتعالى لم يكلفنا هذا، فعن عمرو بن العاصِ رضي الله عنه، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ

أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ» [1]

وفي رواية الدارقطني: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا قَضَى الْقَاضِي فَاجْتَهَدَ فَأَصَابَ كَانَتْ لَهُ عَشَرَةُ أُجُورٍ، وَإِذَا قَضَى فَاجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ كَانَ لَهُ أَجْرَانِ» [2]

أي أنه عندما أخطأ أصبح له أجر؛ لأنه بذل وسعه في تحصيل الحكم الشرعي، بذل وسعه في إدراك الظاهر، وفي إيقاع الحكم عليه.

إذن من مكونات العقل المسلم التفرقة بين الظاهر وبين نفس الأمر، والشريعة بُنيت على الظاهر ولم تُبنَ على نفس الأمر، وهذه القاعدة أفادت الفقهاء في الاستنباط، والترجيح، في اختيار كثير من الأحكام الفقهية.

ولكن أرباب الجماعات المتطرفة لا تكتفي بظاهر الإيمان أو الإسلام الذي تربت عليه الشعوب ونشأت فيه، بل يسعون للتفتيش عن عقائد الناس وأفكارهم، واستنباط ذلك من أفعالهم؛ كل ذلك ليحكموا على الناس ويصنفوهم بين مؤمن وكافر؛ ولم يكلفهم الشرع بمعرفة حقيقة كل إنسان أمؤمن هو أم كافر، بل الحق أن الحكم للظاهر الذي يبديه الإنسان وينسب نفسه إليه.

واستتبع ذلك أن رمت تلك الجماعات المتطرفة والغالية شعوب الأمة الإسلامية بالجاهلية والكفر والردة، ومن ثم استباحت دماءها وأموالها وأعراضها، وراحت تدمر كياناتها

---

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه 9/108/ح 7352، ومسلم في صحيحه 3/1342/ح 1716.

(2) أخرجه الدارقطني في سننه (كتاب الأقضية والأحكام وغير ذلك - 4/203/ح4).

وتعتدي على أفرادها، مؤمنها وفاجرها دون تمييز ، كما جاء في الحديث النبوي.

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: « مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ ثُمَّ مَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً وَمَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِلْعَصَبَةِ وَيُقَاتِلُ لِلْعَصَبَةِ فَلَيْسَ مِنْ أُمَّتِى وَمَنْ خَرَجَ مِنْ أُمَّتِى عَلَى أُمَّتِى يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا لاَ يَتَحَاشَ مِنْ مُؤْمِنِهَا وَلاَ يَفِى بِذِى عَهْدِهَا فَلَيْسَ مِنِّى ».[1]

(1) صحيح مسلم: 3/1477، رقم (1848).

التجريد

التجريد عملية من العمليات التي يتميز بها العقل المسلم، فهو عقل لديه قدرة فائقة على التجريد أثناء سيره في قراءة النصوص الشرعية وفهمها، حتى استطاع من خلال هذه القدرة الفائقة الوصول إلى القواعد الفقهية المنضبطة، والجمع أو الترجيح بين الأدلة التي يوهم ظاهرها التعارض.

والسؤال الآن: كيف نفهم التجريد؟

التجريد في الفقه الإسلامي هو الانتقال بالحكم من المشخصات إلى الكليات وفقًا لقواعد منضبطة.

وبضرب المثال يتضح الحال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ»[1]

فعندما يتأمل العقل المسلم هذا الحديث الشريف يجده ينص على «دخلت امرأةٌ النار في هرةٍ حبستها».

فالحديث يتناول ثلاث جزئيات:

الجزء الأول: امراة دخلت النار.

الجزء الثاني: أن هناك هرة.

الجزء الثالث: هو الحبس.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه 4/130/ح3318، من حديث ابن عمر، وأخرجه أيضًا من حديث أبي هريرة في نفس الموضعة شاهدًا لحديث ابن عمر ، و مسلم في صحيحه (4/ 2110/ح2619).

فيبدأ عقله يتسأل هل المقصود بهذا الحديث خصوص هذه المرأة وهذه الهرة وذلك الحبس. وهل يقصه علينا صلى الله عليه وسلم فقط؛ ليخبرنا بعاقبة هذه المرأة وفعلها.

فيجيب على ذلك بأن: المعني المراد في الحديث أعم من أن يختص بهذه الجزئيات أو المشخصات ويبدأ في ذهنه عملية التجريد.

فيستفاد العقل المسلم من قوله امراة أي أنسان وكل إنسان .

ومن قوله هرة: أي حيوان .

ومن قوله حبستها: أي التعامل بالقسوة .

وبقوله دخلت النار: أي العقوبة .

ويبدأ العقل المسلم يقرأ النص بصورة أخرى فيقول: الرحمة واجبة على المسلم، والراحمون يرحمهم الراحمن، وارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، والرحمة واجبة لكل شيء في الكون، واحترام كل مخلوق خاصة إن كان روحا واجب على الإنسان، وكل إنسان يؤذي حيوانا بغير حق يتعرض للعقوبة.

فيتضح من ذلك العلاقةُ بين الإنسان والحيوان، والعلاقةُ بين الإنسان والأكوان.

فيلزم عنه قاعدة كلية وهي: الإسلام يأمرنا باحترام الأكوان والتعامل معها بالرحمة.

هذا نوعٌ من أنواع التجريد: أن أَخرجَ من المشخصات إلى المعنى العام المقصود من ذكرها.

وإذا تتبعت الأحاديث حديثًا وراء حديث سأخرج بنفس النتيجة قال صلى الله عليه

وسلم: «أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبِئْرٍ، قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ، فَنَزَعَتْ لَهُ بِمُوقِهَا فَغُفِرَ لَهَا» (1)

العلاقة هنا: امرأة وكلب؛ فنجرد المرأة إلى الإنسان، والكلب إلى الأكوان؛ وأن الجنة جزاء الرحمة كما في الحديث الأول.

ثم تأتي القاعدة العامة لتبين لنا هذا الأصل الذي أشارت إليه الفروع والجزئيات فيقول صلى الله عليه وسلم: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ».(2)

فهذا أمر بالرحمة لمن في الأرض، ومن في الأرض يشمل المؤمن والكافر وغيرهم.

وقد يتسأل البعض هل يشمل أيضًا الأكوان، أي ما بها من حيوان وجماد؟

فنقول: نعم.

ونذهب إلى اللغة العربية؛ فنرى أن لفظة «مَنْ» تطلق ويراد منها ما اجتمع بين العاقل وغير العاقل. أي: أن قوله "من في الأرض" تشمل كل من في الأرض من إنسان وحيوان وجماد.

إذن هذا هو التجريد: **أن نحذف الشيء ونأتي بجنسه، ونحذف هذا الجنس ونأتي بجنسه الأعلى، إلى أن نفهم النصوص بعمق.**

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه 4/1761/ح2245.

(2) أخرجه أحمد في "مسنده" (11/33/ح 6494)، وأبو داود في سننه4/285/ح4941 والترمذي في جامعه 4/323، ح1924.

ولا بد أن نكون على دراية بأن نصوص الشريعة بعيدة مع قربها، عميقة مع وضوحها، لا تدرك معانيها إلا بمراجعة الفكرة وحسن التأمل، وأن الوحي أتى ليخرج الناس من السطحية في الفهم والسلوك إلى العمق والوضوح، ومن النظرة إلى الحال للاعتبار بالمآل ، وحث الناس على الاقتراب من المستور الخفي ورفع الحجب والمجاهدة في الاقتراب من إدراك الحِكم والمقاصد، التي بدروها تساعد على بناء القلوب والحضارات .

والتجريد يساعد على هذا فهو يخرج العقول المشتغلة بفهم النصوص من السطحية إلى التعمق وإدراك المقاصد ، ومنه كانت القواعد الفقهية الكلية المنضبطة.

فكانت «المشقة تجلب التيسير» و«الميسور لا يسقط بالمعسور، «من تعجَّل شيئًا قبل أوانه عوقب بحرمانه». " العبرة بالمعاني لا بالألفاظ والمباني" " لا عبرة بالظن البين خطؤه".

فالتجريد مكوِّنًا أساسيًّا من مكونات العقل المسلم، سواء في فهم النصوص، وفي الفقه الإسلامي وفي عملية التقعيد والخروج بالأشباه والنظائر والقواعد، أو في التعارض والترجيح.

القداسة

القَدَاسَة لغة: مصدر قَدُسَ، والقَداسَة: الطُّهْرُ والبركة، وقَدَاسَةُ الْمَكَانِ: أي طَهَارَتُهُ وَجَلاَلُهُ.

والقداسة لدينا تعني الاحترام، أي وضع هالة من الاحترام حول الشيء تمنع من التجرؤ عليه، كقولنا أرض مقدسة أي محترمة، أي لا يمكن المساس بها.

ولا يختص لفظ " المقدس" بالله عزوجل، بل يطلق ويراد به بعض الأشخاص أو الأماكن أو الأزمنة وفقًا لمنظور الشرع لها.

يقول صاحب معجم الفروق اللغوية نقلا عن غيره في الفرق بين التسبيح والتقديس - : "والحاصل : أن التقديس لا يختص به سبحانه بل يستعمل في حق الآدميين ، يقال : فلان رجل مقدَّس : إذا أريد تبعيده عن مسقطات العدالة ووصفه بالخير ، ولا يقال: رجل مسبَّح، بل ربما يستعمل في غير ذوي العقول أيضًا ، فيقال : قدَّس الله روح فلان ، ولا يقال : سبَّحه "[1]

وتشغل القداسة مساحة كبيرة من عقل المسلم وتكوينه؛ فيعتقد المسلم بالقداسة بقسميها، وهما: القداسة الإلهية، والقداسة غير الإلهية.

فالقداسة الإلهية وهي: تنزيه الله تعالى عن كل نقص واتصافه بالكمال التام، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ﴾[2]

---

(1) معجم الفروق اللغوية ص 125.

(2) سورة الحشر ، الاية:23.

فالله عز وجل هو: القدوس في أسمائه وصفاته وأفعاله، منزه عن كل النقائص والعيوب والآفات، يقدسه الأنس والجن والملائكة وما من مخلوق إلا يسبح بحمده ويقدسه قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[1] ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[2].

وأما القداسة غير الإلهية، فهي التي تعني الطهر والبركة والاحترام والتكريم.

وتتعلق بالأشياء كالمصحف الشريف، وبالأماكن كالكعبة المشرفة والمسجد الأقصى والوادي المقدس، فكل هؤلاء محترمون مكرمون، بما لهم من مكانة في نفوس المسلمين تجعل هالة من التقديس تحاط بهم.

وتتعلق بالأشخاص، كالأنبياء جميعًا، وذلك بما اختصهم الله به من تشريفهم بالوحي الشريف، وبالأزمنة، كشهر رمضان، وليلة القدر، وليال ذو الحجة التي اقسم الله عز وجل به.

كما تتعلق القداسة بأعراف قد اتفق عليها أو قانون ودستور أُجمع على العمل به؛ فيصير بذلك مقدسًا لا ينبغي مخالفته أو الخروج عليه.

ولكي نستطيع أن ندرك هذا المعنى لا بد أن نتكلم عن أنواع القداسة؛ لأن تحصيل الشيء يكون بإدراك تقاسيمه.

---

(1) سورة الإسراء، الاية:44.

(2) سورة البقرة، الاية:30.

أنواع القداسة

أولًا :القداسة في عالم الأشخاص.

في عالم الأشخاص يقدس المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيسودونه دائما، ويعظمونه، وتتأذى مشاعرهم إذا ذكر اسمه صلى الله عليه وسلم مجردًا من التفخيم والتعظيم، وإن كان ذلك جائزًا شرعًا، إلا أنهم يرفضون ذلك لاستشعارهم أنه منافيا لمعنى القداسة.

ولقد ألف السيد أحمد بن الصديق الغماري[1] كتابه (تشنيف الآذان بأدلة استحباب السيادة في الإقامة والأذان) بمعنى أن يقول المؤذن أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن سيدنا محمدًا رسول الله، وأثبت أنه لا مانع من ذلك، وأتى بنصوص الفقهاء المتكاثرة في استحباب ذلك.

كذلك تكلم العلماء عن تقديم الأدب على الِاتِّبَاع ، حيث إننا في التحيات يجوز أن نقول أشهد أن سيدنا محمدا رسول الله، وكذلك نقول اللّٰهم صل على سيدنا محمد؛ لأن فيه أدب.

ومن مظاهر قداستهم للنبي صلى الله عليه وسلم إحياء الليالي احتفالًا بمولده، والمحافظة والتبرك بأثاره صلى الله عليه وسلم، والتوسل واللجوء إلى الله بمقامه الجليل، وعلى الرغم من شدة تعلق المسلمون بجنابه الشريف وقداستهم له إلا أنه لم يحدث أن عبده أحد منهم قط ولا من غير المسلمين؛ استجابة من الله عز وجل لدعائه صلى الله عليه وسلم؛ حيث قال:

---

(1) أحمد بن الصديق الغماري: هو السيد شهاب الدين أبو الفيض الإدريسي الحسني (1320-1380هـ) الإمام المجتهد الناقد العالم المجاهد، يعد من أبرز المحدثين الذين برزوا في القرون المتأخرة.

«اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعبد من بعدي»[1].

فنجد أن بعض المسلمين قد ضلُّوا وعبَدوا الحاكم بأمر الله، ومن قبلهم السبئية الذين عبدوا علي بن أبي طالب، وبعضهم قد عبد البهاء، ولكن لم يحدث أبدا أن عُبد النبي صلى الله عليه وسلم، حيث حمى اللهُ مقامه الشريف من هذا الهراء والافتراء.

ثانيًا: القداسة في عالم الأشياء.

أمَّا عالم الأشياء = فيقدس المسلم المصحف الشريف؛ لأنه كتاب الله تعالى، فيعتقد بأنه يعلو ولا يعلى عليه، ومن تقديسه له أنه لا يستطيع أن يضع فوقه شيئًا، بل يضعه دائما فوق كل شيء، وذلك غير مختص بالمسلم الطائع، فكل مسلم سواء كان من الطائعين أم المقصرين يتعامل مع المصحف الشريف بقداسة تامة، فنجده يفزع إن سقط من يده، ويسارع إلى تقبيله ووضعه فوق رأسه احتراما وتقديسًا له.

وحدث في الهند – وهذه قصة واقعية- أن زوجين أسلما، فأعطاهم الشيخ مصحفًا، وبعدما رجعوا إلى بيتهم وجدوا أنفسهم في حيرة في أي مكان يضعوا كتاب الله، وخشية من أن يضعوه في مكان لا يتناسب مع قدره، لم يستطيعوا أن يناموا من القلق، وقاموا بالتبادل في وضعه على رأسهم طول فترة الليل، حتى إذا أصبح الصباح ذهبوا إلى الشيخ فسألوه فأجابهم بأن بضعوه على منضدة فتسألوا: هذا فقط؟! إننا لم نستطع النوم!!

فهذا نموذج يبين كيف يستشعر المسلم قداسة القرآن الكريم.

---

1 - أخرجه أحمد في مسنده 12/314/ح ، 7358 ، والحميدي في مسنده 2/224/ح1055 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كذلك يقدس المسلم الكعبة المشرفة؛ لأنها بيت الله تعالى في الأرض، ومحل تنزلات رحماته تعالى على خلقه، فيذهب إليها محرمًا قد خرج من إلفه وعادته، وقداسته لها لا تعني عبادتها مطلقًا، ولا علاقة لذلك بالوثنية كما يقول البعض؛ لأنه ما قدسها وبجلها وقطع المسافات من أجل زيارتها، إلا لأنه يعلم أنها موضع يحبه الله تعالى قد اصطفاه، وجعل زيارته فرضًا على جميع المسلمين القادرين عليها، وقد كان سيدنا عمر يُقبّل الحجر الأسود، ويقول: «إني أعلم أنك حجر لا تضر، ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما فعلت».

إذن فهو يقبله اتباعًا لسنة النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، الذي جعل تقبيله نوعًا من أنواع البُشرى بقبول المغفرة؛ ولذلك ترى الناس يقفون في الصفوف الطويلة، ويستغرقون الوقت الطويل من أجل أن يُقبّلوا الحجر؛ اعتقادا منهم أنه يمين الله سبحانه وتعالى في الأرض.

وكذلك المدينة المنورة حيث القبر الشريف للنبي صلى الله عليه وسلم، وقد نص جمع كثير من علماء المسلمين شرقًا وغربًا علي أنه أفضل بقعة في العالم، بل وأفضل من العرش[1]، والمراد به المنطقة التي يوجد فيها الجثمان الشريف لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، وهذه

(1) ولقد قال بذلك علماء المسلمين، ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: القاضي عياض في كتابه الشفا، والشيخ الخفاجي، والإمام السبكي، والعز بن عبد السلام، والحصفكي الحنفي في الدر المختار، وعليش المالكي في شرحه على مختصر خليل، والسخاوي في التحفة اللطيفة، والملا على القاري الحنفي، والبهوتي في شرح منتهي الإرادات، وابن عابدين في رد المحتار على الدر المختار، وابن حجر الهيتمي، والمناوي، وغيرهم.

قداسة، و ليست عبادة.

كما يعظم المسلم قبور آل بيت النبي وأصحابه وورثته من الأولياء والأصفياء والعلماء، ويحترم كتب العلم، وأسماء الله سبحانه وتعالى إذا ما رآها مكتوبة، ويحترم جميع المساجد وينظفها، فلا يدخل المسجد وهو جنب أبدا، فيتعامل مع المساجد -بيوت الله في الأرض- معاملة لا يتعامل بها مع سائر الأماكن من بقاع الأرض.

ويعتقد المسلم أن صلاته في الحرم المكي بمائة ألف صلاة، وأن صلاته في الحرم المدني بألف صلاة(1)، كما أنه قد حرَّم بموجب الشريعة على نفسه شجر وطير مكة والمدينة، حيث آمنهم الله تعالى من الاعتداء عليهم فيهما تعظيمًا لهذا المكان، وهذا نوعٌ من أنواع القداسة، والاحترام، والتبجيل، وإظهار الحب، وهو جزء من عقلية المسلم، ومن تكوينه النفسيِ والسلوكي.

ثالثًا: القداسة في عالم الزمان

وهناك قداسة لعالم الزمان والأحداث كما هي لعالم المكان، فالمسلم يعتقد بقداسة ليلة القدر، وشهر رمضان، ويوم عرفة، والعشرة أيام الأولى من ذي الحجة التي تُتوَّج بالعيد حتى نعتبر يوم العيد وما يليه من أيام التشريق أيام أكل وفرح وسرور، وهكذا. فكل هذا من نوع التقديس.

فخص الشرع الشريف أيام العيدين بالأكل والشرب فنهى عن الصوم فيها، فعَنْ أَبِي

---

(1) والحديث عند ابن ماجه وأصله في الصحيحين: «صَلاَةٌ فِي مَسْجِدِي أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلاَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَصَلاَةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ».

سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ " أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الْفِطْرِ، وَيَوْمِ الْأَضْحَى " (1)

فلا يتجرأ على صيامهم رغم أن الصوم سُنَّة، إلا أنه جعل لهم حرمة، أي قداسة بمعنى جعل هالة حولهم تفرض لهم مزيدا من الأحكام ومن الاحترام والتبجيل والتوقير.

كما يخص المسلم يوم الجمعة -كما أمرته الشريعة- بصلاةٍ مخصوصة، واجتماعٍ مخصوص بالمسجد يستمع فيه إلى موعظة، ويلتقي فيه بالمؤمنين، ويلتزم فيه هدي النبي صلى الله عليه وسلم فيغتسل، ويتطهر، ويتطيب، ويلبس أحسن ما عنده.

ولثلث الليل الأخير من كل ليلة قداسة خاصة عند المسلم حيث يعتقد أنه وقت لقبول الدعاء و التوبة فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ".(2)

فالقداسة مكوِّن من مكونات العقل المسلم وتشمل عالم الأشخاص والأشياء والزمان والمكان، وفي غير ذلك من محيط الحياة، والقداسة ليست مرادفة للعبادة، وإنما هي مرادفة للاحترام.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه 1991/42/3، ومسلم في صحيحه799/2/ح 140، وأحمد في "مسنده" واللفظ له325/18/ح 11804.

(2) رواه البخاري في صحيحه 384/1.

القداسة والعقل البشري

إذا أردنا أن نتكلم عن قضية قداسة العقل لا بد لنا أن نعلم أن للعقل أسس وقواعد تعد سمة ذاتية له، ومعيارًا لغيرها من العلوم، وهي الإدركات الأولية أو الفطرية التي لا تحتاج إلى فكر ونظر ولا ينكرها أحد؛ لأنها تعد معيارا وأساسا لغيرها من الإدركات، والنزاع في المعيار يقود إلى الاختلال والفوضي، فلا يمكن أن ينكر أحد أن الجزء أقل من الكل أو أن النقيضان لا يجتمعان، أو أن الواحد نصف الاثنان؛ ومن ينكره فهو مصاب بخلل في عقله بلا شك.

والتشكيك في هذه الأمور البديهية لا تستقيم معه أي معارف بشرية، فلا يمكن حينئذ إقامة الحجج والبراهين على أي شيء مما يؤدي إلى انهيار المعرفة البشرية بأكملها.

ولذلك فقد اهتم العلماء ببيان وتفصيل أحكام العقل التي لا يخرج عنها شيء من الموجودات

فنظر علماء المعقولات إلى أحكام الموجودات في العقل، فوجدوا أن له أحكاما ثلاثة، وهي الوجوب والاستحالة والجواز.

فالوجوب: هو ضرورة الوجود كواجب الوجود الله تعالى، والاستحالة: هي ضرورة العدم كاجتماع النقيضين، والجواز: أي إمكان الوجود والعدم.

فلا يمكن عقلا أن يكون الشيء واجبًا ومستحيلا، كما لا يمكن أن يكون ممكنا ومستحيلا أو ممكنا وواجبًا لما يلزم عن ذلك من اجتماع النقضين الذي هو من المحال العقلي المعلوم بالضرورة.

كما لا يمكن أن يخرج عن هذه الأحكام الثلاثة فلا يكون شيء منها. والقول باجتماع النقيضين يعني أن هذا العقل مصاب بخلل يخرجه عن أهليته، فلا يعد حينئذ عقلا.

إذن فالعقل البشري بمعنى أسسه وقواعده التي توجب العلم الضروري والتي لا يختلف عليها اثنان ولا يتناطح فيها كبشان مقدس بلا شك؛ لأن عليه تقوم وتبنى جميع المعارف البشرية.

أما العقل البشري بمعني أفراده وأشخاصه، فهو كثير الخطأ؛ لأنه محدود في زمانه ومكانه وأحواله وفي مدي تلقيه وتطبيقه لخطواته السبعة التي فصلناها من قبل في تعريفنا للعقل وهي: التلقي والفهم والحفظ والاسترجاع والربط والاستنتاج والأداء، وهكذا...

ولذلك لا بد من تحديد معنى العقل البشري محل الوصف بالقداسة، فإن كان مجموعة القواعد البدهية الأساسية التي بها تُدْرَك العلوم = فهي مقدسة ومحترمة للغاية، أما إن كان متمثلا في أفراد وأشخاص = فهو قاصر ومحدود، وبالتالي: فغير مقدس.

وكما أن للقداسة أنواع من حيث تعلقها بالأشياء، فكذلك من حيث ديمومتها، فهناك قداسة دائمة وهي كل ما كان مصدر قداسته الشرع الشريف كالأنبياء والرسل جميعًا وكالبيت الحرام والبلد الحرام، والمصحف الشريف، والأوقات والأزمنة المنصوص على أفضليتها شرعًا، فقداستهم دائمة لا تنتهي أبدا ولا تتغير.

وهناك قداسة غير دائمة كقداسة القوانين والأعراف التي تتغير بتغير المكان والزمان والأحوال، وكقداسة العقود والمعاملات البشرية التي تنتهي بفسخها بين طرفيها.

وإذا كان ذلك كذلك ، فقد يورد العقل تساؤلًا كيف يتعامل المسلم مع مفهوم القداسة، وإذا علم هذا فما أثر هذا في عقلية المسلم .

كيفية التعامل مع مفهوم القداسة وأثره على عقلية المسلم

ذكرنا فيما سبق أن القداسة تعني الاحترام والإجلال، وأنها كالهالة التي تحيط بالشيء فتمنع من التجرؤ عليه، وقد حثنا الإسلام على مراعاة هذا المعني والتحقق به في كثير من المواقف.

فحثنا على احترام الكبير وتوقيره، قال صلى الله عليه وسلم: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرْ كَبِيرَنَا وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا»(1).

ولم يكتف بذلك، بل وضع لنا الضوابط التي ينبغي أن يتعامل بها المسلم مع من ينبغي عليه توقيرهم واحترامهم، حتى لا يغفل عنها أحد، فنهى أن يسبق الصغير الكبير في الحديث، كما نهي أن يعلو صوته في مجلسه، وحث على التحقق بالأدب في الهيئة والجِلسة في حضورهم، بل وأمر بتفقد حاجاتهم ومراعاتها.

ولنا في سيرته صلى الله عليه وسلم وتعليمه لصحابته نماذج عديدة، ومن ذلك أنه قد وقعت جريمة قتل في خيبر، فذهب ثلاثة ممن علموا بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ ليقصوا له ما حدث، فتكلم أصغرهم سنًا، فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم أن يتكلم في حضرة من هما أكبر منه سنًا.

روى الإمام البخاري في "صحيحه" انطلق عبد الله بن سهل ومحيصة بن مسعود بن زيد إلى خيبر، وهي يومئذ صلح، فتفرقا، فأتى محيصة إلى عبد الله بن سهل وهو يتشحط في دمٍ

---

1 - أخرجه الإمام أحمد في "مسنده" 529/11/ح 6937، وأبو داود في سننه 286/4/ح 4943 من حديث عبد الله بن عمرو.

قتيلا، فدفنه ثم قدم المدينة، فانْطَلَقَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَهْلٍ وَمُحَيِّصَةُ بْنُ مَسْعُودِ بْنِ زَيْدٍ إِلَى خَيْبَرَ ، وَهْىَ يَوْمَئِذٍ صُلْحٌ ، فَتَفَرَّقَا ، فَأَتَى مُحَيِّصَةُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَهْلٍ وَهْوَ يَتَشَحَّطُ فِى دَمٍ قَتِيلاً، فَدَفَنَهُ ثُمَّ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، فَانْطَلَقَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَهْلٍ وَمُحَيِّصَةُ وَحُوَيِّصَةُ ابْنَا مَسْعُودٍ إِلَى النَّبِىِّ – صلى الله عليه وسلم – ، فَذَهَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَتَكَلَّمُ فَقَالَ: «كَبِّرْ كَبِّرْ» . وَهْوَ أَحْدَثُ الْقَوْمِ، فَسَكَتَ فَتَكَلَّمَا [1].

والشاهد هنا: هو قول النبي صلى الله عليه وسلم «كَبِّرْ كَبِّرْ». يُرِيدُ السِّنَّ، وهذا معناه أن الأخ الأكبر محترم ومقدس.

والأمر بالاحترام والتوقير في الإسلام لا يختص بمن هم أكبر سنًا فقط، بل يتجاوزه إلى ذوي المقام العالي كالعلماء والسلطان، وكل من كان له فضل علينا، ولو كان أصغر منا سنًا، بل قد جعل الله عز وجل هذا التوقير والإجلال من إجلاله عز وجل.

روى الإمام أبو داود في "سننه" «إِنَّ من إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فيه وَالْجَافِي عنه، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ»[2].

وهذا الخلق النبيل قد تربينا عليه في مجتمعنا المصري منذ صغرنا، فكنا نحترم ونوقر البائع الذي نشتري منه والسائق الذي نركب معه، أما الآن = فنتعجب عندما نسمع تلك الدعوات الهشة التي ترى أنَّ في احترام وتوقير الكبير قيودًا يجب التخلص منها بدعوى أن الابداع يأتي

1 – أخرجه البخاري في صحيحه 4/101/ح3173، ومسلم في صحيحه 3/1291/ح1669.

2 – أخرجه أبو داود في سننه 7/212 من حديث أبي موسى الأشعري، وحسنه الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير 2/277.

بالتخلص من القيود والسلطات.

والعجيب أنه لا علاقة بين قولهم هذا وبين الإبداع والبعد بينهما كالبعد بين الأرض والسماء، فقولهم يؤدي إلى الفوضى والعبث المحض.

أمَّا الأبداع = فهو إنشاء شيء لا على مثال سابق، لكنه شيء نافع ومثمر، كما فعل ابن مُقلة وعلماء المسلمين من أشياء بهرت العقول، لا ما يدعو إليه أصحاب النزعة التحريرية وأصحاب الفكر المتطرف من تخريب وتفتيت.

واستقرار مفهوم القداسة في مجتمعنا المصري كان له كثيرٌ من الآثار الإيجابية، إلا أن اهتزاز هذا المفهوم وخلخلته بدعوى أنه لا قداسة في الإسلام لغير الله، وأن القداسة هي العبودية كان له من الآثار السلبية العديدة.

كما أنَّ تجسيد السخرية من القيم، كقيمة الاحترام كان له أيضا من الأثار السلبية في مجتمعنا ما الله به عليم، ومن ذلك بعض الأعمال التليفزيونية والمسرحية [1] التي تسخر من قيمة المعلم وقداسته لدى الطلبة، فكان ذلك إيذانا بذهاب قيمة المعلم في نفوس الطلبة وبالتالي ذهاب قداسته مما كان له أثر سلبي على نجاح المنظومة التعليمية في قيامها بدورها.

(1) كمدرسة المشاغبين، مسرحية لها آثار اجتماعية سيئة: عرضت في 24 أكتوبر 1973 بعد حرب 73 بأيام قليلة.

قداسة اللغة العربية

تحدثنا أن القداسة هي الاحترام والإجلال، فهل للغة قداسة؟

هناك تعبيران قد يكون أحدهما أدق من الآخر، وهما: اللغة المقدسة، وقداسة اللغة.

ولكي نستطيع أن نفهم هذا لا بد أن نعلم أنَّ كل لغة تشتمل على نص مقدس فهي لغة مقدسة عند أهلها، لكن ليس هناك قداسة للغة، لماذا؟

لأنَّ اللغة كائنٌ حيٌّ متطور متغير في تعبيراته وفي دلالات ألفاظه وتراكيبه، أي أنها تتغير وتتبدل، فبالتالي من هذه الحيثية ليس لها قداسة.

وفيما يخص اللغة العربية فقد اختصها الله عز وجل بأن جعلها لغة القرآن الكريم، فهي مقدسة؛ لاشتمالها على النص المقدس أي "القرآن الكريم" وهذا الذي يعتقده المسلمون.

كما يعتقد اليهود أن العبرية لغة مقدسة؛ لاشتمالها على النص المقدس وهو "التوراة"، وكذلك يعتقد المسيحيون بأن "الآرامية" لغة مقدسة؛ لاشتمالها على نص مقدس وهو "الإنجيل"، وهكذا يعتقد كل من له نص مقدس بقداسة اللغة التي أنزل بها، فيعتقد الهندوس بقداسة "السنسكريتية"؛ لأن "الفيدا" كتابهم المقدس مكتوب بها، كما يعتقد أتباع ذرادشت بقداسة "الفارسية" لأن "مصحف زاردشت" مكتوب بها وهكذا.

وعليه فيمكن القول بأن هناك لغات مقدسة باعتبار أنها تشتمل على نص مقدس من وجهة نظر المؤمنين به.

فالمقدس في لغة العرب والواجب المحافظة عليه هو القدر الذي نزل به النص القرآني والوحي النبوي، فالاحترام والتقديس في شأنه أن نحافظ عليه دون تحريف في دلالته أو تغيير للفظه أو تلاعب بمعانيه؛ وفي بقاء نصه واستمراره دلالة على إعجازه، وبقاء لفاعليته واستمرار العمل بما جاء به على الوجه الصحيح.

واللغة العربية هي اللغة التي نزل بها القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ (1)

فالقرآن الكريم كتابنا المقدس لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قوله فصل ليس هزل، وهو عندنا بمثابة النبي المقيم، فعندما ننظر للقرآن الكريم من منظور اللغة العربية نجد الآتي:

عدد حروف القرآن ما يقرب من 370 ألف حرف، وعدد كلماته ما يقرب من 66 ألف كلمة، منها ما قد تكرر وروده، ومنها ما لم يرد إلا مرة واحدة، والمكرر منه ما قد كرر آلاف المرات كلفظ الجلالة، ومنه ما كرر مئات المرات، ومنه ما كرر عشرات المرات، ومنه لم يكرر مطلقا، بل ذكر مرة واحدة فقط مثل كلمة "قسورة"؛ فلم ترد في القرآن الكريم كله إلا مرة واحدة.

ويبلغ عدد الألفاظ التي لم ترد في القرآن كله إلا مرة واحدة 1610 لفظًا، وبحصر ألفاظ القرآن الكريم المكرر منها، وغير المكرر؛ يتضح لنا أن عدد الجذور اللفظية للكلمات العربية التي وردت في القرآن الكريم يبلغ ما يقرب من 1820 جذر لغوي.

والجذر اللغوي هو: أصل الكلمة الذي يتفرع عنه كلمات عديدة، مثل كلمة علم فهي جذر يتفرع عنه عالم وعلماء وعليم وعلِم ويعلم وهكذا.

فالقرآن الكريم يشتمل على 1820 جذر بينما تشتمل اللغة العربية على 80 ألف جذر

---

(1) سورة الشعراء، الآية : 192 – 195.

لغوي مما يعني أن القرآن لم يشتمل إلا على 2٪ فقط من ألفاظ اللغة العربية.

وإذا نظرنا إلى السنة النبوية المصدر الثاني من مصادر التشريع، فتأتي ألفاظها في القداسة بعد القرآن الكريم، فنجد أنَّ السنةَ النبوية قد اشتملت على ما يقارب من 3600 جذر، بعضه قد ورد في القرآن، وبعضه لم يرد في القرآن، مما يعني أن ألفاظ القرآن الكريم والسنة النبوية يمثلان ما يقارب 4.5٪ من إجمالي ألفاظ اللغة العربية.

وتعد هذه النسبة هي النسبة المقدسة في اللغة العربية التي لا يمكن التلاعب بها ولا تغييرها، وستظل محفوظة كما هي لاشتمال القرآن الكريم عليها.

ولكي نتصور هذا نضرب مثالا: كلمة الخمر وردت في القرآن للدلالة على الشراب المسكر، هذا الشراب المسكر له عند العرب أكثر من تسعين اسما منها الداء والدواء والصفراء والعجوز والشَّمُولُ ، وغير هذا كثير، ولم يستخدم القرآن الكريم للدلالة على الشراب المسكر إلا كلمة واحدة من مجموع كل هذه الكلمات التي تدل عليه.

وكذلك الحيوان المعروف بالكلب له في لغة العرب أكثر من سبعين اسما، ولم يستخدم القرآن الكريم لدلالة عليه إلا اسمًا واحدًا وهو الكلب.

ومن الطرائف التي تروى في هذا أنَّ أبا العلاء المعري دخل يومًا على الشريف المرتضى، فعثر برجل فقال الرجل: مَن هذا الكلب؟ فقال أبو العلاء: الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسمًا.

فتعجب الرجل وتساءل وهل للكلب سبعين اسمًا؟ فقال له: نعم وأخبره بها.

فجاء الإمام السيوطي ولم يتوقف عند هذه الرواية حيث شعر أن كل من لم يعرف هذه الأسماء يلحقه هذا السباب، فألف كتابا لطيفا اسماه (التَّبَري من معرَّة المعرِّي)، جمع فيه سبعين اسما من أسماء الكلب منها، الواسق، والزارع، والجرو، والواشق،... وغيرهم.

مما يدل دلالة واضحة أن اللغة العربية غنية، واسعة، مليئة بالألفاظ، وأن القدر المقدس منها هو ما قد أتى به القرآن الكريم، أما باقي ألفاظها فلا تلحقه هذه القداسة وقد تتبدل وتتغير وتختفي بتغير الأزمان.

دور اللغة في بناءِ الحضارة

يقول ابن خلدون: "إن قوة اللغة في أمة ما تعني استمرارية هذه الأمة بأخذ دورها بين بقية الأمم؛ لأن غلبة اللغة بغلبة أهلها، ومنزلتها بين اللغات صورة لمنزلة دولتها بين الأمم".

اللغة والفكر وجهان لعملة واحدة، فاللغة أداة الفكر ، ولن تستطيع أمة أن تفكر بشكل صحيح، وهي لا تتكلم لغة صحيحة، وهذا ما أدركه المسلون الأوائل، فكان الاهتمام باللغة العربية، وعلومها من أسس عمل الدولة، ومن سياستها؛ ولذلك استطاعوا أن يصنعوا حضارة.

ونبهنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن فقدان اللغة من الضلال، فعن عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا قَرَأَ فَلَحَنَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:: «أَرْشِدُوا أخاكم فقد ضل»[1] .

بل ويصف سيدنا على رضي الله عنه تدوين اللغة وصياغة قواعدها بأنه "حياة"؛ حيث قال حين أرسل لأبي أسود الدؤلي يطلب منه تدوين اللغة "إن فعلت أحييتنا" مما يؤكد أن في اللغة حياة الأمم.

فالحفاظ على اللغة العربية من الحفاظ على الدين، إذ لا يمكن فهم القرآن والسنة إلا بها، كما أن إضعافها وعدم إتقانها إضعاف للدين، ولذلك نص العلماء على قاعدة في غاية الأهمية وهي : **الاستعمالُ من صفة المتكلم، والحمل من صفة السامع، والوضع قبلهما.**

---

1 - أخرجه الحاكم في المستدرك 2/447/ح 3643 ، وقال : صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ. وانظر: المزهر في علوم اللغة وأنواعها (2/ 341).

فإذا اختلف حمل السامع للفظٍ ما، عن استعمال المتكلم له، عن وضع الواضع له؛ كان ذلك انهيارا للتواصل البشري.

والمقصود من قولهم : "الاستعمال من صفة المتكلم": أي التكلم باللفظ بعد وضعه سواء أطلق على معناه الأول أو نقل عنه. كاستعمال لفظ "السماء" في القبة التي فوقنا.

والمقصود من "الحمل من صفة السامع": اعتقاد السامع لمراد المتكلم من لفظه سواء أصاب مراده أو أخطأه. كفهم السامع أن المراد من السماء هي تلك القبة التي فوقنا.

والمقصود من "والوضع قبلهما": أي أن وضع اللغة المتفق عليه والمدون في معاجمها يتقدم ويسبق استعمال المتكلم وحمل السامع.

ولذلك اهتموا بوضع المعاجم حتى يكون هناك ضابط يرجعون إليه عند الاختلاف في معنى لفظ ما، وحتى لا يستعمل لفظ في غير ما وضع له بلا علاقة، فتضيع اللغة ويتشتت أهلها.

وهذا الذي جعل هناك غضبًا سائدًا حينما قال طه حسين بأنه لا أصل للشعر الجاهلي؛ لأن القول بهذا معناه:

1- أن يضيع المعيار والضابط الذي نعود إليه عند الاختلاف.

2- أن يضيع الأصل الذي يبني عليه غيره، بل ويبنى على أساسه.

ولا يخفي أن في هدم المعيار والأساس هدما للحضارة وهدما للحاضر، وممن هاجم هذا القول وانتقده العلامة الأديب محمود محمد شاكر؛ حيث أكد أنَّ هذا القول سبق به مرجليوث، وقال به عندما شاع بأن الكتب المقدسة السابقة ليست لها لغة، ومرجليوث ومن على شاكلته كشاخت وغيرهم معروفة نواياهم، إسقاط التراث والسعي إلى التشكيك فيه، وأيضًا ممن رد على الدكتور طه شيخ الأزهر العلامة محمد الخضر حسين في كتاب سماه "نقض

كتاب في الشعر الجاهلي"، ولما وجد الدكتور طه حسين أن ما قاله تجاوز حدود قواعد البحث العلمي، وأن كتابه مليء بالتناقضات طبع كتابه طبعة جديدة وغير اسم الكتاب، وحذف منه بعض المواضع ، وذكر الشيخ محمود شاكر وغيره أنه تراجع عن مقولته تلك، ورحم الله الجميع.

ولما أقام علماء المسلمين الحجة على أن قول مرجليوث وغيره لا يتنزل على القرآن الكريم؛لأن نصه مقدس، ولغته قديمة ومدونة في الشعر الجاهلي، فما كان منه هو ومن تابعه إلا أن أنكر ورفض الشعر الجاهلي كله، ولكن مرجليوث لا يفقه دقائق اللغة، ويتكلم بناء على موروث ثقافي لا على أساس علمي.

وللأستاذ سعيد الأفغاني كتابات جيدة عن تاريخ اللغة والنحو بينت ضعف هذه الأقوال، وأيضًا جلى حقيقة هذه الأقوال الأستاذ الدكتور محمد البهي في كتابه الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، والدكتورة نفوسة سعيد في كتابها تاريخ الدعوة إلى العامية، وعليه فنحن أمام لغة ثابتة قوية بل أقوى من جميع هذه التشكيكات.

فاللغةُ تمثل هوية الأمم، فإذا ما فرطت أمة في لغتها تعرضت هويتها للخطر، فاللغة هي التي تساعد على بناء الحضارة، التي هي عمارة الدنيا، فلا عمارة ولا حضارة بدون لغة قوية، ولذلك نلحظ كيف تقدم الشعب الصيني، والياباني، والألماني وغيرهم عندما حرصوا على الحفاظ على لغتهم.

اللغة العربية ومواكبة العصر

ظلت اللغة العربية سليقية يتكلم بها العرب إلى ما يقارب القرن الرابع الهجري[1]، حيث كان الخلفاء والأمراء والولاة يداومون على عقد المجالس والمطارحات الأدبية الرائقة في بلاطهم[2] ، يستعرضون فيها شتي فنون اللغة من شعر وبلاغة وخطابة ويتنافسون في إجادة ذلك فيما بينهم، فكانوا بطبيعهم فصحاء لم يكن لديهم حاجة إلى علم يجمع لهم قواعد لغتهم حتى يتقنوها.

ومما يروى في ذلك عن الأصمعي قال: أصابت الأرض مجاعة؛ فلقيت رجلا منهم خارجا من الصحراء كأنه جذع محترق، فقلت: أتقرأ في كتاب الله شيئا؟ قال: لا. قلت: فأعلمك؟ قال: ما شئت. قلت: اقرأ قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ. قال: كل يا أيها الكافرون. قلت: [قل] قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ. كما أقول لك. قال: ما أجد لساني ينطق بذلك.

ونقل عنه أنه قال أيضا: ورأيت أعرابيًا ومعه بُنَيّ له صغير ممسك بفم قربة، وقد خاف أن تغلبه القربة؛ فصاح: يا أبت، أدرك فاها، غلبني فوها، لا طاقة لي بفيها!![3]

إلا أنهم بعدما اختلطوا بغيرهم من الأمم بعد فتوح المسلمين وبكثرة أسفارهم التجارية ما لبث أن تسلل اللحن إلى ألسنتهم فأفسد سليقتهم، فبدوا على غير عادة فيهم الاختلاف حول بعض الألفاظ وضبطها، وكان هذا بداية تأثر السليقة العربية.

---

(1) السَّلِيقَة: طبيعة ، سَجِيّة ، فِطرة. فلانُ يتكلّم بالسليقَة: أَي ينطقُ بالكلام صَحيحًا من غير تعلُّم.

(2) وهو ما نطلق عليه اليوم الصالونات الأدبية

(3) العقد الفريد (4/ 66).

ومن ذلك أن أعرابيان تشككوا في لفظة إنفحة هل تنطق (إِنْفَحَة) أو (أَنْفَحَة)، فوقف أحدهما قائلا: لن أجزم فيها حتى أسأل مشايخ قبيلتي. رغم أنه أعرابي فصيح، لكنها استشكلت عليه، فذهب فسألهم فأجمعوا أنها (إِنْفَحَة) بالكسر[1]، والشاهد هو قوله: حتى أسأل. يبين كيف بدأت تتأثر السليقة.

كذلك المناظرة التي دارت بين سيبويه والكسائي فيما عرف باسم المسألة الزنبورية[2] وتفصيلها: سأل الكسائي سيبويه ما تقول في: "كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هي، أو هو إياها؟ فقال سيبويه: فإذا هو هي، ولا يجوز النصب. فقال له الكسائي: لحنت.

وكان ذلك بحضرة الوزير يحي البرمكي فقال لهما: قد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما -أي: البصرة والكوفة- فمن ذا يحكم بينكما ؟ فقال الكسائي: هذه العرب ببابك، قد جمعتهم من كل أوب، ووفدت عليك من كل صقع، وهم فصحاء الناس، وقد قنع بهم أهل المصرين ، وسمع أهل الكوفة وأهل البصرة منهم، فيحضرون ويسألون.

فقال يحي: لقد أنصفت. وأمر بإحضارهم، فدخلوا فسئلوا فتابعوا الكسائي وقالوا بقوله.

---

(1) الإِنْفَحَةُ: شجرةٌ كالباذنجان. والإِنْفَحَةُ جزءٌ من مَعِدة صِغار العجول والجِداء ونحوهما. جاءَت الإبل كالإنفحة: ملاءً رواءً.

(2) وهي تعرف باسم المسألة الزنبورية من مسائل الخلاف القديمة بين الكسائي إمام مدرسة الكوفة، وسيبويه إمام مدرسة البصرة. وقد تعرض لهذه المسألة كمال الدين بن البركات الأنباري النحوي في كتابه: (الإنصاف في مسائل الخلاف بين العلماء: الكوفيين والبصريين)، وكثر خلاف العلماء حولها، كما أن لها حكاية مشهورة عن سيبوبه. والخلاف بين البصريين والكوفيين معروف.

فقال يحي لسيبويه لائما له: قد تسمع أيها الرجل.

ويروى أن الكسائي كان قد دفع للأعراب أمولًا حتى يقولوا بقوله أمام الوزير، وعندما طلب منهم أن ينطقوها بالنصب كما يقول " فإذا هي إياه" لم يستطيعوا؛ لأن سليقتهم لا تعرف الخطأ، فقال لهم: لا تنطقوها أمام الوزير، فإذا قلتها وقال سيبويه قوله، قولوا: الحق مع هذا. يعني نفسه، ففعلوا، مما جعل سيبويه يقول ليحي: قل لهم ينطقوها لن تطاوعهم ألسنتهم.

ويقال: إنَّ سيبويه بعد هذه المناظرة رحل إلى فارس وترك البصرة ولم يعد إليها حتى مات.

وهذه الرواية تبين لنا كيف أنَّ السليقة في العرب كانت هي الأصل الذي يعودون إليه عند الاختلاف، كما تبين لنا كيف كان الخلفاء والأمراء يهتمون بالصالونات الأدبية والمناظرات العلمية.

إلا أنه بعدما بدأت العجمة تدخل ألسنة العرب خيف على ضياع اللغة العربية، وما يستتبع ذلك من انغلاق الأفهام عن القرآن، فاستنبطوا قواعد اللغة العربية من خلال السماع ومجرى الكلام، واخترعوا مصطلحات لها مثل الإعراب والفاعل والمفعول، وجعلوها صناعة.

يقول أبو الأسود الدؤلي رحمه الله –: "وضع النحو حين اضطرب كلام العرب، فغلبت السليقة ".ويعد هذا هو بداية عصر الاحتجاج الذي استمر مائتى عام بعد زمن السليقة.

ثم عكف العلماء على تقعيد اللغة وتدوينها مستعينين على ذلك بالقرآن الكريم والسنة والنبوية وسليقة القبائل العربية، فأنشأوا علومًا جمة للحفاظ عليها واستعادة ملكتها، فكان علم النحو والصرف، ومتن اللغة، والعَرُوض الذي يضبط القوافي، والشعر، والرواية؛ بمثابة

جسرا لسد الفجوة التي باتت تتسع بين العرب ولغتهم واستمر ذلك حتى القرن العاشر الهجري.

ولم يفرق العلماء حينئذ في تدوينهم اللغة بين قبائل العرب المختلفة في استخدامهم ألفاظها والاحتجاج بها، ولكنهم أخذوا اللغة ككائن هو محور الحضارة حيثما كان مصدر الكلمة ومن أي قبيلة كانت من القبائل العربية الست الموجودة حينئذ وهي: قبيلة قَيْس، وقبيلة كميت، وقبيلة كِنَانة التي منها قريش، وقبيلة أسد، وقبيلة هُذَيْل، وبعضٍ من طَي وهي من العماليق القدماء.

فكان مجموع هذا المُكَوَّن اللغوي من هذه القبائل هو المعيار الذي به خدم الكتاب والسنة والمقوم اللغوي الذي حافظ على اللغة العربية.

ويعد أول من بدأ في تدوين اللغة أبو الأسود الدؤلي بإشارة من سيدنا علي رضي الله عنه وكتب الناس بعده إلى أن جاء الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي أقام علم النحو، وأخذه عنه سيبويه الذي أكمل الفروع وأكثر الشواهد، ووضع كتابه المشهور الذي أصبح إماما في النحو لكل كتاب بعده، ثم حذا حذوه الفارسي والزجّاج في كتب مختصرة للتعليم.

ثم انقسم النحويون إلى مدرستي البصرة والكوفة ، وكثر اللجاج بينهما في الأدلة والقاعدة والقياس والشواذ والاختلافات الإعرابية خصوصا في القرآن، ثم جاء المتأخرون فاختصروا المطولات كما فعل ابن مالك، أو اقتصروا على المبادئ كما فعل الزمخشري في المفصل ، وربما حولوا المختصر إلى نظم كابن مالك وابن معطي.

وقد بلغ الاهتمام باللغة العربية الحد الذي جعلها هي لغة العصر ولغة التقدم والازدهار؛ وذلك لاتباطها الوثيق بثقافة الممسلمين وتقدمهم؛ فمما لا شك فيه أنه كلما تقدمت الأمم وسادت كان ذلك تقدمًا وسيادة للغتهم، ومن هنا كان تعلم اللغة العربية في فترات مجد

المسلمين مثار فخر، وكان الشباب الأوربي والفرنسي يباردر ليتعلمها ويتفاخر بالتكلم بها أمام الناس، فكانوا يذهبون إلى الأندلس؛ لينهلوا من علوم المسلمين واكتشافاتهم وكان لزامًا على كل من يريد أن يتعلم العلوم الحديثة، أن يتعلم العربية أولًا، حتى إذا ما رجعوا إلى بلادهم يتفاخرون أمام أقرانهم بأنهم درسوا في بلاد المسلمين، ويتكلمون العربية، بل ويتعمدون أن يخلطون في كلامهم بين الألفاظ العربية ولغتهم القومية استشعارًا بتميزهم عن غيرهم ممن لا يعرف العربية.

الأمر الذي كان يستفز بعضا من رجال الدين المسيحي حتى قال بعضهم منتقدا لهولاء الشباب: "يطرب إخواني المسيحيون بأشعار العرب وقصصهم، فهم يدرسون كتب الفقهاء والفلاسفة لا لتفنيدها، بل للحصول على أسلوب عربي صحيح رشيق".[1]

وهذا لا شك أنه مظهر من مظاهر علو همة المسلمين، وكيف أنهم لما كانت لهم الغلبة رغب الجميع في أن يتشبهوا بهم.

فكانت اللغة العربية حينئذ لغة العلم والعلوم، جمعت بين طياتها الثقافة الإسلامية بازدهارها وتقدمها، إضافة إلى العديد من ثقافات الدول الأجنبية، كاليونان والرومان والفرس والهنود؛ وذلك بسبب اهتمام خلفاء المسلمين بترجمة ثقافات الدول الأخرى، فأصبحت بذلك اللغة العربية متسعًا لجميع الثقافات والعلوم من طب وفلك ورياضيات وهندسة ومنطق وفلسفة واقتصاد، ولم يكتف علماء المسلمين بترجمة العلوم إلى العربية، بل

1 - وهو القسَّ القُرْطُبي (الفارو القرطبي Alvaro de cordoba) وكتبه في وثيقة كتبها سنة 240هـ (854م)، يَنْعَى فيها ذلك على النصارى، سَمَّى تلك الوثيقة اللاتينية «الدليل المنير» Indiculus Luminosus.

انكبوا عليها بالدراسة والتمحيص، فأضافوا وانتقدوا واخترعوا ونقحوا ...إلخ.

وهذا يرد على من يدعي ويتشكك في صلاحية اللغة العربية بثرائها ومرونتها على مواكبة العلوم العصرية، فنقول لهم: إذا رجعتم إلى التاريخ ستعلمون أن اللغة العربية لم تكن فقط لغة العلوم الحديثة، بل كانت لغة التقدم والازدهار، وما زالت إلى الآن قادرة على أن تفى بمصطلحات العلوم الحديثة، وقد وفت بالفعل، فاللغة العربية غنية ثرية ولمناهج العلوم العصرية بالفعل معدة، وتدرس بها، ومن ذلك حرص بعض الدول العربية كالشام والسودان على تدريس الطب باللغة العربية في عصرنا هذا، ولم نجد في الأمر استحالة أو صعوبة وتعقيدا.

فمما لا شك فيه أن اللغة العربية قادرة على استيعاب العلوم المعاصرة من تكنولوجيا وطب وغيرهم، كما أن لدينا قواعد للتعريب منضبطة تستطيع أن تفيَ بمطلبات العلوم الحديثة، إلا أن هذا الأمر لا بد فيه من إرادة سياسية قوية.

وهذا لا يعني إطلاقا الانعزال والبعد عن الثقافات واللغات الأخرى، بل نحن حريصون كل الحرص على تعلم اللغات الأجنبية والتفوق فيها، لكن على أن يكون ذلك بعد إتقان العربية، ثم ننطلق لإتقان ما نشاء من لغات، وهذا ما يفعله كثير من الدول المتقدمة التي اعتمدت لغتها القومية لغة أساسية للتعليم كالنمسا وفرنسا والصين واليابان وغيرهم ، ولم تساير الهوجة التي أصابت بعض الناس وهي: أن الإنجليزية هي لغة العصر وما أشبه، ولا يستطيع أن يقول أحد بأن هذه الدول أو غيرهم منعزلين عن العالم أو غير مواكبين للتطور الحضاري؛ لكونهم لا يدرسون بالإنجليزية.

وإذ تمكن الإنسان المسلم من لغته استطاع أن يساعد في البناء الحضاري، ثم إن أراد أن يتعلم علوم الشريعة ، لم يختل فهمه ، وسبق وفاز ، فلا يجد العراقيل التي تقابل أبناءنا في هذه

الآونة، وما نعانيه الآن من وجود جماعات إرهابية، وملاحدة بين أظهرنا، إلا من الضعف اللغوي، ففهم اللغة واجب؛ لأنها اللفظ الذي جاء به النص المقدس.

القواعد الفقهية

سبق أن تكلمنا على التجريد وأن من أهم الأمور التي ميزت العقل المسلم عن غيره هو التجريد، وهذا بخلاف العقل الغربي الذي يعيش في حيز المادة والمحسوسات، وقد وضح الأستاذ مالك بن نبي هذا في مثال دقيق ، فأثار تساؤلًا: ما الذي يفرق بين المسلم إذا استيقظ من نومه وبين الغربي، فذكر أن المسلم ينظر إلى السماء؛ لأنه يتفكر ويتأمل كيف يساعد في بناء هذا العالم، بينما غيره ينظر في غرفته وما تحويه من أساس فنظرته مادية لحظية لا تتجاوز الوقت ، بينما المسلم نظرته تتجاوز الوقت، وقد اتضح هذا في حديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ"(1)

فعلم المسلمون أن كل واحد فينا لا بد أن يكون لبنة في بناء هذه الأمة حتى يكتمل به البناء ، وأنهم حراس على هذا البيت الذي وضعه الأنبياء وختم بسيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم.

فاجتهد الفقهاء وبذلوا جهدًا كبيرًا للمحافظة على هذا البناء، فهم أمناء عليه، فتأملوا في نصوص الوحي المقدس يبحثون عن منهج الله سبحانه وتعالى في كتابه، وفي سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، يستخلصون المنهج المبثوث في الشريعة كسريان الماء في الورد، وجلسوا

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه 186/4/ح3535، ومسلم في صحيحه 1790/4/ح2286 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

السنين الطوال يحاولون استنباط ما أسموه بالقواعد الكلية الفقهية الكبرى، التي هي جزءٌ لا يتجزأ من عقلية المسلم.

و سنشير إلى جزء من جهودهم ليعلم الناس كيف تعبت هذه العقول ؛ لتصل إلينا أحكام الله صحيحة منضبطة غير مشوبة، وليعلم الناس الفارق بين منهج العلماء المجتهدين وفوضى الخوارج المارقين الذين ابتلي بهم المسلمون في عصرنا الحالي .

لما جاء رسول الله صلي الله عليه وسلم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن ضيق الدنيا إلي سعة الآخرة، أتى بأحكام كثيرة جدًا كالوضوء، والصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، والبيوع، والطلاق، والزواج، والقضاء والشهادات والجهاد...إلخ، فجلس العلماء يتأملون في الكتاب والسنة حتى يستنبطوا أوصافا للأفعال البشرية؛ الحرام والواجب والمندوب والمكروه والمباح، وهذا ما يسمونه بالأحكام الخمسة، ونتج منها مجموعة من الجمل الكثيرة التي سبق أن ذكرنا أنها وصلت إلي مليون ومئتين ألف جملة، مثل: الصلاة واجبة، الخمر حرام... إلخ.

ولما اتسع الأمر لهذا الحد صعب حفظه، فأتى العلماء وجلسوا يتدبرون هل هناك شيء وراء المليون ومئتين ألف مسألة نستطيع من خلاله أن نعلم حكم هذه المسائل دون حفظها؟ كمعادلة نصوغ بها هذا الكم الهائل، وبحفظ هذه المعادلة نعرف الأحكام.

فأعملوا عقولهم بناء على منهجية استقرائية دقيقة فضموا الفروع لشبيهها، فما تشابه من فروع في باب الزواج مع فروع من باب الوقف مثلا ضموه له؛ لكي يتوصلوا إلى المفتاح الجامع بينهم.

وجد العلماء أن المليون ومئتين ألف مسألة من ورائهم خمسة مفاتيح، ولهم خمسة أبواب وهي القواعد الفقهية الكبرى: "الضرر يزال"، و"العادة محكمة"، و"المشقة تجلب التيسير"،

و"اليقين لا يزول بالشك"، و"الأمور بمقاصدها"، ومن هنا نشأ علم اسمه "علم القواعد الفقهية"، وجَمَع أحدهم هذه القواعد الخمس في أبياتٍ نسبت للإمام الشافعي:

ضَرَرٌ يُزَالُ وَعَادَةٌ قَدْ حُكِّمَتْ * وَكَذَا المَشَقَّةُ تَجْلِبُ التَّيْسِيرَا

وَالشَّكُ لاَ تَرْفَعْ بِهِ مُتَيَقَّنًا * وَخُلُوصُ نِيَّةٍ إِنْ أَرَدْتَ أُجُورَا

خَمْسٌ مُحَرَّرَةٌ قَوَاعِدُ مَذْهَبٍ * لِلشَّافِعِيِّ بِهَا تَكُونُ بَصِيرَا [1]

وهذه القواعد موجودة في كل مذهب، ولذلك رأينا من ألَّف في تلك القواعد كابن السبكي، وابن الوكيل، ثم السيوطي أخذ منهم، ثم تبعه ابن نُجيم الحنفي فاختصر أشباه السيوطي في كتابه (الأشباه والنظائر) أيضًا، ويأتي ابن عابدين ويقر القواعد التي تكلم عنها ابن نُجيم وهما من فقهاء الحنفية، وقد سبقهم بها الإمام السيوطي الشافعي.

وسنعرض لكل واحدةٍ من هذه الخمس، حتى نرى كيف كان يُفكر فقهاء المسلمين:

القاعدة الأولى: "الأمور بمقاصدها".

وتعني أن الفعل مرهون بمقصده، فإن كان خيرا فخير، وإن كان شرا فشر، ولذا فعلى الإنسان أن يُخلص النية لله رب العالمين، وأن يحرر المقصد، ويتوجه بجميع أعماله إلى الله ، وذلك لأن الله باقٍ، والمعتبر في الأعمال النيات، فيتكيف الحكم الشرعي للعباد وفقًا للمقصد من فعله، وذلك يفسر كيف يختلف الحكم في شخصين فعلا ذات الفعل، فكان أحدهما مثابًا عليه والآخر ملامًا، بسبب اختلاف مقصد كلٍّ منهما.

---

(1) انظر: كتابنا "المدخل إلى دراسة المذاهب الفقهية"، فقد تكلمنا فيه على هذه المسألة وشبيهاتها.

وهذه القاعدة من مكونات عقل المسلم، وهي تؤثر في سلوكياته، وتؤثر في استنباط فقهه، وتؤثر في فهمه للمصادر الشرعية، بل وفي سيره في الحياة.

واستخرج الفقهاء هذه القاعدة من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ». (1)

وكان هذا الحديث هو العمدة لاستخلاص هذه القاعدة التي نراها، وهي مبثوثة في أكثر من سبعين بابًا من أبواب الفقه الإسلامي، وقد صدر الإمام البخاري صحيحه بهذا الحديث المستنبط منه هذه القاعدة، وكذلك الإمام النووي في اختياره للأحاديث الأربعين التي بُني عليها الإسلام، والشهيرة بالأربعين النووية، قد جعل حديث « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» أول حديثٍ في هذا المقام، والعلامة السيوطي في كتابه (الأشباه والنظائر) يقول: «إن هذا الحديث يدخل في أكثر من سبعين بابًا من أبواب الفقه». (2)

والفُضيل بن عياض يقول: «لا يقبل الله العمل إلا بالإخلاص والصواب». أما الإخلاص « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»، وأما الصواب «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ» (3) ؛ فينبغي أن يكون العمل خالصا حتى يقبله الله سبحانه وتعالى، وأن يكون على نمط

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه 1/6/ح1.

(2) نقله السيوطي عن الإمام الشافعي. الأشباه والنظائر، للسيوطي ص 9.

(3) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه3/184/ح 2697، ومسلم في صحيحه 3/1343/ح 1718من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

ما أرشدنا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس خارجًا عن ذلك.

القاعدة الثانية: «الضرر يزال».

بنيت هذه القاعدة على قول النبي صلى الله عليه وسلم: « لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ » (1)، ومعنى الحديث أنك ينبغي ألا تضر نفسك، وألا توقع الضرر بغيرك، ومن هنا أمرنا الشرع ألا نضر بالناس، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، بل ألا نضر بشيء من الكون بأكمله بما فيه من جمادات وحيوانات ونباتات.

فقد بُنيت عقيدة المسلم على أن هذا الكون الذي حولنا يسبح لله تعالى، قال: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (2) ؛ فالمؤمن يرى نفسه متفاعلًا مع الكون، ولذلك لا يتسبب في إلحاق الأذي به.

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مَرَّ بِسَعْدٍ، وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَقَالَ: "مَا هَذَا السَّرَفُ؟ " فَقَالَ: أَفِي الْوُضُوءِ إِسْرَافٌ؟ قَالَ: "نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهَرٍ جَارٍ" (3)

فالمسلم لا يؤذي شيئًا في الكون، بل يتعامل مع جميع الكائنات باحترام ورحمة، حيث يعلم أنها من عباد الله مثله، تسبحه وتسجد له، وقد تجسد لنا هذا في نماذج عديدة من سيرته وهديه صلى الله عليه وسلم، فعندما اشتكى له الجمل في البستان أن صاحبه يُجيعه، وأنه يضربه، وأنه يُحمله ما لا طاقة له به؛ رأيناه صلى الله عليه وسلم وهو يلوم الشاب صاحب

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده5/55/ح 2865 ، وابن ماجه في سننه 2/784/ح 2341من حديث ابن عباس.

(2) سورة الإسراء، الآية: 44.

(3) سنن ابن ماجه (1/ 272).

الجمل، ويأمره أن يخفف عنه، وألا يضربه، وأن يعامله معاملةً حسنة، وأزال ذفرةً بيديه الشريفتين، أي: أزال دمعة من هذا الجمل، ومسح خلف أذنه، ولنا فيه صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة.

ويقول صلى الله عليه وسلم: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»(1)

وقال صلى الله عليه وسلم -: "اتَّقُوا المَلاعِنَ الثلاثةَ: البَرازَ في المَوَارِدِ، وقارِعَةِ الطَرِيقِ، والظِّلِّ» (2)

إذن هذه مواطن أُمرنا بتنزيهها ونظافتها حتى لا يلعنا الله، ولا يلعنا الناس، ويرى الإمام النووي أن مقتضى لفظ الحديث حرمة تلك الأفعال.(3)

إذن فقد أُمرنا ألا نقدم على إيقاع ضرر بأحد أيا كان، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا التَقَى المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ». فقال الصحابي: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا القَاتِلُ فَمَا بَالُ المَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»(4)

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه 1/63/ح 35 .

(2) أخرجه أبو داود في سننه1/7/ح 26 ، وابن ماجه في سننه1/119/ح329، والحاكم في المستدرك 1/273/ح 594 ، وقال : " هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ "، وقال الذهبي: صحيح .

(3) قال الإمام النووي في المجموع شرح المهذب(2/87): وهذا الأدب وهو اتقاء الملاعن الثلاث متفق عليه وظاهر كلام المصنف والأصحاب أن فعل هذه الملاعن أو بعضها مكروه كراهة تنزيه لا تحريم وينبغي أن يكون محرما لهذه الأحاديث ولما فيه من إيذاء المسلمين وفي كلام الخطابي وغيره إشارة إلى تحريمه.

(4) صحيح البخاري: 6/2594، رقم (6672).

ونص القرآن الكريم على أنَّ في القصاص حياة، ردعًا لفكرة الاعتداء على الغير، وتحذيرًا منها، ولأن الضرر يزال، وكأن من طرق إزالته التهديد من إحداث ضرر مثله بفاعله.

فإذا علم من أراد القتل أنه حتما سيقتص منه كان ذلك رادعًا له عما يريد، وكما جعل الشرع الشريف القصاص في القتل جعله في كل شيء، ولو في الجروح الصغيرة؛ ولذلك كانت قاعدة «الضرر يزال» مستنبطة من مجمل الشريعة.

وقد تفرع عنها قواعد عديدة منها: «ارتكاب أخف الضررين واجب»، «الضرورة تُقدَّر بقدرها» وما أشبه ذلك.

القاعدة الثالثة: "المشقة تجلب التيسير"

من مكونات العقل المسلم أن الشريعة السمحاء تفتح بابها للجميع بكل يسر؛ وأنها راعت في جميع أحكامها المشقة، فجعلت لها أحكاما خاصة، وأناطت لها من الرخص ما يتناسب مع قدر المشقة؛ حتى ترفع الحرج عن المكلفين، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾[1] ، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[2].و «مَا خُيِّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا» [3]. وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا

(1) سورة الحج، الآية: 78.

(2) سورة البقرة، الآية: 286.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه 8/160/ح 6786 ، ومسلم في صحيحه 4/1813/ح 2327.

﴿٦﴾ (1).

ونهى النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يحملوا أنفسهم فوق طاقتهم فيقول: «مَهْ عَلَيْكُمْ مَا تُطِيقُونَ مِنَ الأَعْمَالِ، فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا» (2)

والمراد بالمشقة الجالبة للتيسير: المشقة التي تنفك عنها التكليفات الشرعية كمشقة السفر على الصائم، فتجلب له التيسير بالفطر، وبقصر الصلاة، وكمشقة المرض التي تجعل للمريض أحكامًا تتناسب معه.

قال صلى الله عليه وسلم: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ العَذَابِ، يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ نَوْمَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ، فَإِذَا قَضَى أَحَدُكُمْ نَهْمَتَهُ، فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ»(3)

وقد تكلم الفقهاء في إذا ما كان المقصود بالسفر المعصية فهل يحق له الترخص فيه، والقول أنه لا رخصة لمن قصد بسفره المعصية كمن سافر بقصد قطع الطريق أو الفساد في الأرض ونص الفقهاء على أن "الرخص لا تناط بالمعاصي".

وفرقوا بين أن تكون المعصية بالسفر، والمعصية في السفر، فمن سافر غير قاصد بسفره معصية، ثم وقعت منه أثناء سفره جاز له التمتع بالرخص الشرعية، وذلك بخلاف من قصد بسفره ارتكاب المعاصي.

فالمشقة التي تنفك عنها التكليفات الشرعية تجلب التيسير كما سبق وبينا.

---

(1) سورة الشرح، الآية: (5-6).

(2) أخرجه البخاري في "صحيحه" (2/ 54).

(3) أخرجه البخاري (4/ 58) ومسلم (3/ 1526) في صحيحهما.

أما المشقة التي لا تنفك عنها التكليفات الشرعية، كمشقة الجهاد، وقتل البغاة والمفسدين، وألم الحدود؛ فلا أثر لها في جلب التيسير والتخفيف.

والأصل في هذه القاعدة: قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾(1)

ولذا فقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يشدد المسلم على نفسه ، أو أن يحملها ما لا تطيق.

فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ، فَقَالَ: «مَا هَذَا الحَبْلُ؟» قَالُوا: هَذَا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ، حُلُّوهُ لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ»(2)

فالمشقة تجلب التيسير قاعدة فقهية تُعد مكونا من مكونات العقل المسلم، تسرى معه في جميع حياته وتكليفاته على الوجه الذي بينا، إلا أنها غابت عن كثير ممن آثروا أن يأخذوا من الدين ما يتناسب معهم ومع طباعهم الغليظة، فنراهم يشددون على الناس دينهم ودنياهم ادعاء منهم أنَّ هذا هو الدين، وهو منهم براء.

فإذا طبق المكلف الأحكام الشرعية فضاقت عليه لعارض فإن هذا الضيق يتيسر ويتسع، فيستجلب السهولة عليه في تطبيق الأحكام، وهذا هو عصب الدين بأسره.(3)

القاعدةُ الرابعة وهي: «اليقين لا يُزال بالشك»:

---

(1) سورة البقرة، الآية : 185.

(2) صحيح البخاري (2/ 54).

(3) انظر: شرح القواعد الفقهية لمصطفى الزرقا ص 88.

قاعدة اليقين لا يزول بالشك، من أمهات القواعد التي عليها مدار الأحكام الفقهية، وقد ذكر الفقهاء أنها تدخل في جميع أبواب الفقه، والمسائل المخرجة عليها من عبادات ومعاملات وغيرها يبلغ ثلاثة أرباع الفقه.

ومعناها: أن ما كان ثابتًا متيقنًا لا يرتفع بمجرد طروء الشك؛ لأن الأمر اليقيني، لا يعقل أن يزيله ما هو أضعف منه، بل ما كان مثله أو أقوى.

هذا ولا فرق بين أن يكون اليقين السابق مقتضيًا للحظر، أو مقتضيًا للإباحة، فإن العمدة عليه في كلتا الحالتين، ولا يلتفت إلى الشك في عروض المبيح على الأول.[1]

وأخذ العلماء هذه القاعدة من قول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : «إِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ فِي بَطْنِهِ شَيْئًا، فَأَشْكَلَ عَلَيْهِ أَخَرَجَ مِنْهُ شَيْءٌ أَمْ لَا، فَلَا يَخْرُجَنَّ مِنَ الْمَسْجِدِ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا، أَوْ يَجِدَ رِيحًا» [2].

ويندرج تحت هذه القاعدة عدة قواعد منها:

" الأصل بقاء ما كان على ما كان"

"ومن تيقن الفعل وشك في القليل أو الكثير حمل على القليل" لأنه المتيقن.

واليقين أمرٌ قطعي، والقطع ضده على ثلاثة أنحاء:

- إما أن يكون معناه إدراك الطرف الراجح ويسمى «الظن».
- أو يكون إدراك الطرف المرجوح ويسمى «الوهم».

---

(1) انظر: كتابنا المدخل لدراسة المذاهب الفقهية ص340.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه 1/276/ح 362.

- أو يكون استواء الطرفين ويسمى «الشك».

والشريعة الإسلامية جمعت في أحكامها ما بين القطعي والظني، ويعد ذلك من أبواب التيسير لله تعالى على عباده، حيث جعل الأمور الظنية مما يقبل الاجتهاد فيها وصحح عمل كل من اجتهد فهداه اجتهاده إلى حكم ما دام يملك أدوات الاجتهاد ويعمل وفق آلياته الصحيحة ومن هنا كانت المذاهب الفقهية رحمة للأمة وسعه.

فقد اختلف الفقهاء في حكم لمس المرأة ونقضه الوضوء، فيرى الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه أنه لا ينقض، بينما يرى الإمام الشافعي رضي الله عنه بأنه ناقض للوضوء.

وكلاهما اجتهد فيما فهم من الكتاب والسنة وكلام الصحابة رضي الله عنهم، ولذا فأي منهم اتبع المقلد ففعله صحيح.

أما القطعي في أحكام الشريعة فليس محلا للاجتهاد وغير مقبول الاختلاف فيه، لأنه يمثل هوية الدين، ومن ذلك: أركان الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت.

فجميع المسلمين اتفقوا على أن البيت الحرام هو الكعبة، وليس بيت المقدس مثلًا، وعلى أن الشهر الذي فرض صومه هو شهر رمضان ...إلخ.

وهكذا ترى هوية الإسلام قد اتفق عليها الناس بصورةٍ يقينية لم يختلف فيها اثنان، وهذا هو الإجماع.

«اليقين لا يزول بالشك» قاعدة مهمة تؤدي إلى قوة المسلم، وثباته، وتباعد بينه وبين الوسواس، والشك والتردد، وتجعله صاحب نفسٍ قوية؛ فالشك لا يتلاعب به، ولا يغرق عقله في دياجي التيه والشك، بل يكون قوي النفس صحيح الإدراك ليس عرضة للأوهام والظنون، ولذلك في الحديث الشريف عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ» (1)

القاعدة الخامسة: "العادة مُحكَّمة".

من القواعد الفقهية التي تعد مكونا من مكونات العقل المسلم، والمراد بها: أن العادة والعرف يُعدان حكمًا ومرجعًا ما لم يخالفا نصًا شرعي.

والأصل في هذه القاعدة: قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (2)

ومما يستفاد منها رفع الحرج عن المكلفين وعدم الإعنات عليهم بمراعاة عادتهم التي جبلوا عليها، ما دامت ليست مما حرمه الشرع بنص أو قياسٍ على نص.

يقول الإمام الرازي: وأما القسم الثاني: وهو الذي لا يجوز دخول المساهلة والمسامحة فيه، فالحكم فيه أن يأمر بالمعروف، والعرف، والعارفة.

والمعروف: هو كل أمر عرف أنه لا بد من الإتيان به، وأن وجوده خير من عدمه؛ وذلك لأن في هذا القسم لو اقتصر على الأخذ بالعفو ولم يأمر بالعرف ولم يكشف عن حقيقة الحال؛ لكان ذلك سعيا في تغيير الدين وإبطال الحق وأنه لا يجوز.

ثم إنه إذا أمر بالعرف ورغب فيه ونهى عن المنكر ونفر عنه فربما أقدم بعض الجاهلين على

(1) أخرجه مسلم في صحيحه 4/2052/ح 2664.

(2) الأعراف، الآية:199.

السفاهة والإيذاء فلهذا السبب قال تعالى في آخر الآية (وَأَعْرِض عَنِ الْجَاهِلِينَ) [1].

ويتضح من هذه القاعدة كيف يمكن للمسلم أن يتعايش ويندمج مع الآخر في جميع الأحوال والأزمان والأماكن، بحيث يكون بينه وبين عالمه المحيط به تناسق واندماج، بما يضمن تفاعله وتواصله مع الجميع مما يحقق له حياة هادئة دون تفريط في الثوابت الإسلامية.

وقد ترك لنا الرسول صلى الله عليه وسلم أروع نماذج في التعايش مع الآخر داخل الدولة الإسلامية وخارجها.

النموذج الأول: مجتمع مكة:

عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيئة يغلب على سكانها عبادة الأوثان، وممارسة الرذيلة من بغاء وشرب خمر وارتكاب للفواحش، وامتد ذلك إلى أن القوي كان يطغي على الضعيف ويأكل حقه.

ويصف حالهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه حين خطب أمام النجاشي فقال: "أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار يأكل القوي منا الضعيف"[2]

وفي هذه البيئة غير السوية عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومه متآلفا معهم، يقوم بدور اجتماعي فعال، ويتعاون في أمور البر والخير، ومن مظاهر ذلك تحالفه صلى الله عليه وسلم مع قبائل من قريش تعاهدوا على نصرة المظلوم.

---

1 - تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (15/ 434).

2 - أخرج القصة الإمام أحمد في مسنده 3/263/ح1740، وابن خزيمة في صحيحه 4/13/ح2260.

ومن تعايشه صلى الله عليه وسلم مع المختلف عنه تماما أنه كان يدخل المسجد الحرام ويصلي فيه، وفيه أكثر من ثلاثمائةٍ وستين صنمًا.

فضرب لنا مثالا كيف يعيش المسلم في وسطٍ مختلفٍ تمام الاختلاف بعضه عن بعض.

النموذج الثاني: مجتمع الحبشة

كانت الحبشة كقريش مجتمعا غير مسلم، ولكنه كان يكفل للأقلية المسلمة العدل، ويقدم لهم الحماية والحرية الدينية. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في النجاشي ملك الحبشة «إِنَّ بِالْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ فَلَوْ خَرَجْتُمْ إِلَيْهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا» [1]، وفي هذا الحديث يعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم قيمة مهمة جدا، وهي: أننا نحترم العدل حيثما كان ونحترم الكرم حيثما كان، بل نحترم جميع القيم الأخلاقية حيث وجدت ومن أي إنسان صدرت منه سواء كان مسلم أم غير مسلم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [2]

وضرب صحابة سيدنا رسول صلى الله عليه وسلم نموذجًا رائعًا للتعايش مع غير المسلمين، ونجد في هذا النموذج مفهوم المواطنة، ولقد قام المسلمون بواجبات المواطنة خير قيام، كما أنهم تمتعوا بحقوقها.

عرض المسلمون على النجاشي أن يشتركوا معه في حربه أمام ابن عمه الذي أراد أن يسلبه ملكه، لكنه رفض، فأرسلوا الزبير بن العوام يستطلع لهم الأخبار، فأخبرهم بنصر

(1) أخرجه ابن إسحاق في سيرته ص 74، ومن طريقه البيهقي في السنن الكبرى 9/16/ح 17734.

(2) سورة المائدة، الآية: 8.

النجاشي على عدوه، ففرحوا لذلك فرحًا شديدًا، تقول أم سلمة رضي الله عنها "فوالله ما فرحنا بشيء فرحنا بظهور النجاشي "[1]

ولقد آثر كثير من الصحابة البقاء في الحبشة حتى بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة.

فَهِمَ صحابة النبي صلى الله عليه وسلم معنى المواطنة، وفهموا معنى أن «العادة مُحَكَّمة»، وفهموا معنى التعايش، وكيف يعيش المسلم في دولة غير إسلامية، أو في جوٍ غير إسلامي حياة مستقرة دون صدام.

النموذج الثالث: نموذج المدينة في عهدها الأول.

كانت المدينة في ذلك الحين مقسمة بين اليهود والمسلمين والمنافقين والمشركين، وقد تعايش النبي صلى الله عليه وسلم مع كل هذه الطوائف المختلفة، بل وكتب وثيقة سياسية اجتماعية كانت تعد بمثابة الدستور الذي سار عليه أهل المدينة، وهي وثيقة قائمة على العدالة، وتوافق الحقوق والواجبات وتناسقها، ونصت في معانيها على التعايش السلمي بين الجميع، وتوفير الأمن للجميع، المحافظة على الحرية الدّينية للجميع، إعطاء الفرصة للجميع في المشاركة الاجتماعية، إقرار مبدأ المسئولية الفردية.

فكأن هذه الوثيقة أرادت أن تقول لجميع الطوائف المختلفة: إنَّ بيننا مشتركا يمكننا أن نجتمع حوله، وهو المدينة.

النموذج الرابع: المدينة في عهدها الأخر.

---

1 - أخرجه البيهقي في " السنن الكبرى " 9/242/ح 18426.

ليس صحيحًا أن يقال أن المدينة في عهدها الأخير كانت أحادية لا تنوع في سكانها من حيث الدين، فإن المسلمين لا يعترفون أو يقرون بمسألة تطهير الأرض وتوحيد الدين وإكراه الناس على الدخول في دينهم، أو الرحيل من أرضهم.

فالمدينة حتى وفاة النبي صلى الله عليه وسلم كان فيها يهود يبيعون ويتاجرون ويعيشون بسلام، نعم لم يعد لليهود في المدينة تكتلات سكنية أو حصون حربية منفصلة ومغلقة، ولكن كنا هناك يهود مدنيون يعيشون مع أهلها.

هذه النماذج الأربعة التي تركها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبغي أن ندرجها أثناء شرحنا لمكوِّنٍ من أهم مكونات العقل المسلم وعنوانه «العادة مُحكَّمة»، حتى نُحسن استعماله، ونعي عمقه.

ومما لا شك فيه أننا أصبحنا في عصرنا هذا نحتاج مرةً أخرى إلى التنبه لتلك القواعد التي تُكوِّن العقل المسلم، من أجل أن يوجد المسلم الحق في كل الحضارات، وفي كل الأرض، وفي كل مكان، وأن يعيش العصر من غير مشكلات، ومن غير خلاف؛ فإنه لو استوعب تلك القواعد، وتلك المُكوِّنات، وتلك المقدمات، وتلك المبادئ، وتلك المنطلقات؛ فإنه سيرى نفسه يطبقها من غير عناء، ومن غير معاناة يُوقِع فيها نفسه.

ومن الأمور التي كونت العقل المسلم مراعاة المقاصد، وكان اعتبار مراعاتها في غاية الأهمية، ولذا سنتكلم عليها بشيء من الإيجاز .

مراعاة المقاصد

المقاصد جمع مقصد، وهو مصدر ميمي مشتق من الفعل (قصد)..

وهو الشيء الذي (تقصده) أو (تقصد له) أو (تقصد إليه) أي تطلبه بعينه، وتعمد أو تتوجه لجهته لتصل إليه.

أما الأمر الذي (تقصد فيه) فمعناه: أن تستقيم فيه وتعتدل وتتوسط ما بين الإسراف والتقتير.

والقصد له معانٍ في اللغة:

منها: استقامة الطريق، كقوله تعالى ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [1]، أي على الله تبين الطريق المستقيم والدعاء إليه بالحجج والبراهين الوضحة.

ومنها : التوجه إلى الشيء وإتيانه. تقول قصدت البيت الحرام، أي: توجهت إليه .

ومنها: التوسط وعدم مجاوزة الحد كقوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [2]

وقد أرجع "ابن جني" المعاني جميعها إلى معنى التوجه نحو الشيء فقال: أصل (ق ص د) ومواقعها في كلام العرب الاعتزام والتوجُّه والنهود والنهوض نحو الشيء.[3]

أما تعريف المقاصد من الناحية الشرعية عند علماء الأصول:

---

1 – سورة النحل، الآية: 9.

2 – سورة فاطر، الآية : 32.

3 – تاج العروس (ص: 2201).

تحدث الفقهاء قديما عن المقاصد تحت عناوين ومسميات كالمصلحة والاستحسان، والمصالح المرسلة. قال الإمام الغزالي -رحمه الله-: "أما المصلحة فهي عبارة في الأصل عن جلب منفعة أو دفع مضرة ، ولسنا نعني بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع، ومقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم وماهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة ".[1]

إلا أن المتأخرين حاولوا صياغة تعريفات أكثر تحديدا:

1- فعرفها الطاهر ابن عاشور بقوله: "مقاصد التشريع العامة هي: المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها؛ بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة.

ثم قال: فيدخل في هذا أوصاف الشريعة، وغايتها العامة، والمعاني التي لا يخلو التشريع من ملاحظتها، ويدخل في هذا أيضا معان من الحكم ليست ملحوظة في سائر أنواع الأحكام، ولكنها ملحوظة في أنواع كثيرة منها.[2]

2- وعرفها علال الفاسي بقوله:" المراد بمقاصد الشريعة: الغاية منها والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها.[3]

---

1 - المستصفى، ص 174.

2 - مقاصد الشريعة الإسلامية، لابن عاشور 165/3.

3 - مقاصد الشريعة ومكارمها لمحمد علال بن عبد الواحد الفاسي، ص: 3.

ويلاحظ أن التعريفات السابقة تدور حول المعنى الكلي للمقاصد وتميزها بصورة مجملة أما تمييز كل مقصد بصورة تفصيلية فهذا يجعلنا نطرح السؤال التالي:

كيف يتمكن العالم من إدراك مقاصد الشريعة؟

والجواب: أن العالم يتمكن من إدراك المقاصد بطول ممارسته للعلم، والتدقيق في الأحكام، فتتكون لديه ملكة وخبرة تجعله يحكم بأن هذا المعنى من مقاصد الشارع، أو أن ذلك المعنى ليس مقصدا من مقاصده.

وقد عبر الإمام العز بن عبد السلام عن ذلك فقال: "ومن تتبع مقاصد الشرع في جلب المصالح ودرء المفاسد، حصل له من مجموع ذلك اعتقاد، أو عرفان بأن هذه المصلحة لا يجوز إهمالها، وأن هذه المفسدة لا يجوز قربانها، وإن لم يكن فيها إجماع ولا نص ولا قياس خاص، فإن فهم نفس الشرع يوجب ذلك.

ومثل ذلك: أن من عاشر إنسانا من الفضلاء الحكماء العقلاء، وفهم ما يؤثره ويكرهه في كل ورد وصدر ، ثم سنحت له مصلحة أو مفسدة لم يعرف قوله، فإنه يعرف بمجموع ما عهده من طريقته وألفه من عادته أنه يؤثر تلك المصلحة ويكره تلك المفسدة.

ولو تتبعنا مقاصد ما في الكتاب والسنة، لعلمنا أن الله أمر بكل خير دقه وجله، وزجر عن كل شر دقه وجله، فإن الخير يعبر به عن جلب المصالح ودرء المفاسد، والشر يعبر به عن جلب المفاسد ودرء المصالح. [1]

فما هي هذه المقاصد:

---

1 - قواعد الأحكام في مصالح الأنام (2/ 160).

جاءت نصوص الشرع الشريف بأن الله عز وجل لم يخلق الإنسان عبثًا، بل جعل له مقاصد عليا أوجب عليه أن يتحراها ويسعى إليها حتى يتحقق بمراد الله منه

وتنقسم هذه المقاصد إلى عدة أقسام؛ إلا أنها جميعها تتفرع وتنبثق من مقصدين أساسيين وهما:

1- عبودية الله تعالى.

2- مصلحة الإنسان في الدارين والتي تتحقق بعمارة الأرض وإصلاحها.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(1)، وقال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(2).

وجعل الله لنا تشريعًا تسري به روح هذين المقصدين مما يضمن تحققهما على أتم وأكمل وجه، فتتبع الفقهاء نصوص هذا التشريع واستخرجوا منها مقاصد كلية واضحة جلية تعد أصلا يعودون إليه إذا خفى شيء من الفروع أو استجد أمرٌ لم يكن منصوصًا عليه في الكتاب والسنة، فبقدر تحقق هذه المقاصد من عدمها يكون الحكم الشرعي فيه.

وبالاستقراء وجدوا أن هذه المقاصد تنحصر في خمسة مقاصد وهي:

حفظ النفس والدين والعقل والنسل والمال.

وكل من هذه الخمسة لها مراتب ثلاث وهم:

الضروريات، والحاجيات، والتحسينيات.

---

(1) سورة الذاريات، الآية:56.

(2) سورة هود ، الآية:61.

وتلك الأقسام الثلاثة اتفق الناس على ترتيبها على النحو السابق، إذ هذا الترتيب يخضع لقوة الاحتياج إلى كل قسم منها، وهو ما عبر عنه الغزالي بالقوة في ذات المصلحة، فقال: "أن المصلحة باعتبار قوتها في ذاتها تنقسم إلى ما هي في رتبة الضرورات، وإلى ما هي في رتبة الحاجات، وإلى ما يتعلق بالتحسينات والتزيينات وتتقاعد أيضا عن رتبة الحاجات. ويتعلق بأذيال كل قسم من الأقسام ما يجري منها مجرى التكملة والتتمة لها".[1]

وسنتعرض لكل قسم منهم بشيء من التفصيل.

أولا: الضروريات.

عرفها الإمام الرازي بأنها" المصالح التي تتضمن حفظ مقصود من المقاصد الخمسة؛ وهي حفظ الدين، والنفس، والعقل، والمال والنسب" [2]

وعرفها الشاطبي بقوله: "فأما الضرورة، فمعناها: أنها لابد منها في قيام مصالح الدين والدنيا؛ بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة؛ بل فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين"[3]

وهذه الكليات الخمسة ضرورة لبقاء نظام العالم وحفظه؛ ولذا ذكر الزركشي والشاطبي أن الشرائع المختلفة لم تختلف على هذه الكليات.

فقال الزركشي: "الأول: الضروري: وهو المتضمن حفظ مقصود من المقاصد الخمسة

---

1 – المستصفى (ص: 174).

2 – انظر: المحصول 5/220، الإحكام للآمدي 3/300.

3 – الموافقات 2/18.

التي لم تختلف فيها الشرائع بل هي مطبقة على حفظها"[1]

ويقول الشاطبي: " فقد اتفقت الأمة بل سائر الملل على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الضروريات الخمس وهي الدين والنفس والنسل والمال والعقل، وعلمها عند الأمة كالضروري، ولم يثبت لنا بدليل معين، ولا شهد لنا أصل معين يمتاز بالرجوع إليه، بل علمت ملاءمتها للشريعة بمجموع أدلة لا تنحصر في باب واحد"[2].

وقد توصل علماء الأصول لتلك الكليات الخمس عن طريق الاستقراء، يقول ابن أمير الحاج: " وحصر المقاصد في هذه ثابت بالنظر إلى الواقع وعادات الملل والشرائع بالاستقراء.[3]

والمحافظة على هذه المقاصد يدور بين جانبي الوجود والعدم، ففي جانب الوجود يُعَدّ تناول الطعام عند حد سد الرمق من قبيل الضروريات في حفظ النفس؛ وذلك لأن الإنسان إذا لم يأكل هذا القدر مات (أضاع نفْسه)؛ وبالتالي لو لم يجد هذا القدر من الطعام حلالًا حُلَّ له من الحرام ما يسد به الرمق؛ أي أقل عدد من السعرات الحرارية يحفظ وجود الإنسان.

أما بالنسبة لجانب العدم، فإن الحفاظ على النفس يستوجب "عدم" قتلها؛ كضرورة من ضرورات المحافظة عليها.

وبالتالي يتحقق حفظ النفس في حد الضروريات، من جانبيه: جانب الوجود في سد

---

1 - البحر المحيط 188/4.

2 -الموافقات 31/1.

3 - التقرير والتحبير 191/3.

الحاجة الأساسية لبقاء النفس كالطعام، وجانب العدم في تحريم التعرض لها بالقتل.

ثانيًا: الحاجيات:

عرفها الشاطبي بأنها: "ما يفتقر إليها من حيث التوسعة ورفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة اللاحقة بفوت المطلوب، فإذا لم تراع دخل على المكلفين على الجملة الحرج والمشقة، ولكنه لا يبلغ مبلغ الفساد العادي المتوقع في المصالح العامة "[1]

فالحاجيات في مرتبة أقل من مرتبة الضروريات؛ لأنه لا يترتب على فقدها اختلال الحياة أو انعدام الكليات الخمس أو العودة عليها بالنقصان أو أحدها، بل ما يترتب على فقدها هو لحوق المشقة أو الحرج بالناس في عباداتهم ومعاملاتهم ، وربما بعض الاختلال في ضرورياتهم بوجه ما .

وقد راعت الشريعة الإسلامية تحقيق المقاصد الحاجية ورفع الحرج عن المكلفين، فقال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [2]، ولأجل ذلك شرعت الرخص والكفارت والفدية وغير ذلك.

ثالثا: التحسينيات

عرفها الشاطبي بأن معناها: " الأخذ بما يليق من محاسن العادات، وتجنب المدنسات التي

1 - الموافقات 2/21/بتصرف.

2 -سورة الحج، الآية : 78.

تأنفها العقول الراجحات، ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق.[1]

وعرفها إمام الحرمين الجويني بأنها: "ما لا يتعلق بضرورة خاصة ولا حاجة عامة، ولكنه يلوح فيه غرض في جلب مكرمة أو في نفي نقيض لها".[2]

ويذكر الشاطبي أمثلة لقصد الشريعة إلى رعاية التحسينيات فيقول: " كالطهارات بالنسبة إلى الصلوات، على رأي من رأى أنها من هذا القسم، وأخذ الزينة من اللباس ومحاسن الهيئات والطيب وما أشبه ذلك، وانتخاب الأطيب والأعلى في الزكوات والإنفاقات، وآداب الرفق في الصيام، وبالنسبة إلى النفوس كالرفق والإحسان، وآداب الأكل والشرب، ونحو ذلك، وبالنسبة إلى النسل؛ كالإمساك بالمعروف أو التسريح بالإحسان، من عدم التضييق على الزوجة، وبسط الرفق في المعاشرة، وما أشبه ذلك.

فجميع هذا له أصل في القرآن بينه الكتاب على إجمال أو تفصيل أو على الوجهين معا، وجاءت السنة قاضية على ذلك كله بما هو أوضح في الفهم وأشفى في الشرح".[3]

فالتحسينات من قبيل حاجة النفس الإنسانية إلى ترويحٍ وراحةٍ، ليست ضرورية إلى درجة أنَّ عدم حفظها قد يهدد بقاء النفس، وليس حاجة ماسة لرفع الحرج والمشاق، ولكن توافرها ونفي مضاداتها يجعل النفس أكثر أمانًا ورغدًا، كتوافر السيارة الخاصة التي تريح النفس من عناء التنقل في وسائل المواصلات المزدحمة.

1- الموافقات (2/ 22)

2 - البرهان في أصول الفقه (2/ 79)

3 - الموافقات (4/ 352)

ومن العلماء من جعل هذه الأقسام خمسة، وذلك بتقسيم القسم الثالث إلى ثلاثة أقسام، ومن هؤلاء بدر الدين الزركشي؛ حيث يقول في قواعده: فائدة: جعل بعضهم المراتب خمسة : ضرورة وحاجة ومنفعة وزينة وفضول ".[1]

وبعد استقرار هذه المقاصد المنشود حفظها ومعرفة مراتبها قد يجد الأصولي نفسه واقعًا أمام تعارضات، وحاجة إلى الترجيح، فقد تتعارض مصلحة حفظ النفس مع مصلحة حفظ العقل، والترتيب بين هذه المقاصد يفيد في ذلك، فيرجح النفس للترتيب وتقدم، وقد يجد تعارضًا بين حفظ العقل وحفظ الدين فيقدم مصلحة حفظ الدين... وهكذا.

ومن قدم الدِّين في الترتيب قدمه بمعنى الإسلام، ولكن تقديم النفس على الدين باعتباره الشعائر والعبادات، وإلا فالإسلام هو كل شيء.

ومن هنا ولأننا نرتب بتقديم النفس، فإننا ندعو كل الناس على وجه الأرض أن يكونوا مسلمين؛ لأن الإسلام يحافظ على النفس وعلى العقل وعلى الدين وليس الإسلام فقط، ويحافظ على النسل وعلى المال.

لكنَّا نقول بأن حفظ النفس مقدما؛ لأنه لو هلكت النفس كيف يتوجه إليها الخطاب بالعبادة، وبالعمارة، وبالتزكية إذا كانت قد هلكت، ودُمرت، وذهبت، ولذا فحفظ النفس مقصد أول من مقاصد الشريعة حتى يمكن لنا أن ندعوه بعد ذلك فيؤمن أو يكفر.

ثم حفظ العقل هو المقصد الثاني؛ لأنه مناط التكليف، فليس هناك خطاب إلا إذا كان العقل واعيًا، ولذا فقد حرم الله علينا الخمر؛لإذهابه العقل، وقد أوجب الشرع علينا أن نُعلِّم

---

1 - المنثور للزركشي 2/219.

هذا العقل، ونُعرِّفه كيف يفهم، وكيف يدرك الشريعة، ويدرك الواقع، ويُعمِّر الأرض، ويزكي النفس، وكيف يستعمل هذا العقل قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (1) ولذا فالحفاظ على العقل في غاية الأهمية حتى يأتيه التكليف، لأن العقل مناط التكليف.

ثم مقصد حفظ الدين؛ فلا بد علينا أن نحترم الدين، الذي جعله الله لنا منهاجا وشريعة، والمقصود بحفظ الدين هنا هو حفظ الدين على الإنسانية، وهذا هو المعنى الحضاري، أما بالنسبة للمسلمين فحفظ دينهم معناه حفظ الإسلام الذي يرونه أنه هو دين الحق، وهو سبب خلاصهم أمام الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ (2)، صحيح أن أتباع الأديان يعتقدون أن دينهم هو الذي سيُخلِّصهم أمام الله لكن هذا لا يعنينا قال تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ (3) الذي يعنينا هو ما ينبغي أن يجتمع عليه البشر وهو احترام النظام العام وحرية الاعتقاد الذي نُعبِّر عنها بحفظ الدين.

ثم بعد ذلك يأتى مقصد احترام كرامة الإنسان في عرضه وملكه، فما يملكه الإنسان محترم، ومعتبر، وينبغي احترامه، وألا يغتصب، وهذا جزءٌ لا يتجزأ من كل الرسالات التي أرسلها الله تعالى للبشرية.

وهذا مما يتفق عليه العقلاء أيضًا عبر التاريخ، وأي نظم شمولية رفضت هذا المعنى فإنها

---

(1) سورة النحل، الآية: 12.

(2) سورة آل عمران، الآية: 19.

(3) سورة الكافرون، الآية:6.

لم تستمر، وانهارت، ولم تُصلح في الأرض، ولم يكن لها أي مقام محمود عند الله سبحانه وتعالى، ولا عند الناس.

إذن مراعاة المقاصد الشرعية مُكوِّن أساسي من مكونات العقل المسلم، وهذه المقاصد الخمسة هي أسس أي حضارة قامت على الأرض، فبتلك المقاصد يعيش الإنسان حياة كريمة، لأن الإسلام دين الحضارة المتكاملة التي تدعوا للحفاظ على الإنسان نفسه ودينه وعقله ونسله وماله، والمقصود بهذا كل إنسان ليس فقط الإنسان المسلم؛ ولذا فالمقاصد مدخل دعوة كبير، تُواجه به كافة الخرافات التي يتم ترويجها عن حقوق الأقليات في المجتمع المسلم .

ونعود إلى ما بدأناه من الحديث عن أهمية المقاصد ومراعاة المسلم واهتمامه بالنظر فيها فنقول: إن المقاصد باب للوصول للحكم الشرعي، فعندما ينظر المجتهد في الأدلة الشرعية للوصول إلى حكم شرعي لواقعة ما، فإنه يجب عليه أن يعرض ما توصل إليه من حُكم على تلك المقاصد، فإن وجد أن حُكمه سيؤدي إلى إهدار أي من هذه المقاصد لا إلى حفظها، فيجب أن يراجع نفسه ويعيد تدبُّر الأمر؛ ليصل إلى حكم يحافظ على تلك المقاصد ويسير في ظلها.

فمثلًا إذا تأمل فقيه شافعي أصوله فوجد أن الزكاة – في أصوله هذه- لا تخرج إلا على الذهب والفضَّة، ثم نظرَ إلى الواقع فوجد التعامل اليوم يتم بأوراق، وأن الذهب والفضة قد انتهيا، فهل -وفقًا لقواعده الأصولية- تذهب الزكاة ولا تقوم على الورق؟

إنه بذلك يكرُّ على ركن من أركان الدين وعلى مقصد من مقاصد الشرع المتمثل في حفظ المال للناس بالإبطال، الأمر الذي يتطلب منه أن يراجع حُكمه وألا يفتي به، وينظر إلى الخلل الذي وقع فيه.

ولا بد أنه وقع في خلل؛ لأنه لا يمكن أن نستنبط من الشرع ما يَكرُّ على الشرع ذاته بالبطلان؛ حيث يرجع إلى نفسه ويقول: إن الله عزوجل عندما أوجب الزكاة لم يعلقها بالذهبية أو بالفضية، إنما علقها بالمالية فقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [1] ؛ لأن المقصود منها هو إغناء الفقير وحفظ التكافل الاجتماعي، وهذه صفات لا يقتصر عليها الذهب والفضة، ولكنها من خصائص المال، وذلك الذي بين أيدينا أي الورق له من هذه الخصائص وإن لم يكن ذهبًا ولا فضة.

ومن ثم يمكن تقويم الزكاة بالذهب والفضة كمعيار؛ بل إن الشافعي عندما ذكر الذهب والفضة في الأم كمعيار للزكاة لم يذكرها كأداة للتقويم، وبالتالي يمكن تقويم ما لدى الإنسان من أوراق مالية (نقود ورقية وغيرها) بالذهب والفضة، فإذا وصلت إلى ما يكافئ قيمة (85) جرامًا من الذهب، وهو الحد (أو النصاب) الذي يجب أن تُخرج عليه الزكاة، وفقًا لسعر اليوم، وجبت الزكاة.

وهكذا يكون الأصولي قد حافظ على اعتماد الذهب والفضة كمقياس للزكاة، وفي نفس الوقت لم يربط الزكاة بهما بحيث إذا انتفى وجودهما تنتفي الزكاة.

والذي يجب أن نعلمه أن كل ما سبق من المقاصد وما تفرع عنها ما جاء إلا مرعاة لمصلحة الإنسان، سواء كانت بجلبها أو دفع ما يضر بها، ومكون مرعاة المصلحة مكون

(1) سورة التوبة ، الآية 103.

رئيس في تكوين العقل المسلم، لكن يحدث خلط في مفهوم مرعاة المصلحة عند بعض الناس، ولذا رأينا أن نفردها بالمبحث التالي.

مراعاة المصالح

من الأسس التي جاءت بها الشريعة الإسلامية مراعاة مصالح البشر في المعاش والمعاد، وهذا ما دلت عليه كثير من نصوص الكتاب والسنة، قال تعالى حكاية عن سيدنا شعيب عليه السلام ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ (1)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ (2).

والمصلحة ضد المفسدة وقد عرّفها الفيروز أبادي في البحر المحيط بقوله والمَصْلَحَةُ : واحِدَةُ المَصالِحِ، واسْتَصْلَحَ : نَقيضُ اسْتَفْسَدَ(3).

فالمصلحة ما كان فيه خير ونفع، قال الفيومي: وفي الأمر مصلحة أي خير (4). أي: هي جلب المنفعة ودرء للمفسدة.

والمصالح المعتبرة هي ما توافقت مع مقاصد الشريعة، وهي حفظ الضرورات الخمس: الدين والنفس والعقل والنسل والمال، ثم كل ما يلزم لقيام حياة صالحة مما دون هذه الضرورات في المنزلة، فكل ما يحقق هذه المقاصد الخمس فهو مصلحة، وكل ما يحول بينها فهو مفسدة.

وتتفاوت المصالح في منزلتها وأهميتها وفقًا لاتصالها بالمقاصد الشرعية الخمس وتعلقها

---

(1) سورة هود، الآية 88.

(2) سورة الأعراف، الآية: 56.

3 - القاموس المحيط ص293.

4 - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير 1/345.

بالأشخاص والأحوال، وهذا الذي على أساسه تتغير الفتوى، وكذلك تختلف من حيث كونها معتبرة شرعًا أم ملغاة وفقًا لاعتبار الشارع لها.

فأما تفاوتها من حيث تعلقها بالمقاصد الشرعية الخمس: فنجد أن الأصوليين قد قسموا المصالح إلى:

مصالح ضرورية: وهي كل ما تستقيم الحياة باستقراره وتفسد بفساده، وهو ما يعد أصولًا للشريعة وأهدافًا عامة لها من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال والعرض.

مصالح حاجية وهي: وهي التي لا بد منها لقضاء الحاجات التي لا غناء لاستقامة الحياة عنها، كتشريع أحكام البيع والنكاح والصيد وسائر ضروب المعاملات، وكالرخص التي ترفع الحرج عن المكلفين عند المشقة.

المصالح التحسينية وهي : كل ما يعود إلى العادات الحسنة والأخلاق الفاضلة والمظهر الكريم والذوق السليم فيزيدهم حسنًا وتمامًا مما يجعل المسلم يحيا حياة كريمة سعيدة.

ولتفاوت رغبات الناس في حاجاتهم ونظرتهم للمصالح، نجد أن هناك مصالح معتبرة شرعًا، ومصالح ملغاة شرعًا، كما أن هناك مصالح مرسلة لم يتعرض لها الشرع بالاعتبار أو بالإلغاء.

فالمصالح المعتبرة شرعًا هي: التي شهد الشرع باعتبارها بنص أو إجماع.

والمصالح الملغاة شرعًا هي: التي نص الشرع على حرمتها وعدم اعتبارها.

والمصالح المرسلة هي: التي سكت الشرع عنها فإذا ما وافقت مقاصد الشريعة كانت معتبرة، وإذا ما آلت لمفسدة أو تعارضت مع مقاصد الشريعة ألغيت وحرمت.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله:" المصلحة بالإضافة إلى شهادة الشرع ثلاثة أقسام:

1- قسم شهد الشرع لاعتبارها.

2- وقسم شهد لبطلانها.

3- وقسم لم يشهد الشرع لا لبطلانها ولا لاعتبارها.

أمَّا ما شهد الشرع لاعتبارها فهي حجة، ويرجع حاصلها إلى القياس، وهو اقتباس الحكم من معقول النص والإجماع.

ومثاله: حكمنا أنَّ كل ما أسكر من مشروب، أو مأكول، فيحرم قياسا على الخمر؛ لأنها حرمت لحفظ العقل الذي هو مناط التكليف، فتحريم الشرع الخمر دليل على ملاحظة هذه المصلحة.

القسم الثاني: ما شهد الشرع لبطلانها.

مثاله: قول بعض العلماء لبعض الملوك لما جامع في نهار رمضان: إن عليك صوم شهرين متتابعين، فلما أنكر عليه حيث لم يأمر بإعتاق رقبة مع اتساع ماله قال: لو أمرته بذلك لسهل عليه، واستحقر إعتاق رقبة في جنب قضاء شهوته، فكانت المصلحة في إيجاب الصوم؛ لينزجر به، فهذا قول باطل ومخالف لنص الكتاب بالمصلحة وفتح هذا الباب يؤدي إلى تغيير جميع حدود الشرائع ونصوصها بسبب تغير الأحوال.

ثم إذا عرف ذلك من صنيع العلماء لم تحصل الثقة للملوك بفتواهم، وظنوا أن كل ما يفتون به فهو تحريف من جهتهم بالرأي.

القسم الثالث: ما لم يشهد له من الشرع بالبطلان ولا بالاعتبار نص معين .. ويتعلق بأذيال كل قسم من الأقسام ما يجري منها مجرى التكملة والتتمة[1].

1 - المستصفى (ص: 173).

فالله عز وجل لم يترك النظر في المصالح والمفاسد مطلقًا لتحديد الناس لها، بل نص على كثير منها فأقره، ونص على كثير منها فحرمه ونهى عنه، وسكت عما يمكن أن يتفاوت النظر فيه بين المصلحة والمفسدة؛ لأنه هو الذي خلق الخلق فيعلم ما به صلاحهم معاشًا ومعادًا قال تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾(1) ؛ ولأن الأمر ليس فقط هو الحياة الدنيا، بل إنه متصلٌ بيومٍ آخر، هو يوم القيامة الذي رأيناه أيضًا مُكوِّنًا من مكونات العقل المسلم؛ ولذلك فما نفعله هنا في حياتنا الدنيا قد يكون مرتبطًا ارتباطًا سلبيًا بما سيكون يوم القيامة، ولذلك ينهانا الله عن أمور قد نرى فيها منفعة أو لذة، لما تؤول إليه من مفسدة في الدنيا والآخرة، وذلك مثل الزنا. قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا﴾(2) .

ورتَّب عليه العقاب في الدنيا، ويوم القيامة؛ وإن كان في ظاهره يحقق الشهوات، ويقضي الحاجات إلا أنه في حقيقته ليس كذلك، بل هو متناف مع مراد الله سبحانه وتعالى في عمارة الكون، واستقرار الاجتماع البشري.

وقد اتفق جميع المسلمين أن الحاكم هو الله سبحانه وتعالى، ولم يقل مسلم: إن الحاكم هو العقل. لا المعتزلة، ولا أهل السنة، ولا الشيعة، ولا غيرهم من فرق المسلمين، كل أهل القبلة الذين توجَّهوا بصلاتهم إلى الكعبة المشرفة، وصاموا شهر رمضان، واتحدت كلمتهم على وجوب الزكاة، ووجوب الحج إلى بيت الله الحرام، وشهدوا الشهادتين قبل ذلك كلهم

(1) سورة الملك، الآية:14.

(2) سورة الإسراء، الآية: 32 .

يوقنون بأن الحكم لله قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[1] ؛ فالحاكم هو الله سبحانه وتعالى هو وحده الذي يُحسِّن ويُقبِّح الأفعال، فيرتب على الحسن منها ثوابًا وعلى القبيح منها عقابًا، وليس للعقل في ذلك دور إلا أنه يحسن الأفعال من حيث الطبع فيقول على الشيء المستحسن طبعًا: هو حسن، ويقول على الشيء المستقذر طبعًا: هو قبيح. كالتحسين العقلي للصفات الحميدة من صدق ووفاء، وكتقبيحه للصفات الرديئة من كذب وخيانة وشهادة زور.

فما يترتب عليه الثواب والعقاب وما يترتب عليه صلاح المعاش والمعاد الحكم فيه لله وحده، وهذا هو الذي نقول فيه: إنَّ الحاكم فيه هو الله سبحانه وتعالى، وليس هناك حاكم سواه، وهذا المفهوم جزءٌ من هوية الإسلام؛ لأنه من المجمع عليه، ولا يستطيع المسلمون أن يخالفوه، فلا يقبل المسلمون أن يبيح أحد في دينهم الزنا، أو الخمرَ.

(1) سورة يوسف، الآية:40.

اعتبار المآلات

اعتبار المآل هو النظر إلى حال الشيء في مستقبله؛ حيث إن المآل في اللغة هو العاقبة والنتيجة.

والنظر في مآلات الأفعال مقصود شرعي، لما له من أثر في كيفية إنزال الأحكام الشرعية على المكلفين، ولدوره في حصول التلازم بين النص الشرعي وأحكامه وبين تحقق المقاصد والمصالح للعباد؛ لأن مقاصد الشريعة تقتضي أن يفضي الحكم في الواقع إلى مقصود الشرع.

فاعتبار المآلات هو الأساس الذي يبني عليه فقه الموازنات، وهو فقه الموازنة بين المصالح والمفاسد، وبين المصالح والمصالح، وبين المفاسد والمفاسد، حتى يصل الفقيه إلى أقصي درجة ممكنة من تحقق المصلحة، وأقل درجة ممكنة من المفاسد.

وقد راع الشرع الشريف اعتبار المآلات في نصوصه ، فجاءت نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية توضح أهمية مراعاة مآلات الأفعال، و كيفية تطبيقها.

ومن ذلك أنه عز وجل نهى المسلمين أن يسبوا أوثان الكفار، لما يؤول إليه من مفسدة وهي أنهم سيردون على ذلك بسبهم للذات الإلهية.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ (1).

قال قتادة: "كان المسلمون يسبون أوثان الكفار، فيردّون ذلك عليهم، فنهاهم الله أن يستسِبُّوا لربهم، فإنهم قومٌ جهلة لا علم لهم بالله" (2).

(1) سورة الأنعام، الآية : 108.

2 - تفسير القرطبي (34/12).

ويقول الإمام فخر الدين الرازي في "تفسيره" : هذا الشتم، وإن كان طاعة، إلا أنه إذا وقع على وجه يستلزم وجود منكر عظيم، وجب الاحتراز منه، والأمر ها هنا كذلك؛ لأن هذا الشتم كان يستلزم إقدامهم على شتم الله وشتم رسوله، وعلى فتح باب السفاهة، وعلى تنفيرهم عن قبول الدين، وإدخال الغيظ والغضب في قلوبهم، فلكونه مستلزمًا لهذه المنكرات، وقع النهي عنه[1].

وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها "أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ قَوْمَكِ لَمَّا بَنَوْا الْكَعْبَةَ اقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَرُدُّهَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: "لَوْلَا حِدْثَانُ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ لَفَعَلْتُ"[2]

قال الحافظ ابن حجر: ويُسْتَفَادُ مِنْهُ تَرْكُ الْمَصْلَحَةِ لِأَمْنِ الْوُقُوعِ فِي الْمَفْسَدَةِ وَمِنْهُ تَرْكُ إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ خَشْيَةَ الْوُقُوعِ فِي أَنْكَرَ مِنْهُ وَأَنَّ الْإِمَامَ يَسُوسُ رَعِيَّتَهُ بِمَا فِيهِ إِصْلَاحُهُمْ وَلَوْ كَانَ مَفْضُولًا مَا لَمْ يكن محرما"[3]

فعلمنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث أن ننظر إلى مآل هذا الفعل وأن ترك المصلحة احتياطًا أفضل من العمل بها إذا أدى إلى مفسدة أكبر منها.

وبقدرة المجتهد في النظر في مآلات الأحكام يكون التمايز بين المجتهدين، فكلما كان المجتهد أقدر على تصور المسائل ومآلاتها، كان ذلك من سعة اجتهاده وشمول فقهه، وقد

1 - مفاتيح الغيب (110/13).

2 - أخرجه البخاري في صحيحه 2/146/ح1583، ومسلم في صحيحه 2/968/ح1333.

3 - انظر: فتح الباري 1/225.

تكلم عن هذا الإمام الغزالي في كتابه "حقيقة القولين"؛ حيث بيَّن أنَّ قدرة المجتهد على تصور ما سوف يحدث من اجتهاده وفتواه تختلف من مجتهد لآخر، فكلما كان المجتهد قادرًا على أن يتصور مآلات الأفعال، وكلما اختبر كل صورة من الصور المحتملة حتى يصل إلى ما يتحقق منه المصلحة، وكلما تنبه إلى ما كان خفيًا ولم يخطر على بال غيره من المجتهدين، كلما كان أعلى في رتبة الاجتهاد.

وهذا هو الذي تحدث عنه علماء الإدارة تحت عنوان creative imagination أي "التصور الخلاق" أو "التصور المبدع"، بمعنى أن يكون لديه قدرة على ربط المعلومات بعضها ببعض، وقوة لتصورها، لمعرفة المآلات التي تلزم عنها.

كما تحدث عن هذا أيضًا الإمام ابن عاشور في كتابه مقاصد الشريعة، حيث حث المجتهد أو المفتي على اختبار فتواه قبل إنزالها على الواقعة، وقبل أن يخرج بها على الجمهور.

فإذا ما كان مآلها إلى المصلحة اعتبرها، وإذا ما كان مآلها إلى مفسدة رجع عنها؛ حيث إن المقصد الشرعي هو تحقق المصلحة وتجنب المفسدة.

ولنا نماذج عديدة في أمور استجدت كان الحكم والفتوى فيها مستندًا إلى مآلتها ومن ذلك:

1- مشروب القهوة:

مشروب القهوة من المشروبات الحديثة، اكتشفه رجل يمني يدعى أبو الحسن الشاذلي عن طريق الصدفة، فذات يوم سقط نبات القهوة في الماء المغلي، فاستساغه وشربه، فوجد أن من آثاره قوة الانتباه وزيادة التركيز، فأطلق عليه قهوة الصالحين لمساعدته على العبادة والذكر ليلا.

فالقهوة تعني في المعاجم العربية (الخمر) لذلك أضاف لها لفظ الصالحين تميزًا لها عن

الخمر المحرم، وعندما وصل نبات القهوة إلى مصر والحجاز صار اسمها قهوة فقط، فذهب الناس إلى أحد المشايخ ليسألوا عن حكم شرب القهوة، فنظر لها من منظور لفظي فقط لا علاقة له بإدراك الواقع، وقال بأن القهوة "خمر"، وصدرت الفتوى أن القهوة حرام.

فكثرت الأقوال بأنها تشرب في الحجاز، وبأنَّ لها تأثيرا مغايرًا لتأثير الخمر الذي يذهب العقل، حتى تنبه لذلك الفقهاء، وحسم هذا الخلاف أحد فقهاء الأزهر الشريف أراد أن يدرك حقيقة القهوة، فالحكم على الشيء فرع عن تصوره، فجمع عشرة من طلابة في بيته بعد صلاة الفجر، وأعد لهم هذه القهوة وجلس يتدارس معهم العلوم، فوجد أنها تعمل على زيادة النشاط والتركيز والانتباه، ولا علاقة بينها وبين الخمر المحرمة إلا في الاسم فقط فأصدر الفتوى بعدم حرمتها.

وقد تحدث عن هذا الخلاف المؤرخ "النجم الغزي" في كتابه "الكواكب السائرة" في حديثه عن الشيخ الشاذلي فقال هو: (أبو بكر بن عبد الله الشيخ الصالح العارف بالله تعالى الشاذلي، المعروف بالعيدروس، وهو مبتكر القهوة المتخذة من البن من اليمن، وكان أصل اتخاذه لها أنه مر في سياحته بشجر البن على عادة الصالدين، فاقتات من ثمره حين رآه متروكًا مع كثرته، فوجد فيه تجفيفًا للدماغ، واجتلابًا للسهر، وتنشيطًا للعبادة، فاتخذه قوتًا وطعامًا وشراباً، وأرشد أتباعه إلى ذلك، ثم انتشرت في اليمن، ثم إلى بلاد الحجاز، ثم إلى الشام ومصر، ثم سائر البلاد، واختلف العلماء في أوائل القرن العاشر في القهوة وفي أمرها حتى ذهب إلى تحريمها جماعة ترجح عندهم أنها مضرة، وآخر من ذهب إليه بالشام والد شيخنا

الشيخ شهاب الدين العيثاوي، ومن الحنفية بها القطب بن سلطان، وبمصر الشيخ أحمد بن أحمد بن عبد الحق السنباطي تبعًا لأبيه، والأكثرون ذهبوا إلى أنها مباحة)[1]اهـ.

2- التصوير الفوتوجرافي:

ومن نماذج عدم إدراك الواقع في إصدار الأحكام القول بحرمة "التصوير الفوتوجرافي"؛ والذي كان محل جدل كبير بين الفقهاء؛ حيث قال بحرمته البعض استنادًا إلى فهم خاطئ لما رواه الإمام البخاري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ".[2]

حتى جاء سيدنا الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار وحامي الذمار رضي الله عنه[3]، فألف كتاب "الجواب الشافي في إباحة التصوير الفوتوغرافي"، وبين أن التصوير الفوتوجرافي عبارة عن احتباس الظل، كالمرآة إذا وقفت أمامها ورأيت صورتك، وبين أنه لا حرمة في ذلك.

وانظر إلى دقة الشيخ في اختيار اسم الكتاب وتميزه بـ "إباحة التصوير الفوتوغرافي" وليس التصوير الموجود في اللغة والمحرم لِعِلَّة واضحة جلية معقولة مطلوبة أن نخرج من ضيق الدنيا ووثنية الخلق إلى توحيد الباري سبحانه وتعالى.

---

1 - الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة 115/1.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه 167/7/ح5950.

(3) الذِّمارُ (ذ م ر): يَذُودُ عَنْ ذِمَارِهِ - مَا يَلْزَمُكَ حِيَاطَتُهُ وَالدِّفَاعُ عَنْهُ، وَالذَّوْدُ عَنْهُ كَالأَهْلِ وَالعِرْضِ وَالشَّرَفِ وَالمُلْكِ. ويقال هُوَ حَامِي الذِّمَارِ.

فاعتبار المآل أصل متين وثابت في النموذج المعرفي الإسلامي؛ حيث يعد قاعدة منهجية وأصل اجتهادي يستصحبه الفقيه في منهجية الاستنباط عند الوصول إلى الأحكام، وفي منهجية التقنين عند اختيار أو تخير الأحكام، وفي منهجية التنزيل عند تطبيق الأحكام على المكلفين.

بل يتسع لما هو أعم من الأحكام والمكلفين ليشمل النظرة الشاملة للكون كله، فالإسلام يشجع على إنشاء المراكز الفقهية لاستشراف المستقبل، والتخطيط له للإحتياط من عواقبه. ولا يعد ذلك بأي ملمح ضربًا من التنبؤ بالغيب، وإنما هو استقراء للأمور وفق جريانها وما اعتادته.

ومثال ذلك لو قلت لك أرقاما متتالية 2، 4، 6، 8، 10، وأطلب منك أن تكمل فتقول لي رقم 12، بناء على أن الزيادات السابقة في كل الأرقام رقم 2، فقمت بإضافته على آخر رقم وصلنا إليه وهو 10 فصار الجديد هو 12. هل يعد ذلك تنبؤا بالغيب.

وكمثل العلم بوقت نزول المطر عند رؤية السحاب من كثرة اعتياد الناس على ذلك، فالاحتياط للمستقبل بدراسته والعمل له، والنظر في مآلاته، كان من فعل النبي صلى الله عليه وسلم فقد كان فيما يرويه البخاري يدخر لأهله قوت سنة. فعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَبِيعُ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَيَحْبِسُ لِأَهْلِهِ قُوتَ سَنَتِهِمْ". [1] أي أنه صلى الله عليه وسلم كان يضع خطة لسنة مستقبلية حتى لا تحدث فجوات.

---

1 - أخرجه البخاري في صحيحه7/63/ح 5357.

اعتبار الإجماع

الإجماع لغة: يطلق على العزم، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ ﴾ [1]، ويطلق على الاتفاق، ومنه قولهم: أجمع القوم على كذا؛ أي: اتفقوا عليه.

وتعددت تعريفات الإجماع في الاصطلاح لدى علماء الأصول.

ونختار منها تعريف الإمام البيضاوي له إذ عرفه بأنه: "اتفاق أهل الحل والعقد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم على أمر من الأمور" [2]

والإجماع هو المصدر الثالث من مصادر التشريع، بعد الكتاب والسنة اللذان استقرت حجيتهما لدى المسلمين ، فإن كثيرا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تحتمل دلالتها تأويلات مختلفة، فكان لا بد من أداة تضبط هذه التأويلات بحيث، لا يحمل النص على غير المراد منه حقيقة، فكان الإجماع، وبه يتحول الظني إلى قطعي، فأغلق الباب والمجال أمام زيغ المحرفين وبدع المشككين الذين يحيدون بالنصوص عن الوجه المراد منها.

الإجماع ينقل مدلول النص إلى القطعية، والإجماع ليس منشئًا للحكم الذي ينشئه الكتاب والسُّنة، إلا أنه كاشف عنه بدليل في الكتاب والسُّنة، يلزم منه ثبوت الحكم أو نفيه حتى لا يكون هناك سبيل لأصحاب الأهواء للعبث بأسس الدين وقواعده.

فالإجماع حصن هذا الدين الحصين، وسوره المنيع، وهو الذي وقف في وجه أصحاب الشهوات والأهواء، وردهم على أدبارهم، فلم يستطيعوا لهذا الدين كيدا، ولم يجدوا لمآربهم

---

1 - سورة يونس ، الآية71.

2 - المنهاج للبيضاوي ص 81.

وشهواتهم سبيلا.

يقول الإمام الغزالي: ودليل تصور الإجماع حصوله، فقد وجدنا الأمة مجمعة على أن الصلوات خمس، وأن صوم رمضان واجب وكيف يمتنع تصوره، والأمة كلهم متعبدون باتباع النصوص والأدلة القاطعة ومعرضون للعقاب بمخالفتها، فكما لا يمتنع اجتماعهم على الأكل والشرب؛ لتوافق الدواعي، فكذلك على اتباع الحق واتقاء النار.

فإن قيل: الأمة مع كثرتها واختلاف دواعيها في الاعتراف بالحق والعناد فيه كيف تتفق آراؤها، فذلك محال منها كاتفاقهم على أكل الزبيب مثلا في يوم واحد.

قلنا: لا صارف لجميعهم إلى تناول الزبيب خاصة، ولجميعهم باعث على الاعتراف بالحق، كيف وقد تصور إطباق اليهود مع كثرتهم على الباطل، فلم لا يتصور إطباق المسلمين على الحق، والكثرة إنما تؤثر عند تعارض الأشباه والدواعي والصوارف، ومستند الإجماع في الأكثر نصوص متواترة وأمور معلومة ضرورة بقرائن الأحوال، والعقلاء كلهم فيه على منهج واحد. [1]

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾[2].

ففي الآية يتواعد الله تعالى على مخالفة سبيل المؤمنين، فدلَّ ذلك على وجوب اتباع سبيلهم، وحرمة مخالفته ، وسبيل المؤمنين هو ما أجمعوا عليه والتزموه.

---

1 - المستصفى (ص: 137).

2 - سورة النساء، الآية: 115.

ومن الأدلة عليه قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[2].ومفهومهما أنه ما اتفقتم عليه فهو حق.

أما الأدلة على حجيته من السنة، ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في لزوم الجماعة والنهي عن الخروج عنها، ومن ذلك ما رواه الإمام الترمذي في سننه عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي أَوْ قَالَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَيَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إِلَى النَّارِ" [3].

وما رواه الإمامان البخاري ومسلم في صحيحهما عن النبي صلى الله عليه وسلم "لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون".[4]

شروط الإجماع وضوابطه:

1 – أن يكون المجمعون من المجتهدين، فلا عبرة بوفاق العوام ولا بخلافهم.

2 – أن يكون المجمعون من المسلمين .

3 – أن يكون الإجماع بعد عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

1 - سورة النساء، الآية: 95.

2 - سورة الشورى، الآية : 10.

3 - أخرجه الترمذي في جامعه4/466/ح2167.

4 - أخرجه البخاري في صحيحه 9/101/ح 7311 ، ومسلم في صحيحه3/1523/ح 1921.

4 – اتفاق جميع المجتهدين.

ولو لم يتفق جميع المجتهدين بأن خالف بعضهم في الحكم الذي يراد الإجماع عليه، لم ينعقد الإجماع على الصحيح عند الجمهور، وسواء في ذلك أندر المخالف كالواحد أو كثر، وسواء في ذلك ما كان في أصول الدين أو فروعه .

فإذا انخرم الإجماع ولم ينعقد للمخالفة المذكورة ، لا يكون حجة ، ولو كان الأكثرون على القول به . يقول الإمام السرخسي: اعلم أن إجماع هذه الامة موجب للعلم، قطعا كرامة لهم على الدين لا لانقطاع توهم اجتماعهم على الضلال بمعنى معقول، فاليهود والنصارى والمجوس أكثر منا عددا وقد وجد منهم الإجماع على الضلالة، ولأن الاتفاق قد يتحقق من الخلف على وجه المتابعة للآباء من غير حجة كما أخبر الله تعالى عن الكفرة.[1]

ضوابط الإجماع

في البداية نعرف ما هو الاجتهاد، فالاجتهاد: من الجهد والمشقه وعرفة الزركشي بأنه "بذل الوسع في نيل حكم شرعي عملي بطريق الاستنباط" [2]

وعليه: فإنه ينبغي على المجتهد أن يكون: ذكيًا، مدركًا للغة العربية على أعمق ما يكون الإدراك؛ لأنها الوسيلة لفهم الكتاب والسنة، كما يجب أن يكون مُطلعًا على الكتاب والسنة توثيقًا وفهمًا حتى يمكنه الاستنباط، وعليه أن يدرك أسس الفهم التي تسمى أصول الفقه،

---

1 - أصول السرخسي (1/ 295).

2 - البحر المحيط في أصول الفقه (4/ 488)، وانظر رسالة الاجتهاد في الفروع للشيخ محمد العتريس المطبوعة ضمن سلسلة البيان.

فتكون حاضرة عنده بتراتيبها، وهي الحجية، والتوثيق، والفهم، والقطعية والظنية، والإلحاق، والتعارض والترجيح.

وهذه هي شروط المجتهد، التي إذا جمع بينها: مصادر ولغة وذكاء ومَلَكة ودُرْبَة يستطيع أن يكون مجتهدا، فإذا كان مسلما يُقبل اجتهاده، وإذا كان غير مسلم فلا يُؤْمَن على الإسلام فلا يُقْبَل اجتهاده، والعلة في عدم قبول اجتهاد غير المسلم أنه غير مُؤتَمَن على الإسلام، إلا إذا نُوقِش اجتهاده من قِبَل علماء المسلمين، فحينئذ يُقبل باعتبار أن المسلمين هم من أقروا هذا الاجتهاد، وأجازوه بعد مناقشته، فيكون من داخل النظام الإسلامي.

أنواع الإجماع:

1- إجماع العامة وهو: ما أطبقت الأمة عليه حتى صار ذلك معلومًا من الدين بالضرورة مثل: إجماعهم على فرضية الصوات الخمس، ووجوب الحج لمن استطاع إليه سبيلا، وحرمة الخمر والزنا، وهو محل اتفاق بين الأمة، لم ينكره أحد ، وفيه يتفق المجتهدون وغير المجتهدين على أمر من الأمور عبر العصور، ولذلك نسميه إجماع العامة.

2- أما الإجماع الذي يتحدث عنه الأصوليون فهو: إجماع المجتهدين خاصة، وهذا ما يجري فيه الكلام عندهم، وهو ما نسميه إجماع الخاصة، ونقصد بهم المجتهدين.

وهذ الإجماع منه عام، وهو إجماع المجتهدين، ومنه خاص، وهو: إجماع طائفة معينة منهم، كالخلفاء الراشدين، أو أهل البيت ، أو علماء المدينة، أو المِصْرَينِ (الكوفة والبصرة) أو غير ذلك.

3- الإجماع الأصولي: وهو إجماع الخاصة إجماعًا عامًا، والإجماعات الأصولية التي هي من هذا القبيل، والتي تحافظ على هوية الإسلام، وتجعل الظني قطعيا ليست كثيرة العدد ولا تتجاوز الألْف أو ألف وخمسمائة إجماعا، ومن ثم فهي ليست مؤثرة في عملية الاجتهاد،

فلدينا أكثر من مليون فرع فقهي محل اجتهاد.

ومخطئ من ظن أن الإجماع حائل أمام الفكر والاجتهاد والإبداع، فليس هذا بصحيح، لأن الإجماع الحقيقي إن صح لا يصطدم مع الاجتهاد بل يعين عليه ويضبطه، ولكن قد يخطئ بعض الفقهاء فينسب إلى الإجماع ما ليس داخلا فيه، فيحجر بذلك على التجديد وعلى مسايرة الواقع والقيام بواجب الوقت.

أما إذا جاء أحدهم يريد أن يجعل الظهر ثلاث ركعات، فهذا ليس محلا لحرية الفكر ولا محلا للاجتهاد، وإنما هو من الجهل المركب.

فمن مكونات العقل المسلم أن الدين ليس كلأ مباحًا، فيجتهد في أحكامه من لم يملك آلية الاجتهاد، وأن العقل المكتسب (الملكة) مقصد مهم في الاجتهاد، وأن من يعتبر بإجماعهم هم من امتلكوا العقل المكتسب، أما الدواعش ومن على شاكلتهم ممن يخرجون علينا كل يوم بآراء شاذة ، فمعنى الإجماع لم يتصور عندهم.

المسئولية الفردية

المسئولية الفردية في الإسلام تعد مبدءًا عامًا يسري في جميع نصوص الوحيين الشريفين، ومكونًا أساسيا من مكونات العقل المسلم، استقر في وجدانه، يسير به في حياته ويتحكم في سلوكياته، فيجعله دائما يعلم أنه وحده مسئول عن جميع أفعاله، فلن يحمل عنه أحد جريرة أفعاله، كما لن يحمل هو عن غيره شيئا، وهذا مغاير لما كان سائدًا في الجاهلية من أنه إذا اعتدى فرد من قبيلة على آخر، فإنَّ كلّ أفراد قبيلة المعتدي يكونون هدفًا لأخذ الثأر من قبل القبيلة الأخرى.

فجاء الإسلام ورفض كل هذا، وأقر المسئولية الفردية، وجعلها مكونا من مكونات العقل المسلم، ولأهمية هذا المكون جاءت آيات القرآن الكريم بتأكيده بصور شتى، حتى لا يكون هناك مجال لأحد في نفي مسئوليته الفردية عن شيء من أفعاله، وإن كان لغيره يد فيها، فنصت أنه ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾(1)

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣)﴾(2) وأن كل إنسانٍ مسئول عن أعماله يوم القيامة.

فاستطاع هذا المكون الإطاحة بمفهومٍ بالٍ من مفاهيم الحياة القَبَلية، وهو أن الفرد يؤخذ بجريرة غيره، وكذلك ما قد شاع في بعض الديانات من ميراث الخطيئة والقول بأن أبناء آدم

(1) سورة النجم، الآية:38.

(2) سورة لقمان، الآية:33.

يتوارثون خطيئته.

أقر الإسلام مبدأ أن الإنسان يجزى بما كسبت يداه فقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ (٨)﴾[الزلزلة: 7 – 8]

ونفى القرآن الكريم أن يتحمل أحد وزر أحد أو مسئوليته الفردية عنه ولو كانوا أقاربه.

ومن المعلوم أن أقارب الإنسان هم أكثر الناس التصاقا به في الحياة الدنيا؛ حتى جعلهم الشرع الشريف أحق الناس بأمواله وممتلكاته بعد وفاته بأنصبة مقدرة شرعًا منصوص عليها تأكيدا على قوة هذه الصلة واهتماما بها ، إلا أنه كما نَص على أن أقارب الإنسان هم أحق الناس به وبأمواله إلا أنه بين أيضًا أنهم لن ينفعوه بشيء ولن يضروه بشيء، وأنه سيتحمل مسئوليته كاملة عن أفعاله أمام الله عزوجل .

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾(1)

كما نفى أن يتشارك معه في مسئوليته أحد، ولو كانت جماعته التي ينتمي إليها أو حزبه الذي يتبناه إن حاد بهم عن الطريق المستقيم، ومال عن المنهج المنضبط.

قال تعالى قول تعالى ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ (١٦٦)﴾(2)

(1) سورة عبس، الآية : 34 – 37.

(2) سورة البقرة، الآية: 166.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾ (1)

كما بين القرآن الكريم أن الإنسان سيقف أمام الله فردًا مسئولا عن أفعاله.

قال تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ (2)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (3).

وقد قص الله عزوجل لنا من قصص الأنبياء والمرسلين ما يجعل هذا المبدأ راسخ في عقيدة المسلم ، فيحكي لنا القرآن قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام ودعوته لقومه، وكيف كان أبوه كافرا بالله، لكن الله اصطفاه وفضله وقرن اسمه باسم خاتم أنبيائه ورسله إلى يوم الدين، فعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة عليه في التشهد نقول: «اللّهم صلِّ على سيدنا محمدٍ وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم» وقال تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [سورة النحل: 123]

كذلك قص علينا قصة سيدنا نوح وهو من أولي العزم من الرسل، وقد كان ابنه وزوجته من الكافرين، فلم يغن عنهما من الله شيئا. قال تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ

(1)سورة العنكبوت، الآية: 12.

(2)سورة مريم، الآية: 95.

(3)سورة الأنعام، الآية: 94.

﴿ٱلْمُغْرَقِينَ﴾[1]

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾[2]

والمسئولية الفردية لا تعني أن يعيش الإنسان حياته منعزلا غير متفاعل ولا مؤثر، بل على العكس تماما، فالإسلام نفي مسئولية الإنسان عن فعل غيره، لكنه أحل مكانها مسئولية جديدة تجعل منه نواة لوحدة يمكن أن تتسع على أساسٍ من مراعاة الضمير وتقوى الله في السر والعلن، ونعني بها: الوحدة التي يقف الفرد فيها إلى جانب الآخر كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ المؤمنين فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِم مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بالسَّهر وَالْحُمَّى».[3] ويقول –صلى الله عليه وسلم–: «إنَّ المؤمنَ للمؤمن كالبُنيانِ، يشُدُّ بعضُه بعضاً».

فالمسئولية الفردية في الإسلام هي عامل لمجتمع قوي متعاون متماسك؛ لأنه إذا شعر كل إنسان بمسئوليته وأنه محاسب عليها وحده كان ذلك مدعاة للقيام بما وجب عليه فعله على أتم وجه وصورة.

---

(1) سورة هود: 42، 43.

(2) سورة التحريم، الآية: (10).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه 10/8/ح 6011، مسلم في صحيحه 4/1999/ح2586، واللفظ له.

ولا يخفى أن هذا المكون من مكونات العقل المسلم هو ما تنادي به القوانين العادلة، ومواثيق حقوق الإنسان في الدول المتقدمة اليوم.

الختام

مركز القضية الإسلامية هو "الإنسان" وكيف يُسَيِّر طريقه في الحياة الدنيا معمرًا منتجا مبدعًا عابدا لله تعالي ومتحققًا بالهدف الذي خلق لأجله والذي فيه سعادته في الدنيا والآخرة.

ولأجل التحقق بهذا الهدف جعل الله تعالى له عقلا وميز هذا العقل بمكونات إن راعاها المسلم والتزم بها ضمنت له أن يعيش متوافقا مع واقعه وزمانه ومكانه، ودفعته أن يكون مؤثرًا فيه، حتى يكون صانعا للنهضة بكل جوانبها، ولا بد أن يحيا المسلم بهذا الأمل وأن يكون صانعًا للنهضة وألا يكون أداة للتخريب والتشريد والإفساد في الأرض.

عرفنا سويا من خلال مكونات العقل المسلم كيف يرتقي الإنسان في درجات المعرفة حتى يرفعه الله تعالى قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1]، ونحن نريد من درجات المعرفة الهرم المعدول الذي يزيدنا قربا من الله، ويرفع درجاتنا عنده، وليس الهرم المقلوب الذي يزيدنا بعدا عن الله سبحانه وتعالى، ويسفلنا في الدركات الدنيوية والأخروية.

وإن جماعات الانحراف والضلال التي شاعت وراجت بين المسلمين في عصرنا هذا، فخرجوا علينا بالسلاح، يقتلون أهل الإسلام يرمونهم بالجاهلية والردة والكفر، تلك جماعات ضلت وفقدت عقلها، قد يستنكر بعض الناس أليس لهم "مخ" أليسوا مكلفين؟ نعم لهم مخ، ونعم هم مكلفون أما الله ومسئولون أمام الناس ومؤاخذون بفعلهم

(1) سورة المجادلة، الآية: (11).

وجرائمهم، ولكن لكثرة ما أحاطوا هذا المخ بالأوهام والتخييل والخرافة والشهوة والجهل وقلة الخلق والحياء والديانة، راح سلوكهم يتجه نحو العنف والقتل والتدمير والإرهاب، ولا يمكن أن يكونوا عرفوا العقلية الإسلامية ولا حصلت لهم مكونات تلك العقلية كما شرحنا في هذا الكتاب.

عن أَبِى مُوسَى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ بَيْنَ يَدَىِ السَّاعَةِ الْهَرْجَ ». قِيلَ: وَمَا الْهَرْجُ؟ قَالَ: «الْكَذِبُ وَالْقَتْلُ ». قَالُوا: أَكْثَرُ مِمَّا نَقْتُلُ الآنَ. قَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ بِقَتْلِكُمُ الْكُفَّارَ وَلَكِنَّهُ قَتْلُ بَعْضِكُمْ بَعْضاً حَتَّى يَقْتُلَ الرَّجُلُ جَارَهُ وَيَقْتُلَ أَخَاهُ وَيَقْتُلَ عَمَّهُ وَيَقْتُلَ ابْنَ عَمِّهِ». قَالُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ وَمَعَنَا عُقُولُنَا يومئذ؟ قَالَ: "لاَ، إِلاَّ أَنَّهُ يَنْزِعُ عُقُولَ أَهْلِ ذَاكُمُ الزَّمَانِ حَتَّى يَحْسِبُ أَحَدُكُمْ أَنَّهُ عَلَى شَىْءٍ وَلَيْسَ عَلَى شَىْءٍ" .

قال أبو موسى الأشعري: وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ تُدْرِكَنِى وَإِيَّاكُمْ تِلْكَ الأُمُورُ، وَمَا أَجِدُ لِى وَلَكُمْ مِنْهَا مَخْرَجاً فِيمَا عَهِدَ إِلَيْنَا نَبِيُّنَا صلى الله عليه وسلم إِلاَّ أَنْ نَخْرُجَ مِنْهَا كَمَا دَخَلْنَاهَا لَمْ نُحْدِثْ فِيهَا شَيْئاً، لَمْ نُصِبْ مِنْهَا دماً وَلاَ مَالاً. (1)

فأوصي كل مسلم أن:

1- يتقن اللغة العربية لأن اللغة والفكر وجهان لعملة واحدة.

2- يقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة.

3- يتدبر في المآلات.

---

(1) مسند أحمد:406/4، رقم (19653) وصحيح ابن حبان: 103/15، رقم (6710)، وسنن ابن ماجه: 1309/2 رقم (3959).

4- يعلم أننا أمام طريق له مراحل: له بداية وله وسط وله نهاية، فيه الذكر وفيه التخلي وفيه التحلي ثم التجلي، والمقصود في الكل هو الله، ومن غيره سبحانه نضل التوجه، ونضيع في هذه الحياة الدنيا.

والصلاة والسلام على خير البرية أجمعين وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين.

فهرس الموضوعات